الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

د. منذر القباني

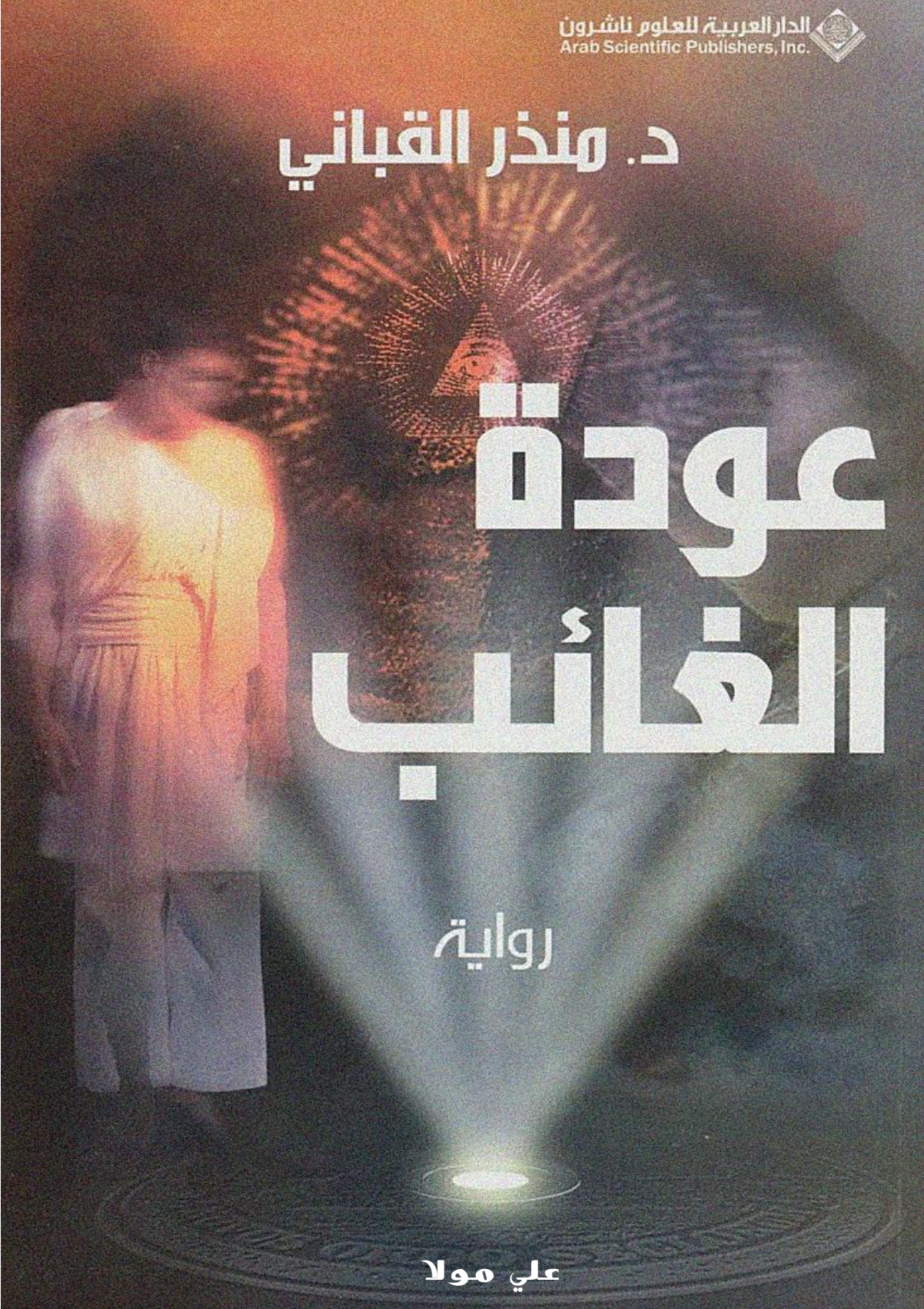

عودة الغائب

رواية

علي مولا

عودة الغائب

رواية

منذر القباني

الدار العربية للعلوم ناشرون ش م ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بسم الله الرحمن الرحيم

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية
أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل
على أشرطة أو اقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها
حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر

الطبعة الأولى

1429 هـ - 2008 م

ردمك 978-9953-87-346-6

جميع الحقوق محفوظة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الدار العربية للعلوم ناشرون** ش. م. ل

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

أود أن أتــوجه بالشكر لكل من شارك في مسابقة رواية عودة الغائب، وعلى رأسهم الأستاذ مولاي أرشيد ولد أحمدو من موريتانيا الذي استطاع أن يصل بخياله إلى **مدينة حَدَاد!**

عام 1909

كـــان الهـــدوء يعـــم وادي نهـــر الكلب في ذلك اليوم الصحو، الـــصافية ســـماؤه، حتى إنه كان باستطاعة نجم الدين غول أن يسمع صوت خرير المياه المنبعث من الينابيع، التي مر بها على بعد مئات الأمـــتار... لم تكن الفريسة هذه المرة بالسهلة، فبالرغم من أن مقدرة نجـــم الـــدين غول في التتبع كانت تزداد مع كل صيد، إلا أن خصم الـــيوم كـــان أذكى من سابقيه – ولكن ذكاء الفريسة، مهما بلغ، فلن يفـــيدها الـــيوم – فالخبـــرة المتراكمة التي اكتسبها نجم الدين، عبر سنوات القنص السابقة جعلته في أقدر حالاته، حتى إنه أصبح يستعين بالريح الخافت، الذي يكاد يحرك أوراق شجر الصنوبر، الذي يفترش الغابة، في تتبع رائحة فريسته.

أخذ نجم الدين يحرك جسمه اللّين، الذي تجاوز الأربعين عاما، بهـــدوء وتأن، حتى لا يلفت الانتباه لنفسه، فسنوات القتال في الجيش العثماني أكسبته القدرة على السيطرة التامة على كل عضلات جسده، مـــستغلا إياها في الوصول الى هدفه، إن كان قتل العدو، أو الهروب مـــن شدة نيرانه، ولكن ذلك الزمان قد ولّى وراح، فالحرب اليوم مع فريسة لا تمتلك سوى الهرب، إن استطاعت... أخذ يتحرك أكثر نحو الهـــدف الـــذي بدا له في الأفق، وضع بندقيته في وضع التصويب، الفـــوهة كانـــت في اتجاه الظبية البيضاء، التي لم يسعفها هذه المرة إحـــساسها الغريـــزي بالخطـــر المحـــدق، وفي لحظة انطلق صوت البندقـــية، وأصـــبحت الظبية ذكرى حيوان جاب هذه الغابة، أو هكذا لوهلة ظن الصياد...

لم يذكر نجم الدين متى كانت آخر مرة فلتت منه فريسة، فمثله لا يمكـــن أن يحـــدث هذا معه، ولكنه اليوم قد حدث، فلتت منه، لكي تكون فريسة غيره؛ فالذي أطلق النار لم يكن هو!

مـــن الذي سبقه إلى فريسته؟ أخذ يتساءل، وهو يتجه نحو جسد الظبـــية، ولكن شيئا ما جعله يتمهل، فكأن سكون المكان كان يحذره مـــن عـــدو خفي لا يراه، ولكن بدأ يشتم رائحته. اختبأ وراء إحدى أشـــجار الـــصنوبر، وأخذ ينظر خلسة نحو الفريسة التي أصيبت في فخـــذها، كـــأن قانـــصها أرادها حيّة، فلم يصيبها في مقتل، كما هي العادة.

إقتـــرب ثلاثة رجال من الفريسة الملقاة على أرض الغابة، وقد استـــسلمت لقدرها المحتوم، فلم تبد أية مقاومة، وفي حركة سريعة، دون تفكيـــر تم ربط أطراف الظبية في قطعة خشب، قد أعدت لهذا الغرض، ثم حملت.

راقـــب نجـــم الدين الحدث، وهو يتساءل عن معنى ما يجري، فالـــرجال الـــثلاثة حـــتما هـــم ليسوا من سكان المنطقة، أو القرى المجاورة، فهو لم يرهم من قبل، فزيهم كان غريبا أشبه بزي احتفال الكـــرنفال فـــي المدن الأوروبية التي زارها من قبل. كان ذلك الزي أبعـــد مـــا يكـــون عـــن زي يُرتدى من أجل الصيد. تتبع نجم الدين الرجال، وهم يحملون الظبية، دون أن يشعروا به، وبعد مسافة نصف مـــيل وصـــلوا إلى طريق يسده تل من التلال التي تملأ غابة جعيتا. ذهـــب أحـــد الرجال إلى ركن من التل كان يكسوه أعشاب وأشجار يافعـــة. نظـــر حـــوله ثـــم عندما شعر بالاطمئنان، أزاح الأعشاب والأغـــصان ليكشف عن فتحة مغارة دخل منها هو وزملاؤه حاملين فريستهم معهم، ثم اعيدت الاعشاب والاغصان إلى سابق عهدها. كل ذلـــك كان على مرأى من نجم الدين غول الذي ظل ساكنا يراقب ما يحدث كأنه يراقب صيدا جديدا يوشك أن يطبق عليه.

تتـــبع نجم الدين الرجال الثلاثة داخل المغارة التي لم يكن على علـــم بوجودها بالرغم من معرفته الجيدة للغابة التي اعتاد الاصطياد فـــيها مـــنذ خمـــسة أعوام، عندما قرر ترك مسقط رأسه إستانبول، والاســـتقرار بضاحية من ضواحي بيروت على مسافة أميال بسيطة مـــن غابة جعيتا. دخل المغارة خلسة بعد دقائق من دخول الأغراب. لـــم يـــشاهد نجـــم الدين في حياته مغارة كهذه من حيث الروعة أو الجمـــال حـــيث كانت الجوانب والأسقف مليئة بالمنقوشات الطبيعية المكونة من صواعد ونوازل كلسية. كاد لوهلة أن ينسى سبب دخوله للمكان ولكن سرعان ما تذكر عندما سمع أصوات بدت احتفالية قادمة مـــن الداخل. شيئا فشيئا أخذ نجم الدين يقترب من الأصوات، مختبئا وراء زوايـــا المغـــارة حتى لا يفتضح أمره. بدأ يتذكر ما كان يتردد علـــى لسان بعض أطفال الضيعة عن الأغراب الذين كانوا يظهرون فجـــأة فـــي الغابة في مثل هذا الوقت من العام. ظنها مجرد حكايات أطفـــال يبحـــثون عن اللهو ولفت الأنظار إليهم. لم يعر هو، أو أي شـــخص يعرفه، الاهتمام بما كان يردده هؤلاء الأطفال، ولكن الأمر قـــد اختلف الآن... ولكن من هم هؤلاء الأغراب؟ وماذا يفعلون في هـــذه المغارة التي لم يرها أو يسمع بها من قبل؟ بدت الأسئلة تراوده وهـــو يقتـــرب أكثر من الأصوات التي أخذ يتضح له مصدرها على مسافة ليست ببعيدة، ولكنها كانت كافية لتفصله عن الجمع الذي إتخذ من المكان مقرا لتجمعهم.

ما شاهده نجم الدين في الدقائق التي مضت، دون أن يشعر بها، كان فوق استيعابه، ففي حياته ما كان ليتخيل أنه سيشاهد أو يسمع ما كـــان يـــدور أمامه. لم تكن الغرابة فقط في الرداء الأسود الممزوج باللونـــين الأحمـــر والفـــضي الـــذي كـــان يغطي أجسام الحضور ورؤوســـهم، كاشـــفا فقـــط عـــن وجوههم، ولكن الأغرب كان الجو الاحتفالـــي للعـــشرين رجـــلا الذين كانوا مصفوفين في دائرة حول

كبيـــرهم الـــذي طعن الظبية في صدرها، وهو يتمتم الأهازيج بلغة تعـــرف علـــيها نجم الدين على الفور، بالرغم من أنه لم يسمعها منذ زمن بعيد عندما كان قائد حامية منطقة نصيبين؛ وعلى قدر ما كانت اللغة التي كان يتحدث بها كبير الجماعة مصدر دهشة لنجم الدين، إلا أن مـــا قـــيل كان مصدر الفزع الحقيقي. فبعد تقديم الظبية، كقربان لمجـــسم دائـــري كان ينبعث منه ضوء الشعلات التي كانت تضيء ســـاحة الاحتفال، أخذ كبير الجماعة يشكر إلههم على الإنتصار الذي تحقـــق مؤخـــرا، ثم بدأ يذكر للحضور ماالذي سيكون في المراحل القادمـــة. كل ذلك كان على مسمع من نجم الدين الذي كان في ذهول شـــديد لـــم يخرجه منه إلا صوت الطلقة النارية التي كادت تصيب رأسه!

فجأة توقف الاحتفال، وفي ثانية أو أقل، توجهت جميع الأنظار إلـــى المكان الذي كان مختبئا خلفه الغريب الذي إستطاع أن يخترق المكـــان الـــذي على مدار تاريخهم لم يخترقه أحد من قبل. تلاحقت الطلقـــات خلـــف نجم، الدين الذي أدرك أن وقت الفرار قد آن، فأخذ يـــركض نحـــو مخرج المغارة كما لم يركض من قبل، مستجمعا كل قواه لتفادي تراشق الرصاص الذي كان يلاحقه.

لـــم يكـــذب الـــذي قال بأن الإنسان عندما يكون على مشارف المـــوت، يمر عليه شريط سنوات حياته في ثوان، فهذا ما كان يراه نجـــم الدين وهو يجري نحو المكان الذي ربط فيه فرسه في أطراف الغابة. كان يسمع صوت دقات قلبه المتسارعة التي كانت تتسابق مع الـــزمن لكـــي تمـــد جسد صاحبها بكل ما يحتاجه من دماء من أجل البقاء. إستمر على هذا الحال حتى اخترقت طلقة جسده، مما اضطره إلى التواري فورا خلف إحدى أشجار الصنوبر؛ وفي سرعة متناهية، دون أدنـــى تفكير، أخذ حفنة من البارود الذي كان معه، فوضعه في داخـــل الجرح الذي كان تنزف منه الدماء، في جنبه الأيسر، ثم أخذ

قطعتـــي حجر من الأرض، فأشعل بالشرارة التي نتجت عن قدحهما بـــبعض البارود المحشو في جرحه، كاويا إياه، مما تسبب في وقف النـــزيف، معطيا لنفسه بذلك بضع ساعات إضافية لكي يحاول إنقاذ نفسه. نظر نجم الدين من وراء الشجرة ثم إنطلق، عندما إطمأن، نحو فرسه الذي لم يعد يبعد كثيرا عن مكانه.

هـــب الحـــصان وعلى ظهره صاحبه وقد أخذ يسابق الريح الـــذي بدأ ينشط بعد غفلته. نظر الصياد الجريح خلفه ليرى ما قد حـــل بغرمائه فوجد ثلاثتهم على مسافة ليست ببعيدة منه يلاحقونه على أحصنتهم. شعر في الأثناء أن الجرح قد بدأ ينزف من جديد. الـــوقت لـــم يعد في صالحه. كان لا بد له أن يصل إلى داره لكي يـــدون مـــا قـــد رأى وما قد سمع؛ فلا بد لغيره أن يعرف ما قد عرف!

توقـــف الحـــصان عند مدخل البيت القابع في أطراف الضيعة. تمنـــى نجـــم الـــدين في تلك اللحظة لو أنه يسكن وسط الناس حتى يـــسعفوه فيتمكن من تنبيههم مما يحوم حولهم من أمر مريب. تذكر كـــيف كـــان في الماضي يتمنى أن يأتي الزمن الذي يستطيع فيه أن يعـــيش بمفرده بين أحضان الطبيعة هو وفرسه وبندقية الصيد، بعيدا عـــن صخب الناس؛ ثم تذكر مقولة قالها له في يوم من الأيام صديقه خليل الوزان عندما أخبره بتلك الأمنية:

– "احذر مما تتمناه، لأنه قد يتحقق!"

دخـــل نجم الدين البيت، وذهب فورا، وهو يجر جسده الذي بدأ يتـــثاقل، إلـــى حجرة النوم. جلس عند مكتبه في زاوية الحجرة وأخذ بعـــض الأوراق ثم بدأ يكتب بعد أن طل طلة من الشباك وأدرك أن غـــرماءه قـــد إقتـــربوا. لـــم يعد أمامه وقت طويل، وقد بدأ يشعر بالـــضعف، والإعياءْ الشديد. خشي أن تنخار قواه قبل أن يدون، ولو جزءا مما شاهد، وسمع.

وصل الرجال الثلاثة إلى مدخل البيت. نظر أحدهم إلى رفيقيه مبتسما بعد أن لاحظ قطرات الدم على عتبة الباب. أخذوا يتتبعون قطرات الدم التي دلتهم إلى الحجرة التي كان يقبع فيها ذلك الدخيل الذي استطاع أن يفعل ما لم يستطع غيره عبر قرون من الزمان. لن يجديه الآن ما قد شاهد أو ما قد سمع، إذ لن يعيش حتى يخبر أحدا، فهاهم الآن يحرصون على أن يكونوا آخر من يرى ذلك التعس حيا.

استلقى نجم الدين على سريره، بعد أن فرغ من تقطير القرطاس بالحبر السائل الممزوج بقطرات عرقه المتصبب. شعر بأن الأجل قد دنا ولم يبق له على هذه الأرض سوى ثوان معدودة. شاهد الرجال الثلاثة وهم يدخلون الحجرة بحذر، وفوهات بنادقهم مصوبة نحوه. تمعن هذه المرة النظر في وجوههم. كان يرى في نظرات أعينهم الموت، وفي ملامح وجوههم قسوة غير مبالية. لم يتمالك نجم الدين غول في تلك اللحظة سوى الابتسام وهو يتأمل حاله الذي أمسى عليه، وكيف أن القدر قد سخر من الجميع، وقلب الحال؛ ليجعل من الصياد صيدا!

عام 2006

مـــن أجمـــل اللحظات هي تلك التي يرى فيها الإنسان ما ظل طـــوال حياته يحلم بالوصول له، أو الحصول عليه، وقد أصبح قاب قوســـين أو أدنـــى منه. هكذا كان يشعر جمال جداوي، وهو ينتظر اللحظـــة التـــي يُـــستدعى فيها إلى صالة أفراح السيدات، لكي يزَف بجـــوار عروســـه التي ما أحب أحدا في حياته كما أحبها. فمنذ أول لحظة وقعت فيها عيناه عليها في مرسى "البرتو بانوس" بمدينة مربيا الإســـبانية، وقد شعر بأنها هي نصفه الثاني الذي ظل يبحث عنه في كـــل فتاة تعرف عليها. رآها في إحدى الليالي وهي تخرج من مطعم "لاميـــرا" برفقة صديقاتها. تسمر مكانه وهو ينظر إلى أجمل فتاة في "البـــرتو بانـــوس" وهي تسير بخطوات هادئة ومتأنية، مليئة بالثقة، وكأنهـــا كانت تشعر بنظرة إعجاب كل من تصادفه أثناء سيرها على رصـــيف الميـــناء المكتظ بالخليجيين في هذا الوقت من العام. تذكر جمـــال كـــيف أنه إستطاع في أقل من ساعة بمساعدة شبكة علاقاته وعلاقات أصدقائه أن يعرف من تكون تلك الفتاة؛ فمن حسن حظه أن مـــربيا مدينة صغيرة، والعوائل الخليجية التي تأتيها كل عام، تكاد لا تختلف.

- "اسمها دلال رحال." أخبرته خلود أخت صديقه سعيد.
- "دلال رحال، ماذا تكون لرجل الأعمال المعروف سمير رحال؟"
- "هي ابنته من زوجته الأولى."

شـــعر جمال في تلك اللحظة بأن الحظ يبتسم له؛ فبجانب كونها سعودية، فهي أيضا من سكان جدة.

– "ولكـــنها تعـــيش مـــع خالتها زينب ساهر التي تمتلك سلسلة محلات الساهر للأزياء." أكملت خلود.

فـــي أقل من ساعة استطاع أن يعرف جمال الكثير عن دلال، وفـــي الـــساعة التالـــية كانـــت الاتصالات والمفاوضات تدور حول الطـــريقة المثلـــى للقاء الأول، حتى إستقر الرأي على أن يكون ذلك اللقـــاء المـــرتقب في حفل عشاء سيقام على يخت الصديق المشترك فاضل بارمح في الليلة التالية.

تذكـــر جمال ذلك اللقاء الساحر، والحديث العابر الذي دار بينه وبين دلال؛ لم يصدق أنه مضى عليه عام:

– "هل لديكِ صديق؟"

–"ماذا؟!"

–"فقـــط أردت أن أعلم إن كنت مرتبطة أم لا؛ فإن لم يكن لديكِ صديق، فأنا في الخدمة."

–"أنت وقح!"

– "أنـــا لـــست وقحـــا ولكنـــي أحب الوضوح في تعاملي مع الآخـــرين، وبصراحة أنا أعجبت بك منذ اللحظة التي رأيتك فيها... هل تقبلين بأن نكون أصدقاء؟"

ابتـــسمت دلال لجرأة ذلك الشاب الذي لمحته البارحة ولم تعره الكثيـــر من الإهتمام، ثم هاهي تلتقي به الليلة في هذا الحفل بطريقة كان من الواضح أنها مدبرة.

–"لا بأس، سوف أضم اسمك إلى قائمة الراغبين."

قالـــت دلال جملـــتها ثم انصرفت، دون أن تنظر خلفها، فظن جمال لحظتها أن ذلك اللقاء كان هو الأول والأخير؛ لكن ظنه لم يكن فـــي محلـــه، فـــبعد عـــدة أسابيع، عندما عاد إلى جدة، هو ومعظم المصطافين، قبيل بدء المدارس والجامعات، تلقى صك الإنتصار في صيغة رسالة نصية على هاتفه الجوال:

أرجو ألا تكون قد مللت الانتظار.

كلمني إن كنت لا تزال من الراغبين.

دلال

لـــم يـــدرك جمال سبب هذا التغير المفاجئ، والحق يقال إنه لم يشغل باله كثيرا بالأسباب والعلل، ففي النهاية قد حصل على ما كان يريد، صداقة أجمل فتاة في جدة!

اســـتمرت العلاقة، وأخذت تتوطد إلى أن شعر برغبة ملحة في الارتـــباط بهـــا، علـــى الرغم من اعتراض الأهل وبعض الأصدقاء المقربين، وعلى رأسهم سعيد.

– "لـــو كـــنت أعلم بأنك سوف تقدم على مثل هذه الحماقة لما جعلت خلود ترتب لك لقاءها في مربيا."

– "ســـعيد... هـــذه حياتي وأنا حر في الارتباط مع من أراها مناسبة."

– "ولكـــنها ليـــست مناســـبة، ألا ترى ذلك؟... مثلها لا يصلح للزواج، صدقني، ثم يا أخي، يكفيك سببا سمعة خالتها في جدة!"

– "أنـــا لي بها هي، ولا يهمني سمعة خالتها في شيء. ما يهم هو أني أرغبها؛ أما ماعدا ذلك، فلا يعنيني."

–"كـــيف لا يعنيك؟ هل أنت واع لما تقول يا جمال! اسمع كلام صديقك، ودعك منها؛ ثم بصراحة أنا لا أعتقد أنها تحبك، وهذا ليس فقط رأيي، ولكنه رأي خلود أيضا."

– "انت فقط تغار مني لأني استطعت أن احصل على أجمل فتاة في جدة!"

– "جمـــال! عـــم تـــتحدث؟ هل هذا رأيك في بعد كل سنوات الصداقة؟! على العموم أنا آسف. افعل ما تريد، وحقك علي."

إصـــرار جمـــال علـــى الارتباط بدلال جعل الأهل والأصدقاء يرضـــخون لـــرغبته، ومـــع مرور الوقت بدأت تهدأ الاعتراضات،

وتتحول إلى شيء من الرضا للسعادة التي بدت واضحة على جمال؛ وعلـــى العكـــس من مخاوف والديه من أن يؤثر هذا الارتباط على دراســـته، وهـــو فـــي السنة النهائية من كلية الطب، أثبت جمال أن ارتباطه بدلال كان حافزا له على التفوق. وإستطاعت هي بذكائها أن تكسب في صفها، في وقت قصير، معظم أصدقائه وأقربائه.

ذهب العريس إلى قاعة السيدات في قصر والد العروس، وزفا فـــي حفل كلف عدة ملايين، ظلت جدة تتحدث عنه شهورا، حضره أعـــيان جـــدة، وأحياه لفيف من أشهر مطربي العالم العربي، جلبوا بطائـــرة خاصة من أجل هذه المناسبة السعيدة؛ فزواج الابنة الوحيدة لـــرجل الأعمال المعروف سمير رحال لا يمكن أن يمر هكذا، دون "شنة ورنة"، بل لا بد له أن يتفوق على كل ما سبقه من أعراس بنات معارفه من أعيان البلد!

– "هـــل تأكـــد الحجز إلى إمريكا؟" كان أول ما قالته دلال عند دخولها مع جمال إلى جناح شهر العسل بالفندق.

– "نعم، وعبر لندن كما رغبت."

– "هايل، سأخبر أبي حتى يأمر سكرتيرته في لندن لتعد لنا شقة "بيزواتـــر"، وأيضا لكي تستقبلنا في المطار." قالت دلال، ثم بابتسامة ماكرة أكملت، وهي تقبل عريسها... "سيكون شهر عسل لن تنساه."

كانت الترتيبات في لندن على أكمل وجه، وشقة "بيزواتر" التي تطـــل علـــى حديقة الهيدبارك كانت أروع مما تخيل جمال. بدا على دلال ســـعادة كبيـــرة منذ لحظة وصولها إلى لندن، وقد وصلت هذه الـــسعادة إلى ذروتها، حين دخلت الشقة، وأخذت تنظر عبر نوافذها الكبيـــرة إلـــى الهايد بارك الذي كان مكتظا بالناس من كافة الأعمار والأجناس.

– "لم أشاهدك في هذه الحالة من السعادة منذ أن تعرفت عليك." قال جمال، وهو يعانق عروسه.

– "لقد قضيت هنا أجمل ذكريات الطفولة، قبل أن تنفصل أمي عن أبي."

– "أعـــدك بأن المستقبل سوف يكون أجمل بكثير من الماضي، وستكون أيامنا كلها ذكريات جميلة."

– "أتمنـــى ذلـــك." قالت دلال متأملة ما قاله جمال. كانت تريد التعليق، ولكن ما إن تفرقت الشفتان حتى عدلت عن الكلام، واكتفت بالنظر مرة أخرى من النافذة نحو الحديقة الغناء.

– "ما رأيك في أن نتمشى قليلا في الهايدبارك، الجو رائع."

– "فكـــرة جميلة ولكن لم لا نؤجلها إلى الغد." قالت دلال بنبرة مترددة.

– "هـــيا بنا،الطقس في لندن غير مضمون؛ ففي أية لحظة قد يأتي الغيم والمطر." أصر جمال، ثم سحب خلفه دلال إلى الهايد بارك.

كانـــت الحديقة ممتلئة بالناس، وبعض الكلاب الأليفة التي كانت تلعـــب مع أصحابها. ابتسم جمال وهو يشير إلى كلب دوبرمان غير مقـــصوص الـــذيل والأذنين، على خلاف ما جرت عليه العادة لهذه الفـــصائل مـــن الكـــلاب، وقـــد كان يقفز بشكل لم ير مثله من قبل وصـــاحبه يرمـــي له في الهواء صحن "الفريزبي". لكن سرعان ما اخـــتفت الإبتـــسامة عـــندما توقـــف الكلب عن لعبه ثم أخذ بالاتجاه نحوهما. في تلك اللحظة شعر جمال بالخوف من أن يكون الكلب قد عـــزم على مهاجمتهما، وقد سمع الكثير عن شراسة هذه الفصيلة من الكـــلاب، ولكـــن سرعان ما تبددت مخاوفه، عندما نادى شاب أشقر يكبر جمال ببضع سنين كلبه.

– "يـــا إلهي! حسبت أن الكلب سيهجم علينا، فلا أدري ما الذي جعله يتجه نحونا هكذا." قال جمال بصوت مرتجف.

– "لا تشغل بالك، كلاب الدوبرمان شرسة بطبعها، ولكنها تطيع صاحبها."

– "يــبدو أنــك تعرفين الكثير عن الكلاب، لم أكن أعرف ذلك عنك." قال جمال، غامزا لعروسه.

– "عــندما كنت صغيرة كان عندي واحد مثله." قالت دلال، ثم أدارت وجهها إلى عربة مرطبات في جانب من الحديقة..." ما رأيك في شيء بارد على ذوقك من تلك العربة؟"

– "لا بأس."

– "اذهب أنت، وأنا سأحجز هذا المكان الجميل تحت الشجرة."

تحــرك جمال نحو العربة التي كانت مكتظة بالكبار والصغار؛ بعــد إنــتظار خمــس دقائــق، إستطاع أن يشتري المرطبات ثم بدأ بالإتجاه نحو الشجرة الكبيرة التي ترك خلفها دلال، ولكنه سرعان ما أخذ يدرك، مع كل خطوة كان يخطوها، أن تلك الشجرة لم تكن تخبئ عروسه...

– "أيــن ذهــبت؟" أخــذ يتساءل عند وصوله، وهو ينظر ذات اليمين وذات الشمال، دون أن يرى أي أثر لدلال...

بــدأت دقات القلب تتسارع، والعرق يتصبب، والأنفاس تتزايد، كلمــا أدار جمال رأسه. أخذ يجري في اتجاهات مختلفة، وهو ينادي دلال بأعلــى صوته إلى حد أنه لفت انتباه المتنزهين، فأقبل بعضهم عليه من أجل المساعدة، ظنا منهم أنه قد فقد طفله.

– "عفــوا... هل رأيتم امراة متوسطة الطول قمحية، ذات شعر أسود طويل، كانت ترتدي جينز أزرق وتي شيرت أحمر؟"

اســتمر جمال في بحثه وسؤاله قرابة الساعة، دون فائدة تذكر، ثم قرر الذهاب إلى أحد أفراد شرطة الحديقة من أجل المساعدة...

– "هل جرى بينكما خلاف؟" سأل الشرطي

– "لا طبعا، فقط ذهبت لكي أحضر المرطبات، ثم عندما عدت لم أجدها!"

– "هل تحمل هاتفا جوالا؟"

- "حاولت الاتصال به ولكني وجدته مغلقا."

- "ربمـــا ذهبت إلى الشقة، أو ربما قابلت صديقة لها، فسارت معها... أنت تعرف، النساء عليهن بعض الأحيان تصرفات غريبة... نـــصيحتي لك بأن تذهب إلى شقتك الآن، وإن لم تجدها هناك حاول الاتـــصال علـــى هاتفها الجوال مرة أخرى، لعلها نسيته مغلقا، وقد تفتحه في أية لحظة."

أخذ جمال بنصيحة الشرطي، وذهب إلى الشقة، آملا أن يجد فيها دلال... لعلهـــا شعرت بوعكة، فقررت العودة؛ أو ربما سبقته إلى الشقة لكي تحضر له مفاجأة ما، فدلال تحب دائما مفاجأة الآخرين... أخذ يفكر فـــي عدة احتمالات قد تفسر له سبب إختفائها المفاجئ، ومع كل احتمال يستعرضه كان الأمل عنده يزداد، إلى أن وصل إلى أعتاب باب الشقة؛ كانـــت هذه بالنسبة له لحظة من لحظات الحسم. أخرج من جيبه نسخة المفتاح التي إعطتها إياه قبل خروجهما، ثم هم بفتح الباب. كانت الثواني تمـــر وكأنهـــا دقائـــق والدقائق تمر وكأنها ساعات... هل سيجدها في الـــداخل؟ هـــل ستجري عليه رامية نفسها بين أحضانه؟ هل سيكتشف مفاجـــأة ســـارة رتبتها في الشقة دون علمه؟ لم لا؟ ألم تخبره بأن لديها الكثيـــر من الأصدقاء هنا في لندن، وأنها في يوم ما ستعرفه عليهم. قد يكون هذا هو اليوم... يوم الحفل المفاجئ!

دخـــل جمال إلى الشقة، والمفاجأة الوحيدة التي وجدها هي عدم وجـــود دلال. أخـــرج علـــى الفور جواله، وحاول الاتصال بها مرة أخـــرى، ولكن دون جدوى، فجوالها لا يمكن الاتصال به. بدأ القلق يملـــؤه مـــرة أخرى، وأكثر من ذي قبل، فماذا عساه أن يفعل؟ بمن يتـــصل؟ بوالدها؟ بأمها؟ أو ربما بخالتها؟ ولكنه فجأة تذكر سكرتيرة أبـــيها التي استقبلتهما في المطار. كان اسمها هدى، وقد أعطته رقم جـــوالها، لكي يتصل بها إن نقص عنهما أي شيء، وها هو قد نقص شيء... نقصت دلال!

مـــرت عدة ساعات منذ اختفاء دلال، وجمال وهدى السكرتيرة فـــي حيرة من أمرهما، يتباحثان اسوأ الاحتمالات إلى أن دق جرس الباب، فهبّا نحوه؛ فلعلها تكون...

– "عفـــوا ســـيد جمـــال على الإزعاج، ولكني وجدت شيئا في الحديقـــة أردتـــك أن تطلع عليه." كان الشرطي نفسه الذي حدثه في الهايدبارك، ولكن هذه المرة كان يحمل في يده اليسرى شنطة نسائية، سرعان ما تعرف عليها.

– "هذه شنطة دلال... أين عثرت عليها؟"

– "وجدتها على الجانب الآخر من البحيرة، في زاوية معزولة."

تعـــرف الشرطي على صاحبة الشنطة من رخصة القيادة التي كانت في داخلها، والتي كانت تحتوي على عنوان الشقة.

– "هل كانت زوجتك تحمل نقودا؟"

– "نعـــم، فهي دائما تحمل معها نقودا بجانب بطاقة الائتمان... ولكـــن لمـــاذا السؤال؟" استفسر جمال، وقد بدأ يدرك الإجابة قبل أن تأتيه من الشرطي.

– "مع الأسف لم أجد لا النقود ولا بطاقة الائتمان في الشنطة... سيد جمال، أخشى أن تكون زوجتك قد تعرضت لحادثة خطف!"

– "حادثة ماذا؟!"

شـــعر جمال في تلك اللحظة كما لو أن الأرض كانت تهتز من تحته. حادثة خطف في وسط مكان عام، وفي وضح النهار!..." ولكن كـــيف؟" لـــوهلة ظن أن هذه الأحداث قد لا تكون إلا مجرد كابوس مزعج سيفيق منه في أية لحظة، ولكن سرعان ما أدرك أن ما يعيشه هو واقع أليم ينبغي التعامل معه، سواء فهمه أو لم يفهمه!

* * *

هــز الــريح الخافــت القادم من فوق أمواج البحر الأبيض المتوسط ستارة الكابينة الفاخرة في سفينة الرويال كاريبيان، فوجد ضــوء القمــر مجالا، لكي ينبعث إلى داخل الكابينة ليكشف عن إمــراة خمسينية ملقاة على السرير، وعلى وجهها رُسمت ابتسامة ســعادة ونشوة. لم تكن دانيال لتتصور بأنها بعد الوصول إلى هذا الــسن، ستجد نفسها تخوض مغامرة عاطفية أشبه بمغامرات أيام الــصبا لتشعرها بأنها مازالت مرغوبة كأنثى، بالرغم من تعديها العقــد الخــامس بعدة أعوام. كانت سنواتها الأخيرة مليئة بالرتابة والملــل؛ حتــى زوجهــا الصحفي الشهير لم تعد تشعر معه بتلك اللــوعة التي كان وجوده في حياتها يحدثه لها. كانت دانيال تشعر بأنهــا تفتقد إلى شيء ما لم يغنها عنه رغد العيش، وعلو المكانة الإجتماعية. لم تدرك ما هو ذلك الشيء الغائب المفقود حتى قابلت جاك فاسترجعت معه ملذات الشباب ولهوه، حتى أصبحت لا تريد مــن الحــياة، سوى أن تكون بين أحضان عشيقها الوسيم، مفتول العــضلات، صــاحب القامــة الطويلة، والذي كان يصغرها بعدة أعوام! نسيت زوجها ونسيت أصدقاءها، بل نسيت حياتها السابقة؛ كــل ذلــك أصــبح خلــف ظهرها الآن، فهي مع جاك في رحلة رومانسية مع بحور العشق والغرام، وآهات الملذات!

أخــذ الــريح المتوسطي الخافت المنبعث من نافذة الكابينة يداعب رقــبة دانيال، وهي مستلقية على الفراش، وقد تقلبت نحو عشيقها، لكي تباغته بقبلة.

– "جــاك.. أين ذهبت؟" سألت بصوت خافت، وهي تنظر إلى مكانه الخاوي على الفراش..." يا لك من شقي." قالت مبتسمة، بعدما شــعرت بــيده الــناعمة تلتف حول رقبتها من الجهة الأخرى. لكن سرعان ما بدأت تتحوّل تلك الابتسامة إلى صرخة فزع، شاعرة بكفي جاك وهما يطبقان على عنقها، لتعصر منها الحياة!

- "جـــاك... مـــاذا تفعـــل؟!" حاولـــت الصراخ، ولكن كل ما استطاعت أن تخرجه كان صوتا متحشرجا لا يكاد يُسمَع...

لم تنتظر دانيال الإجابة، وقد تحولت مشاعرها في تلك اللحظة مـــن العـــشق والهـــيام إلى الرغبة الملحة في البقاء على قيد الحياة، فأخـــذت تحـــاول بكل ما كانت تمتلكه من قوة أن تخلص نفسها من قبـــضته القـــوية، ولكـــن دون جـــدوى؛ فيداه اللتان كانتا في يوم ما تـــشعرانها بـــرجفة النشوة، كلما لامستا جسدها النحيل، ها هما ذان تحاولا إزهاق روح ذات الجسد...

كـــادت دانـــيال أن تستسلم لقدرها المحتوم، لولا أنها لمحت شيئا على الأرض بالقرب من يدها اليمنى، فأمسكته، وبكل ما تبقى لهـــا من قوة قذفت به نحو جاك. فجأة شعرت دانيال بتدفق الهواء إلـــى رئتـــيها، بعـــد أن خفت القبضة التي كادت أن تنهي حياتها، وتمكـــنت في تلك اللحظة أن تفلت من يدي الرجل الذي تركت كل شـــيء من أجله، والذي كانت تظن أنه سيهبها حياة جديدة، مليئة بالإثارة والمتعة، الحياة التي كانت تفتقدها مع زوجها، والتي ظلت تحلم بها!

انطلقـــت دانيال نحو باب الكبينة، ولكن سرعان ما تسمرت في مكانها، عندما اختلست نظرة أخيرة نحو العشيق القاتل...

قـــام جاك من فوق السرير، وقد شعر بوخزة في عنقه ضايقته، وكحـــال الإنسان عندما يشعر بضيق، أو ألم، أخذ يمد يده لكي يزيل مـــصدر الألم، حتى ولو كان هو ما يبقيه على قيد الحياة! أزال جاك الشيء الذي قذفت به دانيال نحوه، الذي استقر في الجانب الأيسر من عـــنقه، ونظر إليه فإذا هو حذاء نسائي ذو كعب حاد، فلم يتمالك في تلـــك اللحظة سوى أن يبتسم باستهزاء من ذلك السلاح النسائي الذي عطلـــه عـــن المهمـــة التي كان يجب أن ينهيها الليلة قبل أن ترسو السفينة في ميناء الإسكندرية...

"غريب أمر تلك المرأة، لماذا لم تفتح باب الكبينة وتنفذ بجلدها؟" أخذ يفكر، وهو يستعد للإنقضاء مرة أخيرة على دانيال، ولكن ما كاد يتحـــرك، حتى شعر بسائل دافئ لزج يغمر ذراعه الأيسر؛ في ذات الـــوقت نظـــر إلى الأرض نحو قدميه، وإذا بقطرات من الدم تنهمر فوق حذائه. في تلك اللحظة أدرك جاك الجواب على سؤاله، ثم سقط على الأرض...

لـــوهلة ظـــنت دانيال أنها تعيش في كابوس ستفيق منه في أية لحظة، فالذي كان يحدث لا يمكن أن يكون له أي تفسير آخر! ولكن لـــسبب مـــا، كـــان لا يريد هذا الكابوس أن ينتهي..." ما هذا الذي حـــدث؟! ولمـــاذا أراد جـــاك قتلي؟!" تساءلت، وهي تنظر إلى جسد عشيقها المرمي على الأرض، المحاط ببحيرة من الدماء. فجأة، وكما لـــو أنها قد استوعبت للتو ما قد حدث، فتحت الباب، وأخذت تجري، وهي تصرخ في الأسياب متجهة نحو ظهر السفينة!

– "سيدتي... سيدتي... أرجوك اهدئي!... أخبريني ما المشكلة؟" أخـــذ المـــلاح الشاب الذي كان متواجدا على ظهر السفينة يهدئ من روع المرأة التي كانت تجري أمامه بقميص النوم، وقد انتابتها موجة من البكاء الهستيري.

– "حاول... حاول قت... قتلي... فقتلته" أخذت تصرخ دانيال، وهي تتذكر الأحداث التي جرت لها منذ قليل.

–"سيدتي عمّ تتحدثين؟... اهدئي وأخبريني ما الذي حدث." قال المـــلاح الـــشاب، وهو يحاول تهدئة دانيال التي مازالت تبكي بشكل جنونـــي..." لا تخافي لن يؤذيك أحد. أنت في مأمن الآن. حاولي أن تهدئي."

–"جاك... جاك... حاول قتلي... لا أدري... لماذا جاك؟"

ظـــن الملاح الشاب أن المسألة قد تكون مجرد خلاف نشأ بين المـــرأة وبعلهـــا، فمع السهر وكثرة الكحول قد تنشب الخلافات بين

الزوجين؛ فهذه ليست أول مرة يشهد فيها مثل هذه الخلافات، وبالطبع لن تكون آخر مرة.

-"من هو جاك الذي تتحدثين عنه؟ زوجك؟ هل تشاجرتم؟"

هزت دانيال رأسها بالنفي، إجابة على سؤال الملاح.

-"أخبريني إذاً ماهو اسمك، وفي أية كابينة أنت نزيلة."

بعـــد لحظات قليلة بدأت دانيال تتماسك بعض الشيء، وأخذت تـــستوعب، أكثر، هول الأحداث التي مرت بها قبل أن تلتقي بالملاح الشاب الذي بدأت تشعر بشيء من الاطمئنان معه.

- "اسمي دانيال جولد؛ كابينة رقم ثلاثة وثلاثين."

طلـــب الملاح من قائد الأمن بالسفينة عبر جهازه اللاسلكي أن يتفقد الكابينة. بعدها بدأت دانيال تقص له ما قد حدث، ثم أخذت تبكي مرة أخرى فورما انتهت.

- "لم أقصد قتله... ولكنه حاول خنقي، لا أدري لماذا."

- "إهدئي سيدتي. أنت متوترة؛ فلربما كان هذا مجرد كابوس، فما الذي يجعل رفيقك يحاول قتلك؟"

- "أقـــول لـــك لم أكن أحلم، لقد حاول جاك قتلي، أتفهم؟! لقد وضـــع كفيه حول عنقي، وكدت أموت، لولا أني طعنته في رقبته!" أخـــذت دانـــيال ترتجف مرة أخرى، وهي تتذكر منظر جثة عشيقها على الأرض، والدماء تسيل منه، ملطخة الأرضية الرخام.

-"على العموم قائد أمن السفينة في طريقه الآن إلى الكابينة لكي يتفقدها."

مرت لحظات، ثم جاء صوت قائد الأمن عبر جهاز اللاسلكي، طالـــبا مـــن الملاح أن يحضر إلى الكابينة، ومعه دانيال. لم يشأ أن يعطي أية تفاصيل، فقط طلب منهما الحضور، فظنت حينئذ دانيال أنه وجـــد القتـــيل، كما وصفت، وأنه أرادها أن تأتي، لكي تتعرف على الجثة، كما كانت تشاهد في الأفلام...

الأفـــلام... أخذت تفكر، فهاهي حياتها تتحول إلى فيلم عبثي لا تفهمه، فهل يعقل أن يتحول الرجل الرقيق الذي تركت كل شيء من أجلـــه إلـــى وحش كاسر؟ أين ذهب العشق والهيام الذي وجدت قلبه مليئا بهما؟ من أين جاء ذلك الشر الذي رأته في نظرات عينيه أثناء مـــا كـــان يحاول كتم أنفاسها دون أدنى تردد؟ لا يمكن أن يكون هو ذاتـــه الرجل الذي شاركته الفراش في الأشهر الأخيرة، والذي تركت زوجها من أجله!

اقتـــربت دانـــيال مـــن كابينتها رقم 33، وأخذت تهيء نفسها لمشاهدة جثة جاك الملقاة على الأرض. فجأة بدأت تفكر في الفضيحة المدويـــة التي ستمتلئ بها صفحات الجرائد: **زوجة الصحفي الشهير تقـــتل عـــشيقها في رحلة بحرية**. كيف سيكون وقع هذا الخبر على أهلهـــا، وأصـــدقائها؟ ثم بدأت تفكر في مستقبلها... هل ستسجن؟ قد تـــتهم بأنهـــا دبرت لقتله!..." لا بد وأنه قد سئم من إمرأة متزوجة، تكبـــره ســـنا، فـــأراد تركها من أجل فتاة أصغر كما فعلت هي مع زوجها، فلم تستطع التحمل فقتلته"..." يا لها من امرأة خبيثة حطمت قلب زوجها، ثم قضت على حياة شاب وسيم في مقتبل العمر"..." لا بـــد وأن تعاقـــب!"..." السجن!"..." لا، بل الإعدام!"... أخذت الهـــواجس تـــزداد في رأس دانيال مع كل خطوة كانت تقربها من باب الكبينة رقم 33!

25...27... 31...33!

مـــا أن وصـــلت، حتى وجدت قائد الأمن في منتصف الكابينة ينظر إليها، مبتسما:

-"هذه هي كابينتك، أليس كذلك؟"

- "نعـــم هي، ولكن... ولكن أين جثة جاك؟!... الأرض كانت ملطخـــة بالدماء!" صرخت دانيال وهي تنظر حولها في المكان نفسه الذي تركته منذ دقائق على حال غير الذي تراه أمامها الآن!

– "سـيدة دانيال... الكابينة، كما ترين لا يوجد فيها قتيل، ولا يوجد فيها دماء، فربما تكونين قد أكثرت في الشراب، فهُيئ لك..." لم يكمل الملاح جملته، حتى قاطعته دانيال.

– "ألـم تفهم ما قلته لك؟! لم أكن أتخيل ما حدث، ولم أكثر في الشراب!... لقد حاول جاك قتلي، فطعنته في عنقه!"

– "وبماذا طعنتيه؟ هل كنت تحملين معك سكينا؟" سأل قائد الأمن.

– "لا... بل طعنته ب... بكعب حذاء السهرة."

لـم يـتمالكا الملاح، وقائد الأمن نفسهما، فخرجت منهما قهقهة، سـرعان مـا حاولا مداراتها؛ تحرك بعدها قائد الأمن قليلا إلى طرف الكابينة، فأمال ظهره، ممسكا بفردتي حذاء نسائي ملقتين على الأرض.

– "هل هذا هو الحذاء؟"

نظـرت دانـيال إلى فردتي الحذاء الذي استخدمت إحداهما في طعن جاك، وأمسكت بهما، وأخذت تتفحصهما جيدا، فلم تجد على أي منهما قطرة دم!

– "نعـم هـو الحذاء، ولكن..." لم تدرك ماذا تقول، ولكن فجأة خطـر علـى بالهـا أمـر... "أين جاك؟ إذا كان ما قد جرى مجرد تهيؤات، فإذاً أين جاك؟"

– "سـيدة دانيال، لا بد وأنه في البار، أو في الكازينو، فالسفينة كما تعلمين كبيرة، وقد يكون في أي مكان."

انتهى الحوار على هذا الحد، وانصرف الرجلان تاركين دانيال مـع ذهولها..."هل يعقل أن كل ما قد جرى كان مجرد تهيؤات؟!" لم تقتنع هي بهذا التفسير، فما جرى كان واقعا عاشته بكل تفاصيله، ولم يكن من نسج الخيال...

بـدأت تشعر دانيال في تلك اللحظة بالرعب مجددا، وقد خطر أمر جديد على بالها... ماذا لو أن جاك لم يمت؟! فهل من الممكن أن يكون قد قام، وبسرعة فائقة أزال كل آثار العدوان؟!

لـــم تـــرغب دانـــيال في البقاء بمفردها حتى الصباح، فقررت الـــذهاب إلـــى الـــبار- الذي لم يكن ممتلئا في ذلك الوقت من الليل. نظـــرت حـــولها جيدا لكي تطمئن نفسها بأن جاك ليس موجودا في المكـــان، ثم ذهبت إلى أريكة خالية، في إحدى زوايا البار، فاستلقت علـــيها... نظـــرت إلـــى التلفاز، وعلى الفور أطلقت صرخة أفاقت الـــسكارى؛ فقد كانت صورة زوجها تملأ الشاشة، ومن تحتها الخبر العاجل:

العثور على الصحفي الشهير موشي جولد في منزله مشنوقا!

عام 2009

1

عيد بأيـــة حـــال عدت يـــا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد

ثلاثة أعياد قد مضت، ومع مرور كل عيد كان يتلاشى الأمل فـــي العثور على دلال، أو ما تبقى منها، وتزداد رغبة جمال في الابتعاد، فجدة أصبحت بشواطئها، وشوارعها، وأسواقها تشكل له مـــصدر ذكريات، وبالرغم من كون هذه الذكريات جميلة، إلا أنها كانـــت دائمـــا تقوده إلى لحظة خطف دلال في لندن، وما تلاه من شـــعور مرير بالإخفاق، وعدم قدرته على حماية عروسه، والوفاء بالوعد الذي قطعه قبل خطفها بلحظات بأن تكون كل أيامها المقبلة ذكريات جميلة. لقد أخفق، بل أسوأ... لقد فشل فشلا ذريعا، وكان ذلك الشعور يعصر أحشاءه، ويمتص من روحه الحياة، لدرجة لم يعد يستطيع أن يتحمل العيش في بلد، كلما سار في طرقاته يشعر، وكأنمـــا المـــارون ينظرون إليه بعين الاحتقار، غامزين، لامزين؛ أولـــيس هو الرجل الذي فقد عروسه في شهر العسل، ولم يستطع فعل أي شيء!

كـــان لابـــد مـــن الرحيل، وقد جاءته الفرصة، عندما قُبِل في مستشفى بوسطن للتخصص في مجال الأشعة...

– "يـــا بخـــتك يا عم، حد طايل أمريكا، وبوسطن كمان!" تذكر جمال تعليق صديقه سعيد، عندما علم بالخبر.

– "نعم، أخيرا بدأت الحياة تبتسم لي من جديد."

كـــان جمال مشتاقا لصعود الطائرة التي ستقله إلى أمريكا، فكم كـــان إرتـــياحه عندما نادى الملاح جميع الركاب إلى الصعود... بدأ يـــشعر مـــع كل خطوة يخطوها نحو الطائرة أن حياة جديدة تنتظره هـــناك، على الجانب الغربي من المحيط الأطلسي. كانت هدية العيد بالنـــسبة لجمـــال هـــذا العـــام مخـــتلفة عن كل سابقيها في الأعوام الماضية... كانت هدية العيد هذا العام بالنسبة له، هي حياة جديدة في بلاد الأحلام!

2

فـــي ثالـــث أيـــام العيد، وأثناء قدوم بعض المعتمرين للمدينة المـــنورة بغـــرض الزيارة، كان يدور في إحدى بساتين قباء اجتماع طـــارئ لقادة العروة الوثقى، وعلى خلاف الاجتماعات السابقة، كان الجدال بين القادة هذه المرة على أشده!

– "الاســـتعانة بنعـــيم الوزان خطأ كبير؛ لا ينبغي لنا أن نكون على أي اتصال به. أقول لكم هذا الرجل لا يمكن السيطرة عليه، فهو لا يتـــبع الإرشادات ولا يحترم كبراءه. لقد قطعنا صلتنا به منذ عام، وينبغـــي لنا أن نُبقي الوضع كما هو." كان جاسم الفراج مصرا على رأيـــه، وهو يحاول إقناع عدد قليل من قادة الجماعة، الذين اقترحوا التعاون مع نعيم الوزان، بالعدول عن رأيهم.

– "جاســـم، لا أريد لخلافك القديم مع نعيم أن يكون هو مصدر هـــذا الـــرأي، وانظر إلى المسألة بموضوعية بحتة. لقد حاولنا على مـــدار ثلاثة أعوام فهم مضمون خطاب نجم الدين غول الذي أتانا به الدكـــتور عبد القادر بنوَزّاني– رحمة الله عليه– ولكن دون جدوى، وأعتقد أنه من الحكمة أن نستعين بمن قد يستطيع حل اللغز، وخاصة أنـــه ســـبق وقـــد كانت له تجربة ناجحة في حادث شبيه، منذ ثلاثة أعـــوام." قـــال أمين عام قادة الجماعة، الذي فاجأ جاسم بقبوله مبدأ التعاون مع نعيم.

– "دكتور إسماعيل... ما حدث مع نعيم على أثر وفاة الدكتور عـــبد القـــادر، منذ ثلاثة أعوام لا علاقة له ألبتة مع ما تقترحه أنت اليوم، فلماذا نكشف عن أوراقنا الخاصة لرجل لم يعد منا؟... ثم إنك رأيـــت بنفسك كيف كان على تصادم مستمر معنا، منذ انضمامه إلى

الجماعـــة، ممـــا اضطرنا لفصله، والآن تريدنا أن نذهب لكي نطلب المعـــونة من شخص لم يكن كفئا للاستمرار في العروة الوثقى؟!" ما إن فرغ جاسم حتى، بدأت تعلو أصوات أغلب الحضور، مؤيدة ما قد قيل على عكس الدكتور إسماعيل الذي ظل صامتا يفكر قليلا، ثم أدار وجهه نحو الرجل الوحيد الذي كان يكبره سنا في القاعة.

– "وأنت يا شيخ عمر، ما رأيك فيما قاله جاسم؟"

ســـاد الـــصمت المكان على إثر توجيه الحديث إلى الشيخ عمر الحـــسيني والـــذي ظل صامتا لبضع ثوان، بعد توجيه سؤال إليه من قـــبل أمـــين عـــام قادة العروة الوثقى، وكأنه يفكر فيما يقول قبل أن يتحدث.

– "مـــند ألاف السنين، سُئل موسى– عليه السلام– عمن يكون أكثـــر الناس علما، فأجاب بأنه هو أكثر الناس علما؛ وكيف لا يكون كـــذلك، وهو نبي الله، ومن أولي العزم من الرسل، وقد حدثه الله في طـــور ســـينين؟ وهو الذي أنزل عليه التوراة. من هنا ظن موسى – علـــيه السلام– أنه لا يمكن أن يكون على هذه الأرض من يبلغ علمه أو حتى يقترب، فأمره الله أن يذهب لكي يقابل رجلا لم يسمع به من قبل أحد، فذهب عليه السلام وألتقى بعبد فقير من عباد الله الصالحين، وقد أوتي من العلم ما لم يدركه موسى –عليه السلام– النبي المرسل! حـــاول موســـى –عليه السلام– أن يتعلم من العبد الصالح، ولكنه لم يستطع عليه صبرا، فأدرك أنه مهما بلغ شأن إنسان، فهو يبقى بشرا لا يـــستطيع أن يحيط بكل علم الله، وقد يعطي الله من العلم لعبد من عباده، ما ليس عند من هو أعلى منه شأنا."

صمت الجميع، وهم يتأملون ما قاله الشيخ عمر الحسيني ما عدا جاسم الفراج الذي لم يعجبه ما سمع، فقال بنبرة تهكم:

– "أنـــا لا أفهـــم ما علاقة قصة سيدنا موسى بالخضر عليهما السلام، بما نحن نتحدث عنه الآن!"

– "يبدو أن الشيخ عمر يريد تشبيه نعيم الوزان بسيدنا الخضر!" أضاف أحد القادة.

ضحك البعض وتمعضت وجوه البعض الآخر.

– "لا... نعـــيم ليس بالخضر كما أنّا لسنا بموسى عليه السلام. ولكني أخشى أن نكون قد أفتُتِنا بما وصلنا إليه من مكانة، وحسبنا أننا نمتلك مفاتيح كل شيء." صمت الشيخ عمر قليلا ثم نظر إلى جاسم، موجها إليه الحديث..." عندما أسس الشيخ جمال الدين الأفغاني حركة العـــروة الوثقى لم تكن مقصورة على أناس دون أناس أو طائفة دون الأخـــرى. كان الهدف هو خدمة الأمة الإسلامية من أجل الرقي بها، وإفاقتها من سباتها العميق، ولكن يبدو أننا اليوم قد نسينا هذا الأمر... أخي جاسم، نعيم الوزان لديه ملكة لم أشاهدها في أي رجل آخر غير الدكـــتور عبد القادر بنوّزاني –رحمة الله عليه– وأعتقد أن الأحداث التـــي جرت له منذ ثلاثة أعوام، وطريقة توصله لنا، ولصراعنا مع حكـــومة الظل لهو أكبر دليل على ذلك، فأنا على يقين بأن نعيم هو الأقدر على التوصل إلى فهم مضمون خطاب نجم الدين غول."

مـــا إن انتهى الشيخ عمر من كلامه، حتى علت الأصوات في الخـــيمة وقد أصبحت أغلبها مؤيدة لرأيه، مما جعل الدكتور إسماعيل يبادر بالقول:

–"حـــسنا، بعـــد إذن القادة سوف أبدأ بترتيب الإتصال مع نعيم الـــوزان. هـــو كمـــا تعلمـــون لا يزال يسكن في العاصمة الماليزية كوالالمـــبور، حيث يترأس شركة الباحث للاستثمار... أما الموضوع الثاني في أجندة العمل، فهو..."

اســـتمر الإجـــتماع نحو ساعة أخرى، ثم بعد الانتهاء أخذ الجميع بمغـــادرة القاعة إلا الدكتور إسماعيل، وجاسم الذي ظل في مكانه، حتى اطمـــأن إلى خلو المكان، ثم نظر إلى صديقه نظرة ثاقبة جعلت الدكتور إسماعيل يشعر على الفور بأن مسألة نعيم لم تحسم لدى جاسم بعد.

– "إســماعيل، نحن أصدقاء منذ عقود من الزمان، بل أستطيع القول بأني أفهمك أكثر مما تفهم نفسك أنت؛ أخبرني بصدق ما الذي تخفيه؟"

كــان السؤال مباشرا وجاء بشكل لم يتوقعه الدكتور إسماعيل، مما تسبب في إرباكه بعض الشيء.

– "عفوا!... ماذا تقصد؟... فأنا لا أخبئ أي شيء."

– "بــل تخبئ! ويبدو أن هذا الأمر الذي تخبئه شديد الخطورة، مما جعلك توافق على الإستعانة بنعيم الوزان، بالرغم من كونك أنت السبب الرئيس في إخراجه من العروة الوثقى منذ عام!"

– "عــمّ تــتحدث؟ هــل نــسيت أنك أنت الذي..." بدأ الدكتور إسماعيل بالرد، ولكن سرعان ما قوطع من قبل جاسم:

– "لا تحــسبن أنــي لم أكن على دراية بمحادثاتك السرية التي أجــريتها، من وراء ظهر الشيخ عمر، مع باقي القادة. لقد كنت أنت المحــرك الأساسي في طرد نعيم، ولو أني كنت أنا الشخص الظاهر في المسألة، بحكم أنه كان يتبع لإشرافي المباشر؛ ومع ذلك لم أمانع مــا فعلته، لأنني مثلك كنت ضد تواجد شخص لم ينشأ نشأة الجماعة فــي وسطنا، مهما كانت مكانة جده ومهما كان نبوغه، فالخطر الذي كــان سيأتينا من عدم انصياعه للأوامر، وتمرده الدائم على المألوف فــي طــريقة عملــنا، كان أكبر من أي فائدة يمكن أن تجنى منه... إسماعيل، هناك أمر ما هو الذي جعلك تتغير مائة وثمانين درجة نحو نعيم! أريد أن أعرف ما هو؟!"

بــدأت معالم قلق تظهر على وجه الدكتور إسماعيل الذي لم يــستطع النظــر إلى صديقه، دون أن تفضح عيناه ما كان يخبئه، ونجــح فــي إخفائه عن باقي قادة جماعة العروة الوثقى. لم يكن أمامــه في تلك اللحظة سوى البوح لجاسم بالحقيقة، أو على الأقل بجزء منها.

– "أريـــدك أن تقـــسم لي بأنك لن تبوح لأحد بما ستسمعه مني الآن."

– "إســـماعيل أنـــا أعز أصدقائك، أنت تعرفني جيدا، ومع ذلك أقسم لك بأن يظل ما ستقوله لي سرا بيننا."

– "منذ ثلاث سنوات اتصل بي الدكتور عبد القادر، قبيل وفاته بأسابيع قليلة، لكي يطلب مني أن أضيف إلى جدول أعمال الإجتماع السنوي للقادة أمرا ظن أنه في غاية الخطورة ولا يتحمل أي تأجيل. كـــان قد عاد لتوه من تركيا وقد حصل على نص خطاب قديم كتب منذ قرن ظن أنه يحتوي على أمر مريب قد يخص حكومة الظل. لقد أطلعنـــي في حينها على نص الخطاب؛ أصدقك القول بأني في ذلك الوقت لم أفهم القصد مما جاء في الخطاب، وبالتالي لم أعره إهتماما كبيـــرا وحسبت أن ما قاله الدكتور عبد القادر هو مجرد فرضية من فرضـــياته الغريبة... ولكن بعد ذلك بأسابيع تبين لي أنني قد أخطأت التقدير!"

– "تقصد بعد حادثة وفاة الدكتور عبد القادر."

– "نعم، صحيح." قال الدكتور إسماعيل، ثم أضاف بشيء من التـــردد..." الرســـالة الإلكترونية التي أرسلها لنعيم قبيل وفاته لم تكـــن هـــي الوحـــيدة؛ أو بمعنى أصح، لقد أرسل أكثر من رسالة واحدة."

– "إسماعيل ماذا تقصد؟! هل أرسل الدكتور عبد القادر رسالة أخرى لم يخبرنا بها نعيم؟!"

– "الرسالة الأخرى لم تكن لنعيم، بل كانت لي."

– "ماذا؟!"

– "نعم، هذا ما أخفيته طوال السنوات الثلاث." صمت الدكتور إســـماعيل قلـــيلا، ثم إستطرد.."مازلت أذكر نص الرسالة إلى الآن: أبناء حَدَاد هم حكومة الظل."

– "أبناء حَدَاد!... إذاً أنت تتحدث عن خطاب نجم الدين غول؛ هل تقصد القول بأن الدكتور عبد القادر استطاع التوصل إلى شيء؟ إستطاع فك طلاسم رسالة نجم الدين غول، وأنه قتل بسبب ما توصل إليه؟!"

أنهى جاسم تساؤلاته دون انتظار إجابة، ثم قام فجأة من موضعه وأخذ يدور حول القاعة في عاصفة من التفكير، محاولا أن يستوعب الأمر برمته.

– "جاسم، يجب أن تعلم..."

– "لِمَ لَم تخبرنا هذا من قبل؟" سأل جاسم قاطعا حديث الدكتور إسماعيل.

– "أخبركم ماذا؟ بأنني لم أستجب لطلب أحد كبار القادة ولم أدرج في جدول الأعمال أمرا ظن أنه يستحق البحث والنقاش، مما اضطره لبحث أمر الخطاب مع فرقته من دون الاستعانة بموارد العروة الوثقى؛ بأنني لم أوفر له الدعم الكافي! بأنني السبب في افتضاح أمره! جاسم هل فهمت ما قلته لك... خطاب نجم الدين غول هو مفتاح كل شيء. ومايوجد فيه هو ما أدى إلى مقتل الدكتور عبد القادر، وباقي فرقته!"

– "يا إلهي!... إذاً استطاع الدكتور عبد القادر التوصل إلى ما كانت تسعى إليه العروة الوثقى منذ نشأتها: معرفة حقيقة حكومة الظل؛ ولكنه مات قبل أن يوصل إلينا التفاصيل!... إسماعيل أنت تعديت على قاعدة من أهم قواعد الجماعة."

– "نعم أدرك ذلك؛ كان لا يجب على أن أتجاهل أي خبر يأتي به أحد قادة العروة الوثقى، ولكن هذا ما حدث؛ لقد اجتهدت وأخطأت، ولم أستطع مواجهتكم بخطئي الفادح، لكني حاولت تعويض هذا الخطأ بعد ذلك بتكْريس جزء كبير من إمكانيات الجماعة في فهم نص خطاب نجم الدين غول."

– "لكـــن دون جدوى! ولذلك بعد ثلاثة أعوام من المحاولة أنت الآن الذي توافق على الاستعانة بأحد أنبغ تلاميذ الدكتور عبد القادر، فلعله يستطيع التوصل إلى ما قد سبق، وتوصل إليه أستاذه من قبل."

– "تأكـــد بأنه لولا أني استنفذت جميع الطرق الأخرى لما كنت وافقت على الاستعانة بشخص مثل نعيم الوزان! لكنك شاهدت بنفسك مـــا دار في الاجتماع، وما قاله الشيخ عمر الحسيني... فأغلب القادة وافقوه على رأيه."

– "ولكنك نسيت أمرا... نعيم قد أصبح معروفا لدى حكومة الظل منذ أحداث مقتل الدكتور عبد القادر. إذا علموا بأنه قد عاد إلى المنطقة، فأغلب الظن أنهم سوف يراقبونه." قال جاسم منبها الدكتور إسماعيل.

– "لا، لـــم أنـــس... دعهم يراقبونه، فلن نعطيه نص الخطاب بأكملـــه، فقط بعض الأجزاء. إن إستطاع التوصل إلى شيء دون أن يقـــتل في الأثناء، فخير وبركة؛ سنأخذ منه ما توصل إليه ثم سنكلفه بمهمة أخرى غير هامة، فنلهي حكومة الظل به، أثناء ما نبحث نحن فـــي باقي نص الخطاب؛ كل ما نريده من نعيم الوزان هو أن يضعنا علـــى أول الطـــريق. صدقني يا صديقي، أنا مثلك لا أطيق الرجل، وآخـــر ما أتمناه هو أن يصبح ذلك الأرعن بطلا مرة أخرى، مما قد يدفع ببعض أنصاره إلى المطالبة بعودته كعضو فاعل في الجماعة."

– "أعوذ بالله، نحن ما صدقنا أننا تخلصنا منه... ولكن بقي أمر بسيط."

– "وما هو؟"

– "ماذا لو صَفّته، حكومة الظل كما صفّت عبد القادر والباقين؟ فالرجل مهما كان هو حفيد خليل الوزان."

– "يبقـــى هـــذا احـــتمال قائم، ولكن تذكر أخي جاسم، بأنه في بعض الأحيان قد نضحي بالفرد من أجل الجماعة!"

3

جلس رجب غول أمام الرجل الذي غير مجرى حياته إلى الأبد، والـــذي كان في تلك اللحظة يتناول وجبة العشاء كما هي عادته في ذلـــك الـــوقت من العام في ذلك الفندق الفاخر نفسه بمنطقة باركلين اللندنـــية. كل شيء كان قابلا للتغيير إلا تلك العادة السنوية في شتاء مديـــنة الضباب. ثلاثة أعوام من المتابعة الدقيقة، حتى أصبح رجب كظـــل الرجل، يتتبعه خطوة بخطوة عبر أقطار العالم مهما، كلفه الأمر من مشقة وعناء إلى أن صار يحفظ تفاصيل حياته عن ظهر قلـــب. كل ذلك دون أن يشعر الرجل بخطوات النمر الجريح الذي ظـــل يتتبعه طيلة هذه الأعوام. فهاهو ذا رجب يجلس أمامه على الطاولـــة المقابلـــة، دون أن يتنبه له؛ فرجب غول هو إسم قد مر علـــيه منذ ثلاث سنوات، حمل معه في حينها خطرا كبيرا، وقد تم القضاء عليه أو هكذا حسب؛ ومثل هؤلاء الرجال لا يلتفتون كثيرا إلى الوراء، فيكفيهم تحديات الحاضر والمستقبل المليئة بالمخاطر؛ ولكـــن هذا التحدي القديم الجديد، المتمثل في رجب غول، لم يكن في الحسبان!

ابتـــسم رجـــب، وهو ينظر إلى الملياردير الشهير المنهمك في طعامه، والذي لم يتعرف عليه، وهو الذي قد تسبب في القضاء على كل معنى جميل في حياته منذ ثلاثة أعوام، وجعله يتحول من صحفي واعد، وزوج سعيد، وأب لطفل جميل، إلى نمر جريح يلعق جراحه، ولا يبتغي شيئا في الحياة سوى الإنتقام! إبتسم رجب غول وقد أدرك أن مشواره الذي امتد عبر ثلاث سنوات قد أشرف على الانتهاء، وأن الضباب الذي ملأ حياته قد آن له أن ينقشع!...

أخــذت الابتــسامة، المرسومة على وجه رجب، تختفي، وهو يتذكــر تلك المكالمة التي تلقاها منذ أكثر من ثلاثة أعوام بمنزله في إســتانبول، والتي كانت بداية ما جرى له من أحداث غيرت مجرى حياته، وحياة أسرته الصغيرة...

– "سيد رجب غول؟"

– "نعم، من معي؟"

– "اســمي جورج حبيقا أخاطبك من بيروت بخصوص مزرعة جدك نجم الدين غول."

– "مزرعة جدي؟!"

لــم يكن يعلم رجب حتى تلك اللحظة أن جده نجم الدين غول كانــت لديــه مــزرعة بلبــنان؛ كما أنه إستغرب سقوط خبر هذه المــزرعة من تاريخ الأسرة. كان إتصال ذلك الرجل الغريب به، وطلــبه شــراء مزرعة اكتشف أنه قد ورثها دون أن يعلم، أمرا غريبا ومدهشا!

أدرك رجب أنه بصفته الوريث الوحيد كان يجب عليه الذهاب إلى بيروت من أجل إنهاء المسائل القانونية المتعلقة بالمزرعة؛ فعزم أمره، وحزم حقيبته، وسافر إلى لبنان...

– "هــذه المزرعة تحمل لي الكثير من الذكريات الجميلة." قال جــورج، وهــو يقــود سيارته داخل المزرعة، في إحدى ضواحي بيــروت، وبجــواره رجــب غول... "لقد ولدت وعشت فيها إلى أن هاجرت إلى كندا."

– "أستاذ جورج، أنا لا أدري كيف أشكرك على أمانتك، وعلى أمانــة أسرتك المنقطعة النظير. شخص آخر لكان قد وضع يده على المزرعة، وخاصة أنه لم يظهر لها صاحب منذ قرابة القرن، أنا في حياتــي لم أر مثل هذه الأمانة، ولم أسمع بها إلى في نوادر التاريخ وقصصه!"

-"عفــوا، هذا فقط من لطفك... أنت لا تعرف مكانة جدك نجم الــدين عند والدي رحمة الله عليه؛ أذكر عندما كنت صغيرا كان أبي دائمــا مــا يحدثنـــي عن كرم وطيبة السيد نجم الدين غول صاحب المــزرعة. لذلك ظل الوالد طوال حياته رافضا العيش في أي مكان آخر غير مزرعة جدك التي ولد وعمل فيها، منتظرا حتى وفاته، قبل عــدة أعــوام، أن يظهــر وريث للسيد نجم الدين، فيسلمه المزرعة. لطالمــا رجــوته أن يأتي للعيش معي في كندا، خاصة بعد وفاة أمي وتزويجه لجميع أخوتي، ولكن دون جدوى."

- "رحمــة الله علــيه... عفوا على السؤال، ولكن هل أفهم من كلامك أنك تعيش في كندا؟"

- "نعــم مــنذ أربعــين عاما، عندما ذهبت إلى هناك من أجل الدراسة. ولكني الآن أصفي ما تبقى لي من أعمال هناك، وقد عزمت على أن أقضي مدة التقاعد هنا في لبنان أنا وزوجتي، فلن أجد أجمل مــن هذا المكان الذي يحمل لي الكثير من الذكريات. هيه... عندما تصل إلي سني ستدرك أن من أهم ما يحمله الإنسان معه عبر الحياة هــو الذكــريات بحلــوها ومرها." أنهى جورج الجملة وهو يصف سيارته أمام منزل قديم في وسط المزرعة.

- "هذا هو المنزل الرئيس للمزرعة حيث، كان جدك يقيم، كلما جــاء إلى لبنان، وهو نفسه المكان الذي وجد فيه مقتولا." قال جورج جملــته التي كان وقعها كالصاعقة على رجب غول، وهو ينزل من السيارة متجها نحو المنزل.

- "عفوا ماذا قلت؟! من الذي وجد مقتولا؟!"

- "المعــذرة!... نسيت أن الرواية الرسمية لما حدث لجدك هي أنه قد مات في حادث صيد... عيار ناري أصابه بالخطأ."

- "نعــم هــذا مــا قيل لجدتي من قبل السلطات التركية في حيــنها؛ فما معنى قولك بأنه وجد مقتولا؟" تساءل رجب، والدهشة كانت تملؤه مما سمعه في التو.

– "عـندما كنت صغيرا، كنت دائما أسمع أبي قبل نومه يدعو الرب، وكان من ضمن دعائه، الذي لم يسقطه ولو ليوم واحد، هو أن يحميه وأسرته من شياطين الإنس الذين قتلوا سيده. عندما سألته مرة عمّن يقصد، أخبرني بما رأى في ذلك اليوم الذي عثر فيه على جدك علـى سريره في بركة من الدماء. كان منظرا مفزعا ما رآه والدي؛ ظل طوال حياته يتذكره بتفاصيله... أنا أسف، فما كان لينبغي لي أن أفتح هذه السيرة الأليمة."

– "لا.. لا.. أرجـوك أكمـل، أريـد أن أعرف ما الذي حدث لجدي، ومن هم شياطين الإنس هؤلاء الذين تتحدث عنهم؟"

صـمت جـورج قليلا معطيا الفرصة لرجب لكي يتراجع عن طلـبه، ولكنه عندما تلمس الإصرار على معرفة ما حدث في عيني رفيقه، أخذ يقول بشيء من التردد:

– "حـسنا... كان أبي في العاشرة من عمره ويحب اللعب عند تلك الشجرة." قال مشيرا إلى شجرة ليمون على بعد خمسين مترا من المنـزل..." فـي ذلك اليوم المشؤوم، رأى ثلاثة رجال أغراب، لم يصادفهم من قبل، يخرجون من منزل جدك. كان أبي دائما ما يقول لنا أنه لو كان بإمكان الشياطين أن يتجسدوا في صورة البشر، لكانوا هـؤلاء الرجال الثلاثة. كانت أعينهم مليئة بالقسوة وملامح وجوههم جامـدة، وكأنمـا الروح قد نزعت من جسد كل منهم. لقد شعر أبي بالـرعب من منظرهم، فتخبأ وراء تلك الشجرة، حتى أنصرفوا، ثم دخل المنزل ليتفقده، فوجد جدك مقتولا على سريره."

– "ولكـن إن كانـت المـسألة هكذا، فلماذا لم يتم القبض على هؤلاء الرجال، ولماذا قيل لجدتي بأن جدي قد مات في حادث صيد؟"

– "لأن أحـدا لم يصدق أبي... ربما لحداثة سنه... وربما لأن أحـدا لـم ير هؤلاء الرجال الثلاثة في أي من القرى المجاورة، ولم يسمع أحد بوجود رجال أغراب يرتدون ملابس سوداء غريبة مطرزة

باللــون الأحمر والفضي، كما وصفها أبي؛ مع الأسف، على ما يبدو أن الــشرطة اعتقدت أن أبي توهم أنه رأى ما رأى، وبعد أيام قليلة من التحقيق قفلت القضية، وقيدت كحادث صيد."

– "ولكــن إن كان والدك صبيا في العاشرة من عمره في ذلك الــوقت، فلمَ لا يكون بالفعل قد توهم رؤية هؤلاء الرجال، خاصة أن أحدا غيره لم يشاهدهم؟"

– "في بادئ الأمر كنت أصدق قصة أبي، فقط لأنه ظل طوال حياته يصر عليها... ولكن..." صمت قليلا.

– "ولكن ماذا؟"

قاد جورج رجب إلى غرفة نوم في طرف المنزل، ثم أخذ يكمل حديثه:

– "مــنذ حوالي السنة، عندما عدت من كندا، وقد قررت شراء المزرعة، أتيت إلى هنا، وأخذت أفتش في المكان. قلت لنفسي لعلني أجــد مــا قــد يساعدني على العثور على كيفية الوصول إلى ورثة جدك... ولكني وجدت شيئا آخر هنا تحت السرير." قال جورج، وهو يسلم رجب صندوقا صغيرا كان يبدو عليه القدم، وفي داخله خطاب مكــتوب علــى ورقــة لا تقــل قدما، متآكلة الأطراف، يكاد الحبر المستخدم عليها أن يختفي."

– "ما هذا؟" تساءل رجب بدهشة.

– "وجدت هذا الصندوق، والخطاب الذي بداخله في مخبأ سري عثــرت عليه بالمصادفة تحت السرير، وأنا أفتش المكان، ففي بادئ الأمــر حــسبت أنهــا ربمــا تكون وصية جدك، ولكن عندما قرأت الخطــاب أدركــت أنــه أهــم من ذلك بكثير، فهو يؤكد رواية أبي، ويصف أمورا أخرى رآها جدك، ولكني لم أفهمها."

قــرأ رجب الخطاب الذي كتبه جده باللغة العربية، فأدرك على الفور ما كان يقصده جورج!...

كــم هــي غــريبة الحياة، فحادثة واحدة قد تغير مجرى أسرة بأكملها، بل قد تغير مجريات أمة كاملة! هذا ما أدركه رجب، ولكن بعد ذلك بعدة أسابيع!

تمــت عملية بيع المزرعة بعد أيام من إجراءات إثبات الملكية، مستخدما صكا قد عثر عليه جورج في أثناء تفتيشه للمنزل؛ ثم بعدها عــاد رجب غول إلى إستانبول ومعه خطاب جده الذي لم يستطع هو الآخــر فهمــه. كان في ذلك الوقت اثنان من معارفه في المدينة قد تــصادف وجودهما: الصحفي الكندي موشي جولد، وباحث التاريخ المغربي عبد القادر بنوَزّاني. دعاهما إلى منزله على العشاء، وحكى لهمــا مــا حــدث لــه في بيروت، ثم أعطى كلا منهما صورة من الخطاب؛ وكم كانت الدهشة التي بدت على كل من موشي والدكتور عبد القادر!

مضت الأيام، ورجب في انتظار سماع أي جديد من رفقائه قد يلقي الضوء على ما جاء في الخطاب الذي تركه جده، حتى ظن أنه ربمــا لن يسمع شيئا بهذا الخصوص لعدم أهميته لهما... ففي نهاية الأمــر، أخــذ يظــن، كــان هذا مجرد خطاب قديم تركه جده لأحد أصــدقائه منذ قرابة القرن من الزمان! فما هي أهميته الآن؟ وبسبب ظــنه هــذا، بــدأت تتراخــى المحاذير، فحدث صديقا له بأمر ذلك الخطاب. بعدها بيومين جاءه اتصال من الدكتور عبد القادر بنوّزاني.

– "رجب... اسمعني جيدا، لقد تباحثنا أنا وموشي أمر الخطاب الــذي تــركه جدك، وتوصلنا إلى أمور ربما يكون من الأفضل لك ولأســرتك ألاّ تقحــم نفسك فيها؛ ولكن ما هو أهم من ذلك، أريد أن اتأكد منك بأنك لم تخبر أي شخص آخر بما جاء في الخطاب."

– "في الحقيقة... أخبرت شخصا واحدا فقط..."

– "مــاذا! أخبــرت من، وماذا قلت له بالتحديد؟!" كان التوتر واضحا في نبرات صوت الدكتور عبد القادر.

– "أخبرت صديقا عزيزا أثق به، اسمه نجدت بماك وهو يعمل في مجموعة البليونير كمال أغلو؛ عندما لم أسمع منك أنت أو موشي، ظننت أن الأمر برمته غير مهم، فأخبرته عن كل ما حدث، ولكن لماذا هذا القلق؟ هل كان الأمر يدعو إلى الكتمان؟"

– "نعم... كان الأمر يستوجب الكتمان." رد الدكتور عبد القادر بصوت مرتبك.

– "أنا آسف! يبدو أنني قد أسأت التقدير... لا أدري ماذا أقول."

– "لا تقل شيئا، الخطأ خطئي... فكان يجب علي أن أدرك منذ قراءتي للخطاب في منزلك أنه يحتوي على ما يوجب الحذر، ولكن قدر الله وما شاء فعل... اسمعني جيدا، أريدك أن تخبر صديقك هذا أن ينسى كل ما سمعه منك، وألاّ يخبر به أحدا، وبالأخص كمال أغلو، أو أيا من معاونيه... بل أريدك أنت أيضا أن تنسى أمر الخطاب؛ لا أستطيع البوح لك الآن بأكثر من هذا."

ما إن أنهى الدكتور عبد القادر المكالمة، حتى أخذ رجب يحاول الاتصال بصديقه نجدت الذي لم يكن يرد على جواله أو على هاتف منزله. ظل يحاول يوما ويومين حتى مل، وقد بدأ ينتابه شعور بأنه ربما يكون الدكتور عبد القادر قد بالغ بعض الشيء بشأن أهمية ذلك الخطاب القديم، وما كان يحتويه من وصف لأحداث شاهدها وسمعها جده نجم الدين منذ قرابة القرن. أعاد قراءة الخطاب مرة ومرتين... كانت مجرد طلاسم لا علاقة لها بالواقع اليوم، أخذ يحدث نفسه، هكذا هو الدكتور عبد القادر مثله مثل موشي جولد الذي يؤمن بنظرية المؤامرة وراء كل حدث إلى درجة المبالغة؛ فالأمر لا علاقة له، لا من قريب، أو من بعيد بحكومة الظل...

مضت الأيام، واستمع رجب إلى نصيحة الدكتور عبد القادر؛ أخذ بالفعل ينسى أمر خطاب جده، وقد ساعدته المشاغل الأخرى للحياة على النسيان، لكن سرعان ما أدرك أن النسيان كان خيارا غير مطروح!

كان في طريقه إلى ديار بكر في جنوب شرق تركيا، مصطحبا معـــه فـــي السيارة زوجته، وابنه الرضيع، وفي ذلك الجو الربيعي المـــرح الـــذي طالما ميز تلك المنطقة من تركيا في ذلك الوقت من العـــام، أخذت الزوجة تقص على زوجها كيف كانت أول كلمة نطق بها طفلهما في صباح ذلك اليوم؛ كانت الفرحة تملؤها كما كانت تملأ الـــزوج السعيد بأسرته الصغيرة، وفي لحظة من لحظات الزمن التي تأتـــي بغتة من دون مقدمات، ومن دون أن يدرك الإنسان ما سوف يـــصيبه، كـــان الاصطدام الذي أدى بسيارة رجب إلى الإنقلاب عدة مرات، حتى أصبحت كقطعة من الصفيح المصهور.

أخـــذ رجـــب ينظر نحو زوجته، وهو يترنح من أثر الارتطام، وكـــان رأسه ينزف، وبصره يكاد يسعفه من أثر الدماء المنهمر الذي أخذ يحجب رؤيته.

– "ســـونيا!... سونيا!" كاد صوته ألاّ يخرج من حنجرته، وهو يـــنادي علـــى زوجته التي ظلت ساكنة. نظر إلى الخلف نحو ابنه، ولكن حاله لم يكن أفضل، فما كان أمامه سوى أن يخرج من السيارة؛ لكـــي يجلـــب لهما المساعدة؛ وبعد عدة محاولات تخللها الكثير من المعاناة، استطاع أن يخرج نفسه!

أخذ يسير في أحد الاتجاهات، فلعله يوقف سيارة مارة؛ ومع كل خطـــوة يخطوها كان ينظر نحو السيارة المقلوبة، حيث ترك زوجته وابـــنه الرضيع، وفي إحدى تلك الالتفاتات انتبه للشاحنة التي كانت تتراجع نحو سيارته. فجأة بدأ يتذكر اللحظة التي وقع فيها الارتطام، تلـــك اللحظـــة التـــي باغتته!... إنها نفس الشاحنة!... نعم هي التي ارتطمـــت بسيارته!... وهاهي الآن تتراجع مسرعة نحو ما تبقى من سيارته!... السرعة تزيد!... وفي لحظة...

– "لا!!!" صـــرخة أرادت أن تخـــرج بقوة من حنجرة أصابها الحـــادث فلـــم تقو على الخروج سوى متحشرجة من جسد كان قلبه

يدمي، وهو يرى أسرته الصغيرة تتلاشى تحت عجلات الشاحنة! لم يـتمالك رجـب نفسه، وهو يسقط على الإسفلت غير مصدق ما قد شاهده للتو!

تـوقفت الشاحنة، وخرج منها ثلاثة رجال على وجه كل منهم جمـود أشد قسوة من الحجارة. اقترب من رجب أحد هؤلاء الرجال، وقد أخرج مسدسا صوبه نحو الجهة اليسرى من صدره. طلقة واحدة نحو القلب كانت هي الفاصلة بين الحياة والموت.

– "سـيد رجـب غول... السيد كمال أغلو يبعث إليك بتحياته، ويتمنى لك حياة أفضل إلى حيث أنت ذاهب." أكمل الرجل جملته، ثم أطلق الطلقة!

4

يقال بأنك إذا أردت أن تصطاد نمرا، فعليك أن تقضي عليه من الطلقـــة الأولى؛ لأنك إن لم تفعل، فسوف يقضي هو عليك، وآخر ما يتمـــناه الصياد أن يكون وراءه نمر جريح يزداد حقده، وتنمو رغبته فـــي الانـــتقام مـــع كل قطرة دماء تنزف من جرحه العميق. فرغبة الانـــتقام تمد صاحبها بعزيمة تغالب الأعاصير، وتناطح الجبال؛ وإن مزجت مع حقد دفين، تصبح خلطة دمار شامل، لا يقف أمامها سوى الموت!...

لـــم ير الفلاح العجوز في حياته الممتدة على ست عقود منظرا كالـــذي شاهده للتو عن بعد! ظل متسمرا في موقعه، حتى انصرف الـــرجال الـــثلاثة، ثم أخذ يقترب على حذر من ذلك الرجل المسكين الذي رآه يقتل أمام عينيه.

– "لا حـــول ولا قـــوة إلا بالله، ما الذي فعله هذا الرجل في دنـــياه، حتى يلقى مثل هذه النهاية؟" أخذ يحدث نفسه، وهو يقترب من الرجل الملقي في وسط الشارع الخالى من السيارات والمارة، فـــي هذا الجزء من جنوب شرق تركيا؛ وما كاد الفلاح أن يلمس الرجل، حتى قفز إلى الخلف، عندما فتح رجب عينيه، وأخذ يرفع يده اليمنى.

– "الله أكبـــر!... الله أكبر!... لقد أعادك الله إلى الحياة!... الله أكبر!..." أخذ الفلاح يصرخ، وقد هاله ما رأى، غير مصدق أن وليا من الأولياء قد شاءت الأقدار أن يصادف طريقه!

* * *

"دكستروكارديا"... كان وقع هذا المصطلح الغريب على والدي رجب بعد ولادته كالصاعقة.

– "كيف يمكن أن يكون قلب الإنسان في غير موضعه!... هل هذا ممكن؟"

كانـــت الأم هي الأكثر قلقا على إبنها الذي إنتظرته على شغف بعـــد أعـــوام من المحاولات العديدة الفاشلة للإنجاب؛ وهاهوذا ابنها الذي جاء بعد طول انتظار قد ولد بقلب في الجهة اليمنى من صدره، بخلاف باقي البشر!...

كان الأب أكثر تعقلا وتقبلا لما سمعه من الأطباء الذين أخبروه بضرورة إجراء المزيد من الفحوصات للتأكد من خلو الطفل من أية تشوهات خلقية قد تصاحب هذه الحالة النادرة التي سبق وأن ولد بها عدد من الأطفال حول العالم...

مرت السنوات، وشب الطفل بصحة جيدة، ولكن بقلب في غير موضـــعه المعـــتاد الذي كان يدرس له ولأترابه في المدرسة. كانت المسألة في بادئ الأمر تشكل له حيرة وحرجا... لماذا هو، دون عن باقي الناس، يخلق هكذا؟... كان السؤال دوما ما يتكرر على خاطره، ولكن مع مرور السنين، وكأمور كثيرة في الحياة، أصبح السؤال من خبـــر الماضـــي، لدرجة أن رجب قد نسي الأمر، ولم يعد يعيره أي اهـــتمام، حتـــى جـــاء ذلك اليوم الذي رأى فيه الموت يلتهم أسرته الصغيرة، وكاد يلتهمه هو!...

* * *

– "أقـــول لكـــم، لقـــد كـــان يصارع الشيطان، رأيت المعركة بعيني... رأيت الشيطان وهو يصيبه بشرارته النارية في قلبه، ولكن الله أعـــاده إلى الحياة... إنه ولي من أولياء الله لذلك أعاده إلى الحياة حتـــى لا ينتصر الشر على الخير!" أخذ يردد مسعود الفلاح على كل

من يلتقي به من سكان القرية حتى أصبحت سيرة ذلك الرجل الغريب الذي أصيب في قلبه "بشرارة الشيطان" ثم أعاده الله إلى الحياة حديث كل القرية والقرى المجاورة!

الكل أصبح يتوافد على منزل مسعود الفلاح لكي يتبرك بالولي الصالح الذي كان يتعافى هناك من معركته الكبرى مع الشيطان! وفي ليلة وضحاها أصبحت القرية تعرف بقرية الولي، وأصبح مسعود أهم شخصية فيها؛ لينتقل من فلاح بسيط لا يؤبه له، إلى أحد صفوة مجتمع قرية الولي وباقي القرى المجاورة!

مرت الأيام والأسابيع، وحال كثير من أهالى القرية قد انقلب رأسا على عقب، وجروح رجب كانت تلتئم، إلا جرح واحد أصاب فؤاده في اللحظة التي رأى فيها أسرته، التي كانت كل حياته، تختفي إلى الأبد؛ ومع مرور الأيام، ومع كل ثانية من ثواني عقرب الساعة التي أهدتها إليه زوجته في عيد زواجهما الأخير، كان قلبه بجنبه الأيمن، الذي نجا من طلقة الرصاصة الغادرة، يزداد كرها وسخطا... وفجأة أخذ يتذكر كلمة قالها له والده في ذات يوم بعيد:

– "لربما خلقك الله على غير شاكلة البشر لأمر ما أنت وُجِدت من أجلِه، قد تُدرك حكمته في يوم من الأيام."

في تلك اللحظة التي تذكر فيها مقولة أبيه، أخذ رجب غول يدرك أمرا واحدا لا ثاني له، وقد احتل كل ذرة من كيانه... **كمال أغلو!**

5

بــدا المكان مألوفا لنعيم الوزان، بالرغم من عدم زيارته له من قــبل. بــل إنه لا يتذكر كيف قدم إليه ولكنه هاهوذا. كان يرى آثار مــنازل مبنــية بطوب على سفوح الجبال، خالية من سكانها، كما لو أنهم هجروها منذ زمن بعيد...

الــشمس ساطعة والعرق يتصبب من على جبين نعيم الذي أخذ يلــتفت نحــو صوت خافت لا يكاد يسمع قادم من وراء الجبال. بدأ يخطــو نحــو الصوت الذي كان يزداد وضوحا مع كل خطوة كان يخطــوها. إنــه نفس الصوت!... لم يسمعه منذ ثلاثة أعوام، ولكنه يتذكــره جــيدا بنبرته الدافئة والعميقة، وكأنه يحمل أكثر من معنى، وكأنــه يخاطــب الوجدان!... اقترب أكثر، حتى أصبح يرى مصدر الــصوت، كان جده خليل الوزان متربعا تحت ظلال شجرة يتلو، من مصحف أمامه، آيات ما إن يفرغ منها، حتى يعيدها:

""فمكــث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنــبأ يقــين. إنــي وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم. وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعملهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون."

اســتمر فــي تلاوته عدة مرات ثم فجأة توقف، رفع رأسه نحو نعيم، وعلى وجهه ابتسامة دافئة، ثم عاود التلاوة... الآيات نفسها!...

* * *

– "نعيم!... نعْيم!... ألم تغادر المكتب منذ البارحة؟ أنت بنفس ملابسك!"

فـــتح نعـــيم عينيه... نظر نحو مصدر الصوت الذي أيقظه من ســـباته العميق، ولكن لم يكن الصوت نفسه الذي سمعه منذ لحظات، ولا الرجل نفسه.

– "أنـــور! مـــاذا تفعل هنا؟" سأل نعيم شريكه الماليزي، وهو يستجمع وعيه الذي بدا لوهلة، كما لو أنه كان مفقودا.

– "مـــا الـــذي أفعلـــه أنا هنا!" ردد أنور وهو يضحك..." أين تحـــسب نفسك؟ أنت مازلت في المكتب بالملابس نفسها. يبدو أنك لم تغادر إلى منزلك منذ البارحة... أخبرني ما هو هذا المشروع الجديد الذي إستغرق من وقتك إلى هذا الحد؟"

أخـــذ نعيم ينظر حوله وقد إستدرك كامل وعيه؛ هذه المرة كان يعرف المكان جيدا، إنه مكتبه في الدور العاشر من مبنى بترونس في العاصمة الماليزية كوالالمبور.

– "يبدو أن النعاس قد أصابني فجأة، فلم أشعر بنفسي."

– "ماذا بك؟ أنت لا تبدو على ما يرام."

– "أنا بخير... فقط... لوهلة حسبت كما لو أنني كنت في مكان آخر."

– "كنت مستغرقا في النوم. لا بد أنك كنت تحلم."

– "ولكنه لم يكن كباقي الأحلام... وكأنه كان واقعا أحياه!"

– "خيرا إن شاء الله؟"

– "رأيـــت جـــدي خليل." قال نعيم جملته، ثم صمت قليلا كأنه يـــتأمل مسألة ما. "أنور... هل تؤمن بأن روح الشخص المتوفى قد تتواصل مع الحي عبر الأحلام؟"

– "دعـــك مـــن هـــذه السيرة، فأنا لا أفهم مثل هذه المواضيع، ولكنـــي أفهـــم فـــي لغة المال والأعمال وأريدك أن تشرح لي لماذا مازلـــت تـــشتري أســـهما فـــي شركة الفرعون. ألم تجد في السوق الأمريكـــي غير هذه الشركة؟ أصدقك القول، لقد بدأت أقلق؛ ظننتك

ســتبيع أســـهم تلك الشركة، وخاصة أنها قد إرتفعت الآن أكثر من عشرين في المائة؛ ولكنك على العكس، تبيع من أسهم باقي الشركات وتــشتري أسهم هذه الشركة بالتحديد... قل لي بصراحة، هل هناك خبر ما سمعته عن شركة الفرعون؟"

– "لا، فلا يوجد أي خبر على حد علمي."

– "إذاً، لمـــاذا كل هذه الأسهم في شركة واحدة، وكأنك ترغب في الاستحواذ عليها؟"

– "وهذا هو بالفعل ما أريد أن يعتقده المضاربون، وبعض كبار المستثمرين، والأهم من كل هؤلاء رئيس مجلس إدارة الشركة."

– "من تقصد؟"

– "فــؤاد شـــوكت رئـــيس مجلس إدارة شركة الفرعون وأكبر مـــستثمر فـــيها؛ أريـــده أن يعـــتقد أن هناك تكتلا من رجال أعمال ماليـــزيين يرغبون في الاستحواذ على الشركة، فيقدم هو على شراء المزيد من أسهمها في السوق."

– "إذاً، أنـــت لا ترغب في الاستحواذ على الشركة، ولكنك فقط تريد الإيهام بذلك. نعيم، هذه مجازفة، فسعر السهم أصبح متضخما.

– "لا بأس، فكلما تضخم السعر كلما كان وقع السقوط أقوى."

– "ســـقوط! عن أي سقوط تتحدث! نعيم، ما الذي تنوي فعله؟" كان القلق قد بدا جليا على وجه أنور.

– "لا تخـــف، فـــسنكون قـــد خرجنا من السهم، وحققنا أرباحا طائلة، وبهذا أكون قد أصبت عصفورين بحجر واحد."

– "العصفور الأول فهمته، ولكن ما هو يا ترى العصفور الثاني هذا الذي تتحدث عنه؟"

– "الانتقام من خصم قديم!"

رن جـــرس الهاتـــف، فرد عليه نعيم؛ كان سكرتيره على الخط الثاني يخبره بمجيء الضيف المنتظر.

– "نعـيم قـبل أن أتركك مع ضيفك القادم من الخليج أريد أن أنـصحك نصيحة خالصة، كصديق لك قبل أن أكون شريك عمل... دعك من الماضي، ودع الماضي عنك؛ لا تخلط بين ثأرك الشخصي مـع فـؤاد شوكت، وبين العمل، فأنت تجازف بأموال الشركة التي بنيناها أنا وأنت، حتى أصبحت من أهم شركات الاستثمار في جنوب شـرق آسـيا، وبأموال مستثمرين آخرين، وثقوا بك، وبفراستك في الاسـتثمار في أسواق الأسهم الأمريكية. أنت ما زلت شابا والمستقبل مازال أمامك، وأغلب رجال الأعمال في ماليزيا يحترمونك، فلا ترم بكل هذا وراء ظهرك من أجل ثأر شخصي قديم قد تجاوزه الزمن."

– "الـزمن لا يتجاوز أي شيء، وهذا ليس مجرد ثأر! أنت لا تعرف هذا الرجل مثلما أعرفه أنا، ولا تعرف ما الذي فعله معي ومع غيـري مـن خيرة الناس!" صمت نعيم قليلا، وقد ملأه الغضب، ثم إسـتطرد، قـائلا..." أشكرك أنور على نصيحتك الصادقة ولكن لا تخـف، فأنـا أعي تماما ما أفعله وستجد ما يسرك أنت وباقي الذين استثمروا معنا في محافظ الأسهم الأمريكية."

انـصرف أنـور مـن مكتب نعيم، والقلق كان لا يزال يملؤه، بالرغم من كلمات نعيم التطمينية. مضت لحظات قليلة، ثم دخل وجه آخر مألوف لدى نعيم، وإن لم يره منذ أكثر من عام.

– "جاسـم الفراج... لم أكن أتخيل بعد لقائنا الأخير أنك ستقطع آلاف الكيلومتـرات لكي تزورني؛ لا بد أنه أمر جد خطير هذا الذي جعل الجماعة تبعث بك إلي بعد كل الذي حدث بيننا!"

– "كـيف حالـك يا نعيم.. أتمنى ألاّ تكون ما تزال تحمل في نفسك علي وعلى الأخوة شيئا، أنت تعلم..."

– "أنا لا أحمل، ولم أحمل في يوم من الأيام أي شيء تجاهكم." قاطـع نعيم، ثم أكمل..." ولو كنت أحمل في نفسي شيئا لما استقبلتك فـي مكتبي. أنا فقط على استغراب من هذه الزيارة التي لم أتوقعها

منك أنت بالذات الذي كنت منذ البداية من أشد المعارضين لوجودي في الجماعة."

– "أفضل ألاّ نتحدث في هذا الموضوع الآن." قال جاسم، وهو ينظر حوله.

– "لا تخـــف، فالمكـــان آمن؛ نستطيع التحدث دون الحاجة إلى الحذر... دعك من هذا الحس الأمني المبالغ فيه!"

– "الحـــيطة واجـــبة يـــا نعيم، ولكن ماذا أقول، فتهورك وعدم التزامك بتعاليم الجماعة هو الذي جعلك لا تستمر معنا!"

– "ومـــع ذلك ها أنت ذا هنا تريد الاستعانة بي." قال نعيم، وقد رسم على وجهه ابتسامة خبيثة حرص على إظهارها، لكي ينتبه لها جاسم الفراج.

– "صـــدقني لو أن المسألة كانت متروكة لي، لما فكرت في المجـــيء، ولكنـــي ألتزم بقرار الأغلبية، حتى لو كان مخالفا لما أريد."

هـــز نعـــيم رأسه وقد أدرك أنه تمادى في إظهار عدم ارتياحه لمجيء جاسم الذي في نهاية الأمر قد حل عليه ضيفا في مكتبه؛ شعر أن كرم الضيافة كان يستوجب عليه أن يتحمل وجوده!

أشـــار نعـــيم على ضيفه بالجلوس، ثم طلب من الساعي، عبر الهاتف، أن يجلب لهما الشاي الأخضر.

– "أرجـــو أن تعذرنـــي إن كنت فظا في استقبالك. أنا أقدر لك مجيـــئك إلـــي هنا، كما أقدر طلب الجماعة في الاستعانة بي، ولكني أخشى ألاّ يكون بمقدوري المساعدة الآن، فالشركة تمر بمرحلة شديدة الحساسية، كما أنه لدي الكثير من الأعمال..."

– "ألا تـــود أن تعرف أولا في أي أمر، ولماذا نريد الاستعانة بـــك؟" قاطع جاسم، وهو يناول نعيم ورقة مطوية أخرجها من جيب معطفه.

- "ما هذا؟"

- "هذا خطاب أريدك أن تطلع عليه."

أخـــذ نعيم الورقة من جاسم، ثم قرأها بصوت خافت: "**قد جاد الـــزمان عليـــنا بمـــا كنا نحلم به منذ مئات السنين. وها هو الحلم يصبح حقيقة، ورايتنا تعلو من جديد دون علم الأعداء، فها هي ذي مـــرحلة قـــد انتهت لتبدأ بعدها مرحلة جديدة، تنتهي بعد قرن من الـــزمان؛ ليكون الوقت في حينها قد أزف، وعندئذ في مدينة حَدَاد، كما أخبرنا السلف، سيكون الحدث الأعظم مؤذنا بعودة الغائب الذي طال انتظاره.**"

نظـــر نعيم إلى جاسم بعد فراغه من قراءة الخطاب، وقد ملأته الدهـــشة! فقـــد استطاع جاسم بمراوغة ذكية أن يلفت انتباهه ويثير اهتمامه.

- "علـــى لـــسان مـــن كتبت هذه الكلمات، ومن أين حصلت عليها؟"

- "أســـتطيع أن أجيبك عن السؤال الثاني، من أين حصلنا على هـــذه الكلمـــات؛ أما بالنسبة للسؤال الأول، فهو ما تريده الجماعة أن تأتينا أنت بإجابته؛ هذا إن كنت على استعداد للتعاون معنا."

هـــز نعـــيم رأســـه دون أن يتكلم، معطيا لجاسم الفرصة لإلقاء المزيد من الضوء.

- "هذه الكلمات هي جزء من خطاب حصل عليه الدكتور عبد القادر بنوّزاني قبل وفاته بعدة أسابيع من صحفي تركي اسمه رجب غـــول؛ وقـــد مـــرره لباقـــي القادة، لكي يطلعوا عليه قبل الإجتماع السنوي، وأخبرنا أنه سيكشف أمرا في غاية الخطورة يخص ما جاء في الخطاب."

- "الدكـــتور عبد القادر!" ردد نعيم، وقد فوجئ باسم أستاذه..." وهل أخبركم عن هذا الأمر الخطير؟"

– "لا، مع الأسف لم يسعفه القدر، وقد جرى له ما جرى، كما تعلم."

– "وماذا عن الصحفي التركي رجب غول؟ هل حاولتم الاتصال به، بما أنه كان مصدر الخطاب؟"

– "حاولنا، ولكننا لم نستطع الحصول عليه، فالرجل كما لو كان قد اختفى من على وجه الأرض! صدقني لقد حاولنا منذ حصولنا على الخطاب ولمدة ثلاثة أعوام أن نفك طلاسمه، ولكن دون جدوى... **مدينة حَدَاد؟؟... عودة الغائب الذي طال انتظاره؟؟...**"

– "مدينة حَدَاد" ردد نعيم متأملا الاسم..." لم أسمع بها من قبل، أما **عودة الغائب الذي طال انتظاره**، فقد تحمل عدة معان، ولكن كلها قريبة من بعضها." أخذ يَنظُر نعيم إلى الورقة مجددا وهو يقلب فيها، وقد بدا علي وجهه شيء من الإستغراب..." هذه الورقة لا يبدو عليها أن عمرها ثلاثة أعوام، فهي ليست التي حصلتم عليها من الدكتور عبد القادر، أليس كذلك؟"

– "بالطبع لا..." أجاب جاسم بحزم..." النسخة الأصلية مع الدكتور إسماعيل."

نظر نعيم إلى وجه جاسم، متمعنا النظر إلى تعابير وجهه، وكأنه كان يقرأ فيه ما لم يبح به لسانه.

– "هل هذا كل ما جاء في الخطاب الذي حصل عليه الدكتور عبد القادر؟"

– "ماذا... ماذا تقصد؟"

– "لماذا لا ترغبون في أن أطلع على باقي الخطاب؟... ما الذي يحتويه وتريدون التكتم عليه؟"

بدأ القلق واضحا على جاسم الذي كان شديد الحذر من فراسة نعيم الوزان.

– "لا شيء يهمك... نعيم، كل ما نريده منك هو معرفة ما هي مدينة حَدَاد... فقط." قال جاسم وقد بدأ يشعر بعدم الارتياح من مسار الحديث..." بالمناسبة، ماذا قصدت عندما قلت بأن جملة **عودة الغائب الذي طال انتظاره** قد تحمل عدة معان؟"

لم يعجب نعيم رد جاسم على سؤاله، كما لم يعجبه الشعور بأن جماعة العروة الوثقى تخفي عنه أمرا ما يتعلق بالخطاب، وهم الذين قد قدِموا إليه طالبين المعونة؛ لذلك لم يفكر طويلا في شأن الطلب الذي جاء به جاسم الفراج، وقال:

– "سأخبرك مالذي قصدته بخصوص عودة الغائب، ولكن سيكون هذا هو حد تعاوني معكم!"

لم يستأنس جاسم لهذه الجملة الأخيرة، فأخذ يفكر في طُعْم جديد يرميه لنعيم الوزان.

* * *

– "مع اختلاف معتقدات الشعوب إلا أنك دائما ما تجد هناك قواسم مشتركة بين تلك المعتقدات، قريبة في ملامحها العامة، وإن اختلفت التفاصيل، ومن هذه الأمور فكرة المنقذ الغائب الذي إختفى في زمن قديم، وسيعود في المستقبل؛ لكي يقود قومه لسيادة العالم، فهذا المفهوم موجود في كافة الأديان والمعتقدات... المسلمون والمسيحيون يؤمنون بأن هذا الشخص هو المسيح عليه السلام، والشيعة الجعفرية من المسلمين يضيفون إلى عودة المسيح عودة إمامهم الثاني عشر محمد المهدي الذي دخل سردابا في مدينة سامراء العراقية منذ عدة قرون، عندما كان طفلا، ولم يخرج منه منذ ذلك الحين... مثل هذه المفاهيم تجدها في معتقدات كثيرة؛ خذ مثلا الزرادشتية.."

– "الزرادشتية؟" قاطع جاسم متسائلا.

- "نعم الزردشتية، ديانة المجوس، هي في الأصل ديانة موحدة، بل إن عمر بن الخطاب عندما سئل عن كيفية التعامل مع المجوس إبان فتح بلاد فارس، أمر بمعاملتهم كمعاملة أهل الكتاب، وهذا لأنها في الأصل ديانة موحدة نسبت إلى زرادشت الذي قيل بأنه كان نبيا من الأنبياء أمر بعبادة الله، ولكن تعاليمه حرفت بعد وفاته." شرح نعيم.

- "وهل يؤمن المجوس أيضا بعودة غائب ما؟"

- "تتحدث الكتب القديمة للمجوس، أو الزرادشتيين، عن بشوتان، وهو أنبغ تلامذة زرادشت، وقد اختفى في مغارة هو، وواحد وخمسون من أتباعه بجبل البرز، شمال إيران. يعتقد الزردشتيون أنه قابع هناك منذ آلاف السنين إلى أن يحين موعد عودته غير المعلومة... هناك الكثير من المِلل والطوائف الأخرى التي لديها مثل هذا الاعتقاد، بل إن من سخرية القدر أن هذا الاعتقاد في مخلّص ما يعود بعد غيبة طويلة، كان السبب في القضاء على إحدى الحضارات العريقة، التي وقعت فريسة لهذا المعتقد."

- "عن ماذا تتحدث؟"

- "أتحدث عن حضارة الأزتك التي حكمت المكسيك منذ مئات الأعوام، وقبل إكتشاف القارة الأمريكية من قبل الأسبان، إذ كانوا يعتقدون قرب مجيء الإله الغائب كوازلكت من الشرق عبر البحر، فعندما جاء الإسبان إلى المكسيك في القرن الساس عشر عبر البحر، كان الإعتقاد أن القائد الأسباني كورتيز هو الإله الغائب "كوازلكت" الذي جاء ليرفع من شأنهم؛ ولكن الذي حدث أن الأسبان استغلوا هذا الاعتقاد الخاطئ، وقضوا على إمبراطورية الأزتك."

صمت نعيم قليلا، وكأنه يفكر في أمر ما قد تنبه إليه في خضم ما كان يستعرضه.

- "هــناك جملة في الخطاب قد تضفي بعض الضوء على من هــو المقصود بالغائب." قال نعيم، وهو يعاود النظر في الورقة التي ناوله إياها جاسم، ثم أخذ يقرأ منها مرة أخرى: "**ها هي ذه مرحلة قد انتهت لتبدأ بعدها مرحلة جديدة، تنتهي بعد قرن من الزمان؛ ليكون الوقت في حينها قد أزف**... الخطاب يتحدث عن مرحلة ما قد إنتهت لتبدأ بعدها مرحلة جديدة مدتها مائة عام... جاسم، هل تعلم متى قيلت هذه العبارة؟"

تــردد جاسم قليلا، ثم أجاب نعيم بأنه غير مخول له الإفصاح عن هذه المعلومة.

- "أنا لا أفهم إلى متى ستظلون هكذا تحيطون كل أمر بالسرية والكــتمان! تطلبون مني المساعدة، ثم تكتمون عني المعلومات التي أحــتاج إليها لكي أصل إلى الحقيقة!" انفجر نعيم في وجه جاسم الذي ظــل هادئا، وقد شعر أن وقت الطُعْم الثاني، الذي سيجعل نعيم يقبل الــتعاون مع جماعة العروة الوثقى بشروطهم وليس بشروطه هو، قد أزف.

- "نعــيم... أريدك أن تهدأ، حتى أخبرك عن أمر يهمك أكثر، وهــو أيضا يخص الخطاب... أنا أعلم جيدا مدى قرب العلاقة التي كانــت تــربطك بالدكــتور عبد القادر بنوّزاني، ولذلك سأعلمك عن مسألة لا يعرفها إلا القليلون." صمت جاسم قليلا؛ لكي يضفي الإثارة علــى مــا ســوف يقوله، فيكون وقعه أقوى..." نحن نعتقد أن هذا الخطــاب الــذي بين يديك هو السبب الحقيقي في وفاة الدكتور عبد القادر!"

- "ماذا؟!" كانت الدهشة واضحة على نعيم.

- "لــيس هذا فقط... الدكتور عبد القادر أرسل رسالة إلينا قبل وفاته بساعات يخبرنا أن هناك صلة بين الخطاب وبين حكومة الظل، وأن الصحفي موشي جولد كان على علم بذلك."

– "حكومة الظل؟!... موشي جولد؟!... لماذا لم أخبر من قبل عن هذا الأمر؟ لماذا الآن بعد ثلاثة أعوام؟"

– "لأن لكـــل أمـــر أواناً... نعيم، أنت تعلم أن موشي جولد قد مـــات، فلـــم يبق لدينا سوى زوجته دانيال التي نريدك أن تصل إليها عن طريق صديق مشترك بينكما."

أدرك جاســـم، من تعبيرات وجه نعيم، أن الطُعْم الذي فكر فيه للـــتو بسبب حالة الرفض والتحدي التي أبداها نعيم، قد آتت ثمارها؛ فـــلا بـــأس مـــن إخـــباره عن علاقة مقتل الدكتور عبد القادر بهذا الخطاب؛ أما إضافة زوجة موشي للمعادلة، فسيجعل نعيم أكثر رغبة في التعاون، خاصة عندما يعلم من هو ذلك الصديق المشترك.

– "من تقصد؟" سأل نعيم، وقد أخذ يدرك أبعادا جديدة للخطاب ما كان ليتخيلها!

– "طلعـــت أحمـــد نجاتي... هو كما تعلم يسكن الآن في دبي، حيث يدير قناة النور الإخبارية. نريدك أن تذهب إليه، وتطلب منه أن يرتب لك لقاء مع دانيال جولد."

– "حكومة الظل!... فؤاد شوكت!..." أخذ يتمتم نعيم، وهو يقوم مـــن فوق الأريكة، متجها نحو النافذة المطلة على سماء كوالالمبور الغائمة التي كانت تنذر بعاصفة رعدية في الأفق، في الوقت ذاته أخذ جاسم الفراج يشرب مما تبقى من قهوته السوداء، مدركا أن الطُعْم قد أصاب هدفه!

6

بحثت عنك في كل مكان... ولم أجدك في هذا الزمان... أيعقل منك كل هذا الهوان؟... أيعقل أن أكون في طي النسيان؟

يقـــال بأن الزمن كفيل بمداواة كافة الجراح، ولكن هناك شرط بسيط: ألا تُنبش تلك الجراح.

* * *

مـــضى علـــى قدوم جمال جداوي إلى مدينة بوسطن الأمريكية أكثـــر من شهر، وقد تأقلم سريعا على حياته الجديدة التي سعى إليها بكافـــة الوســـائل المـــشروعة، وغيـــر المـــشروعة مـــن واسطات ومحسوبيات، حتى استطاع أن يحصل على البعثة المنتظرة، وكان قد قـــرر فور وصوله أن يبدأ حياة جديدة، متناسيا آلام ذكرى الحبيبة المفقـــودة، وكل ما يتعلق4 بها، بما في ذلك موطنها؛ لذلك لم يكن حريـــصا على التواصل مع باقي السعوديين، فلم يقم جمال بزيارة الـــنادي الـــسعودي ببوســـطن أو أي من الأماكن الأخرى التي قد يـــتواجدون فـــيها، كالمطـــاعم العـــربية أو، في بعض الأحيان، المـــراقص التـــي اشتهرت بعرض بعض أغنيات أشهر المطربين العـــرب؛ حتـــى عـــندما اتصل به رئيس النادي السعودي سعود النجـــيدي، وهو أحد المبتعثين للتخصص في جراحة الصدر؛ لكي يدعـــوه إلى حفل تعارف يقام بشكل سنوي في النادي، اعتذر إليه جمال، بالرغم من إلحاحه الشديد. ومع مرور الوقت أصبح جمال يصنف من ضمن "المستقلين" أو "المتحررين" الذين قاطعوا النادي، وســـموه بـــنادي "الممـــنوعات" أو نادي "المطاوعة"، وذلك لكون

أعـضاء مجلـس إدارته من المحافظين الذين منعوا فيه التدخين، والتلفاز، ولعب الورق.

فـي الـوقت نفـسه، كانـت قد توطدت صلة جمال بزملائه الأمـريكان في قسم الأشعة بمستشفى بوسطن وببعض أبناء الجاليات الأخـرى، بمـا فـيها الجالـيات العربية، التي كانت تسكن المدينة الأمـريكية المـشهورة بجامعاتهـا العـريقة ومستشفياتها الكبيرة؛ وأصـبحت ليـنا، الطبيبة المقيمة في قسم الجراحة والتي تنحدر من أصـول عربية، هي أقرب الناس إليه، حتى إنه لأول مرة منذ زمن أصـبحت تمـر عليه عدة أيام، دون أن يفكر أو يحلم بدلال، وشيئا فشيئا تحولت الحبيبة المفقودة إلى ذكرى غائبة، قلما تُذكر.

– "جمال... لا أريد أن أذهب لوحدي إلى حفل العشاء، لا تكن بايخـا!... لماذا لا تريد مصاحبتي، فهل لديك مشروعات أهم مني؟" حاولـت ليـنا أن تقـنع جمال وهما يتناولان وجبة الغداء في مطعم المستـشفى أن يصاحبها إلى الحفل الذي دعيت إليه مع باقي أعضاء قـسم جـراحة الـصدر، السبت القادم في منزل أحد المرضى الذي أجريت له عملية إستئصال ورم سرطاني في الرئة منذ أقل من شهر.

– "ليـنا... أنـت لا تحتاجـين إلى جواب على هذا السؤال... ولكـن... لـم لا تعـتذرين عن الذهاب إلى هذا الحفل، ونذهب إلى السينما؟ سمعت أن هناك فيلما جديدا رائعا لبراد بيت..."

– "أنا أعرف لماذا لاترغب في الذهاب... أنت لا تريد أن يرانا سعود." قالت مبتسمة، وهي تشاكس جمال الذي أربكته جملتها الأخيرة.

– "أنـا لا يهمني أحد، أنت تعلمين ذلك جيدا... ولكن صاحب الحفل لم يدعني، فبأي صفة أذهب؟"

– "بـصفتك صديقي الذي أحبه، وأريده أن يكون معي في كل مكان أدعى إليه."

– "أنا لا أفهم لماذا كل هذا الحرص على هذا الحفل بالذات؟"

– "لأن فؤاد شوكت رجل لطيف جدا، وقد أكد علي أن أحضر؛ ثم لا تنس أني كنت الطبيبة المقيمة المكلفة بمتابعة الحالة بعد العملية، فمن الصعب علي بعد كل هذا أن أعتذر له عن عدم الذهاب."

– "فؤاد شوكت؟... هذا إسم عربي."

– "لا تقـــل لي بأنك لم تسمع بفؤاد شوكت من قبل، أحد أغنى رجال العالم حسب تصنيف مجلة فوربس!" قالت لينا بنبرة تعجب من جمال الذي بدا وكأنه لم يسمع بالاسم من قبل...

– "ليـــنا!" نـــادى رجل أشقر وسيم يبدو عليه الثراء من البدلة الفرساشـــي التي كان يرتديها، ثم أخذ يقترب من الطاولة التي كانت تجلس عليها لينا.

– "فرانك! ما هذه المصادفة الجميلة... كيف حالك، وكيف حال دولي؟"

– "جميعـــنا بخيـــر، دولي تعافت تماما من عملية الزائدة التي أجـــريتها لها؛ سألنا عنك عندما زرنا الاستشاري منذ أسبوعين، قال لنا بأنك انتقلت إلى قسم جديد."

– "أنـــت تعلـــم، نحن الأطباء المقيمين دائما نتنقل بين الأقسام، فهذا جزء من التدريب."

– "عفوا لم أعرفك بنفسي، فرانك روكفلر." قال، وكأنه قد انتبه فجأة لوجود جمال بجوار لينا.

– "جمال جداوي."

كان فرانك يمد يده للمصافحة أثناء ما كان جمال يعرف بنفسه، ومـــا إن نطـــق الأخير اسمه حتى شعر بقبضة الرجل، وقد اشتدت فجأة.

– "جمال جداوي..." ردد فرانك الاسم، متأملا. "أنت من الشرق الأوسط؟"

– "نعم، من السعودية."

– "على العموم فرصة طيبة أني تعرفت عليك... لينا، أنا سعيد بلقائك، وسأخبر دولي بأنك تبعثين إليها السلام."

أنهى فرانك حديثه على عجل، ثم انصرف، وكأنه تذكر فجأة أن عليه أن يكون في مكان آخر.

– "مـــا الـــذي حـــل بـــه؟" تساءل جمال مندهشا من تصرف فرانك..." أرجو ألاّ يكون ممن يكرهون السعوديين!"

– "علـــى العكس، فرانك معروف عنه قربه للأقليات، فهو أبعد مـــا يكـــون عن العنصرية. فالجميع يحبونه في بوسطن؛ لذلك سوف يكتسح خصمه في انتخابات الكونجرس المقبلة."

– "هو سياسي إذاً... حسبته، من مظهره الأنيق، رجل أعمال."

– "والـــده جـــورج روكفلـــر رجل الأعمال المعروف، ورئيس مجلس إدارة شركة سنلايل." قالت لينا موضحة.

– "سنلايل... سمعت عنها... لديها استثمارات كثيرة في منطقة الخليج."

– "الكـــل يعـــتقد أن فرانك سيصبح في يوم ما الرئيس المقبل لأمـــريكا؛ فأنـــا شخصيا لم أسمع عن سياسي بهذه الشعبية منذ جون كينـــيدي. تصور حتى جمعيات الرفق بالحيوان يحبونه بسبب تزعمه لحركة تهدف إلى منع ما يقوم به مربو الكلاب من قص آذان وأذناب بعض الفصائل من الكلاب كالروتويلر، والدوبرمان."

– "الدوبـــرمان..." ردد جمال بهدوء، وقد استرجع فجأة ذكريات لحظاتـــه الأخيرة مع دلال في حديقة الهايدبارك... تذكر ذلك الدوبرمان الـــذي توقف أمامهما، وحديث دلال عن تملكها لكلب من الفصيلة نفسها عـــندما كانت صغيرة... هكذا، في لحظة قد باغتته، تذكر يومه الأخير مـــع الإنسانة التي ملأت عليه حياته، والتي عشقها حتى النخاع. عادت الذكريات بعدما ظن أنه قد تجاوزها، وأن جراحه قد داواها الزمان...

7

ثلاثـــة أعوام من المراقبة والتتبع... ثلاثة أعوام، ورجب غول يترصـــد عـــدوه، مثلما يترصد النمر فريسته التي يوشك أن ينقض عليها... ثلاثة أعوام، وكمال أغلو يجهل أن الفريسة التي ظن أنه قد قـــضى عليها، تريد هي الآن أن تقضي عليه... ثلاثة أعوام منذ أن تعافـــى رجـــب مـــن الرصاصة التي اخترقت جانب صدره الأيسر لـــتحوله إلـــى رجل ميت بالنسبة لأعدائه، وإلى الولي الصالح، الذي اختـــرقت الرصاصة قلبه دون أن تقتله، بالنسبة لسكان قرية الولي، وباقي قرى جنوب شرق تركيا... ثلاثة أعوام منذ أن حاول رجب أن يشرح للعوام أن ما جرى له ليس بكرامة، وأن الرصاصة لم تخترق قلـــبه؛ لأن قلـــبه، علـــى خـــلاف غالبية البشر، ليس في الجهة التي يفتـــرض أنـــه فـــيها، وأنه ليس بولي صالح، ولكن كان هذا لا يزيد العوام إلا يقينا بأنه ولي؛ فالتواضع وعدم التباهي بالكرامات هي من شيم الأولياء...

– "كان جدي دائما ما يقول بأن لهذه القرية وليا غائبا، وأنه قد اقتربت عودته..."

– "نعم صدقت، حتى أبي، رحمة الله عليه، سمعته يتحدث عن ذلك الأمر..."

– "وأنا أيضا..."

– "حتى أنا..."

وهكـــذا تحول الاعتقاد إلى يقين راسخ في القلوب لا يزحزحه شـــيء، وأصبح الآلاف يأتون إلى القرية للتبرك بالولي الصالح الذي أمـــسى بعـــد أسابيع قليلة أكثر تقبلا للمكانة التي وجد نفسه قد وضع

فيها دون إرادته؛ هذه المكانة التي جعلت منه مقصد أحد أبناء القرية المغتـــربين، والذي شاءت الأقدار أن يكون سائق غريمه الذي حاول القضاء عليه، مثلما قضى على أسرته الصغيرة!

وجـــد رجب أن لمكانته الجديدة فوائد لم تخطر له على بال... فـــوائد قد تمكنه من الانتقام... بل فوائد قد تساعده على اختلاق اسم جديـــد لهوية جديدة، بعدما أصبح لا وجود لرجب غول بالنسبة لباقي العالم...

ثلاثـــة أعوام قد مضت، وها هو ذا قد اقترب من آخر المشوار فـــي لندن مدينة الضباب، فكل ما عليه الآن هو أن يكتشف سر ذلك اللقـــاء المعتاد في ذات الوقت من كل عام بين كمال أغلو، وصاحب القـــصر الكبير في ضاحية لندن. هذا اللقاء الذي يحرص عليه كمال كحرص الحجيج على الوقوف بعرفة... ثلاثة أعوام، وكمال أغلو في هـــذا الـــيوم من العام في تمام الساعة الثامنة صباحا يذهب إلى محل الخـــياطة بالفـــندق، لكـــي يقيس سترة من ستر البدل التي تحاك له خصيـــصا، ثـــم تأتـــيه في تمام الساعة الثامنة والنصف سيارة بنتلي سوداء؛ لتقله إلى ذلك القصر الكبير... كان على رجب أن ينفذ خطته مـــا بـــين الساعة الثامنة، والثامنة والنصف. في هذه المدة سيستطيع الاقتـــراب أكثر من خصمه الذي لا يعلم بوجوده، وعليه حينئذ وضع أول مسمار في نعشه!

* * *

فـــي تمـــام الـــساعة الثامنة دخل كمال أغلو إلى محل الخياطة الفاخر بالفندق. أقبل الخياط مسرعا نحو أحد أهم زبائنه.

– "ســـيد كمـــال! اشـــتقت إليك كثيرا، ثانية واحدة وسآتيك بالـــسترة؛ حتـــى نـــتأكد من المقاس... صالح، هات إحدى الستر الخاصة بالسيد كمال."

مضت ثوان قليلة قبل أن يحضر رجب غول السترة.

– "شـــكرا صـــالح... ســـيد كمال بعد إذنك تخلع السترة التي ترتديها، وترتدي هذه."

خلـــع كمال سترته، وأعطاها للساعي الذي لم يأبه لوجوده، ثم لـــبس الـــسترة الجديدة. كانت هذه هي اللحظة التي ينتظرها رجب، اللحظة التي من أجلها جاء إلى محل الخياطة قبل شهر لكي يعمل فيه ساعيا... اللحظة التي ظل يتمرن عليها لساعات طوال، حتى أصبح فـــي أقـــل من عشر ثوان قادرا على أن يعيد برمجة هاتف الجوال، بحـــيث يحول رنته إلى الصامت، ثم يجعله يلتقط الخط من اول رنة بـــشكل تلقائي، وبذلك يتحول إلى جهاز بسيط، ولكن فعال للتصنت! تلـــك الخاصية الموجودة في أغلب جوالات العالم سيستخدمها رجب لمـــصلحته الـــيوم؛ حتـــى يتمكن من معرفة ما الذي يدور في ذلك القصر. في أقل من عشر ثوان كان رجب قد أخرج جوال كمال أغلو من الجيب الداخلي للسترة، فأعاد برمجته، ثم وضعه في مكانه، دون أن يـــشعر به أحد. كان عليه بعد ذلك أن يتتبع كمال إلى القصر، ثم يقوم بالاتصال على رقم جواله بعدما يدخل، فيصبح كل ما يقال تحت مرمى سمعه!

– "شـــكرا ســـيد كمـــال؛ كمـــا توقعت علينا أن نجري بعض الـــتعديلات البسيطة على السترة، ثم تكون جاهزة الليلة." قال الخياط العجوز، باذلا كل جهده في إرضاء زبونه المهم.

– "لا بأس."

لـــبس كمال السترة التي دخل بها المحل، ثم مد يده نحو الجيب الداخلـــي، مخـــرجا مـــنه الجوال. راقب رجب المنظر، وقد أخذت نبـــضات قلـــبه تتسارع؛ خشية أن يكون كمال قد تنبه للتغيرات التي جرت للتو على الجوال.

– "هيلين، كيف حالك."

تنفس رجب الصعداء. كان كمال فقط يريد مخاطبة صديقته هيلين.

- "أراك الليلة إذاً، فغدا سأغادر لندن."

-"..."

- "نعم غيرت رقم جوالي منذ قرابة الأسبوعين."

"ماذا!!!" فجأة أدرك رجب أن خطته قد تحطمت. لقد غير كمال أغلو رقم جواله! فكيف سيتصل عليه؟! في المدة التي كان يحضر فيها رجب لهذه اللحظة، قام كمال بفعل أمر لم يحسب له. ثلاثة أعوام من المتابعة، والمراقبة كانت تتلاشى أمام عيني رجب، وهو يرى عدوه يخرج من باب المحل. كان عليه أن ينتظر، حتى العام المقبل، لكي يكرر المحاولة بعد أن يكون قد حصل على رقم الجوال الجديد! عام آخر من الانتظار... عام آخر من الترقب والتتبع... عام آخر من الصبر والمثابرة على رؤية الرجل الذي أصدر أمرا، لا يعلم له سببا واضحا، بقتله. ذلك الأمر الذي غير حياته إلى الأبد، وأودى بحياة أعز الناس إليه!

التفت رجب نحو غرفة الخياطة، لكي يعيد السترة التي يحملها إلى مكانها، لكي يعدل عليها الخياط؛ وفي وسط شعور بالإحباط لأن الأقدار قد تخلت عنه، ما كاد رجب يخطو خطوة حتى سمع باب المحل يفتح مرة أخرى.

- "أريد قياس الجاكيت الجلد المعروض في واجهة المحل." قال كمال أغلو للخياط، وهو يعاود الدخول.

لم تتخل الأقدار عن رجب، كما ظن لوهلة، بل كانت لاتزال تلعب لصالحه! ومرة أخرى أخذ السترة التي كان يرتديها كمال، فقد كان يعلم جيدا ما الذي يجب عليه فعله لكي يتغلب على التحدي الجديد غير المتوقع!...

في ثوان كان قد أخرج الجوال من مكانه، ضغط على بعض الأرقام، ثم أعاده إلى حيث كان.

– "مـــع السلامة سيد كمال، سأرسل إلى جناحك الجاكيت الجلد مـــع البدل." قال الخياط مودعا زبونه، ثم أخذ يتجه نحو نافذة المحل المطلة على شارع باركلين. نظر إلى السماء، التي أخذت تخلو منها الغيوم، لتكشف من ورائها عن أشعة الشمس، ثم قال مبتسما:

– "يا له من يوم جميل."

أخـــرج رجب غول جواله من جيب سرواله. نظر إلى شاشته الـــصغيرة التـــي وجد عليها رقم آخر اتصال جاءه، رقم كمال أغلو الجديد!

ابتسم، ثم تمتم في سره:

– "حقا... ياله من يوم جميل!"

8

دخلت السيارة البنتلي السوداء من بوابة القصر الكبير الواقع في إحـــدى ضواحي لندن؛ وكما جرت العادة في هذا اليوم من كل سنة، كـــان الطريق الموصل من البوابة إلى الباب الداخلي محاطا بجانبيه من حرس خاص، وبعض الكلاب من فصيلة الراعي الألماني. كانت الترتيبات الأمنية على أشدها هذا العام، بحيث إنه لو نملة أرادت أن تصل إلى داخل القصر لفُضِح أمرها!

خـــرج كمال أغلو من السيارة التي أقلته، وتوجه نحو المدخل، الـــذي كـــان بدوره محاطا بكاشف للمعادن ومن حوله رجال الأمن. علـــى الـــرغم من اعتياد كمال على هذا اللقاء السنوي، منذ أن تقلد رئاســـة فـــرع الشرق الأوسط من الجماعة، إلا أنه كان دوما يشعر بالقلـــق، كلما سار بالبهو الطويل المؤدي إلى باب القاعة البيضاوية، حـــيث اجـــتماعه مع أحد الرجال القلائل على الأرض القادرين على إحـــداث أي أمر يشاء، مهما بلغ شأن هذا الأمر في أية لحظة كانت بمجرد إجراء مكالمة بسيطة على هاتفه!

فتح كمال الباب، ثم دخل بتريث؛ في أقصى القاعة، المطلة على الحديقـــة الخلفـــية، كان يقف رجل في عقده السادس ينفخ في سيجار كوبي، وهو يطل، من خلال إحدى النوافذ الشاهقة، على أحفاده، وهم يمـــرحون في الحديقة، معطيا ظهره لكمال أغلو الذي أخذت تتبلور قطرات العرق على جبهته العريضة، وهو يدخل القاعة، محدثا صوتا خفيفا لكي ينتبه مضيفه إلى وجوده.

– "هـــل ســـمعت بنظرية الفراشة؟" سأل اللورد ماير، صاحب القصر، كمال الذي تعجب من السؤال.

- "عفوا... لا أعتقد أني..."

- "علمـــاء الأرصاد يقولون بأن الأرض بيئة مغلقة، فما يحدث في بقعة ما يؤثر على باقي بقاع الأرض، وإن أبسط الظواهر، كتردد جناح الفراشة في إحدى مناطق الأرض كغابة الأمازون في البرازيل على سبيل المثال، قد تؤدي ذبذباته الضئيلة، والتي لا يشعر بها أحد، إلى إحداث تغيرات مناخية متراكمة تصل مداها إلى إحداث أعاصير في الطرف الآخر من الكرة الأرضية."

- "ياللهول... جناح فراشة يؤدي إلى كل هذا!"

استدار اللورد ماير، موجهاً نظراته الحادة نحو كمال.

- "ماذا كنت تعتقد؟ فالعالم مجرد قرية صغيرة، وما يحدث في بقعة ما، كالشرق الأوسط الذي أنت مسؤول عنه، على سبيل المثال، يتـــرك أثره علي أنا هنا في قصري على بعد آلاف الكيلومترات!..." قال اللورد ماير بنبرة حادة، ثم استطرد..." كيف سمحت للأمور أن تخرج عن السيطرة إلى هذا الحد؟! يبدو أن متنوري الشرق الأوسط لم يعد لهم مكان هنا بيننا في تحالف بولدربرج."

- "ما الذي تقوله لورد ماير؟ نحن كنا دائما..."

- "هـــل تعلـــم أن أغلب النقاش الذي دار في إجتماع هذا العام لجماعة بولدربرج، كان حولكم أنتم في الشرق الأوسط. أنا في حياتي لـــم أسمع أبداً عن شخص، وصل إلى مكانة كالتي وصل إليها فؤاد شـــوكت في تحالف الجماعات يحدث له ما حدث، وينقلب حاله مائة وثمانـــين درجة، وبسبب من؟ داعية أثّر بكلامه على زوجته، فجعلها تـــتدين وتـــرتدي الحجاب، وتصبح بعد ذلك واعظة لزوجها ولباقي أسرتها! أخبرني كيف يمكن لكل هذا أن يحدث تحت أعينكم، دون أن تفعلوا شيئا؟!"

- "صـــدقني... هـــذا الداعـــية الشاب، وسيم باسم، ظهر على الـــساحة فـــي مصر فجأة، وانتشر بين الناس بسرعة الصاروخ! من

كان يتخيل أن زوجة فؤاد، المغرقة في الترف، ستتأثر به، بل وتقوم بالتأثيـــر هـــي على زوجها إلى هذا الحد! صدقني لورد ماير، نحن مـــثلكم تفاجأنا بما حدث... ولكن الوضع تحت السيطرة، ففؤاد يدرك أن يدنا تستطيع أن تطوله هو وأسرته في أي مكان في الأرض، كما طالت عبدالقادر بنوّزاني من قبله!"

– "انـــشقاق فؤاد هو جزء من المشكلة، ولكن المشكلة الأخرى التـــي لا تقل خطرا في نظري تكمن في شخص وسيم باسم، ودعوته التـــي أخـــذت في الانتشار بشكل لم يسبق له مثيل. في الماضي كان تأثيـــر الـــدعاة ينحصر في قاع الشعب، وما كان هذا ليؤرقنا كثيرا، فالفقراء يسهل السيطرة عليهم، وتأثيرهم في نهاية الأمر بسيط؛ ولكن أن يـــصل تأثير الدعاة إلى طبقة الأغنياء وأصحاب النفوذ، فهذا أمر خطير لا ينبغي السكوت عليه!"

– "نقتله إن أردت!"

أخذ اللورد ماير نفسا عميقا من سيجاره، وهو يهز رأسه وعلى وجهه ابتسامة سخرية من الاقتراح الذي سمعه.

– "كمال، اقتراحك هذا هو أفضل طريقة لنشر دعوة وسيم باسم بـــين الـــناس. أقتله لكي يتحول إلى شهيد، فيظهر مائة داع من بعده يحملـــون لـــواءه، ويدعون إلى دعوته. لا، هناك طرق أخرى أكثر فاعلية للتعامل مع أمثاله؛ طرق تُقَوِض دعوته، وتخدم مصالحنا في الوقت نفسه."

– "تُقَوِض دعوته وتخدم مصالحنا؟ كيف؟"

– "ارفـــع من شأنه، وأعطه كل ما يشتهي، وزد. اجعله يتذوق مفـــاتن الحـــياة من شهرة، ومن مال، وجاه، إلى أن يتعلق قلبه بها، وعـــندئذ سيُـــسقِط هـــو نفسه بيده، وحينها سيصدم كل من تأثر به، وسيفقدون الثقة بدعوته، وبكل دعوة مشابهة."

– "يـــا لهـــا من خطة شيطانية!" تمتم كمال في سره، وقد رسم

على وجهه ابتسامة إعجاب لِما سمع، ثم سأل اللورد ماير:

– "ماذا تريدني أن أفعل على وجه التحديد؟"

– "أنــت شريك في مجموعة من القنوات الفضائية منها الناطق باللغة العربية، لماذا لا تنشئ قناة ثقافية إسلامية، وتجعل وسيم باسم يــتولاها، فينتشر أكثر من خلالها، وبذلك يكون إنتشاره من خلالنا، وتحت سيطرتنا."

– "ولكــن قنواتي كلها غنائية، فهل تعتقد أنه سيقبل العمل معي إن أنشأت له قناة خاصة إسلامية."

– "نعم أعتقد ذلك، ففرصة مثل هذه ستجعله يغض البصر عن باقي القنوات التي تمتلكها."

– "وماذا عن فؤاد شوكت، ماذا تريدني أن أفعل به؟"

– "لا شيء، قد توليت أنا أمره."

أقــبل اللــورد ماير نحو كمال، ثم جلس على أريكة مجاورة، وأشــار عليه بالجلوس مقابله؛ نظر في عيني كمال نظرة حادة جعلته على الفور يدرك أن ما سيقوله هو صلب موضوع الاجتماع.

– "كمال... المعلم الأكبر أعطانا الضوء الأخضر!"

– "تقــصد... تقصد... انتهاء المرحلة!" لم يتخيل كمال أن هذا اليوم سيحضر في أثناء حياته.

– "نعــم، لقد أخبرت باقي جماعات تحالف بولدربخ بالتفاصيل التــي حــددتها جماعة أبناء حَدَاد... الموعد كما هو، مدينة حَدَاد في عيد ميلاده القادم."

– "أخيرا بعد طول انتظار! كدنا نظن أن هذا اليوم لن يأتي!"

انتهــى الاجــتماع وغادر كمال أغلو القصر، بعدما تلقى الخبر الذي عاش طوال حياته ينتظر سماعه!...

* * *

علـــى بعـــد مئات الأمتار وضع رجب غول هاتفه الجوال في جيـــبه، بعـــدما سمع ما لم يكن من المفترض أن يسمعه مخلوق على وجه الأرض. في لحظة تبادر إلى ذهنه خطاب جده نجم الدين الذي عثر عليه في لبنان منذ أكثر من ثلاث سنوات. أخذت الأمور تتضح له، وأخذ يدرك السبب الذي أوجب التخلص منه، ومن كل من اطلع علـــى ذلـــك الخطـــاب الـــذي وصف فيه جده ما شاهده قبيل مقتله، وهاهـــوذا الحفـــيد يختلس السمع بعد قرن من الزمان وكأن القدر قد اختار أسرة غول دون غيرها لأداء هذه المهمة.

* * *

علـــى بعد عشرات الكيلومترات في الجانب الشرقي من شمال بحيـــرة الأفعـــى الـــواقعة في حديقة الهايدبارك، كان مجموعة من مخبري قسم الجنايات بالسكوتلانديارد وضباطه يقومون بعملية حفر موســـعة. اقتـــرب الضابط الشاب من الملازم جونثان، وعلى وجهه معالم الدهشة.

– "سيدي، كيف عرفت أننا سنجد رفات جثة هنا؟!"

– "من هذه الرسالة التي تلقيتها صباحا." أخرج ورقة من جيبه، ثم ناولها للضابط الشاب الذي أخذ يقرأ ما فيها:

"عند الضفة الشرقية من بحيرة الأفعى، مقابل تمثال بيتر بان، ستجد ما تبقى من دلال رحال!"

9

خرج نعيم الوزان من السيارة التي أقلته من مطار دبي الدولي إلـــى فندق الجميرا، وهو يتأمل فخامة وغنى المكان الذي كان أغلب المـــتواجدين فيه من الأوربيين، مع قليل من الخليجيين. تغيرت دبي علـــيه منذ آخر مرة زارها قبل سنوات عديدة. فلم يكن الفندق الذي نـــزل فيه قد أقيم ولم تكن منطقة الجميرا بها هذا التنوع من الفنادق، والأسواق، والمنتجعات. وحتما لم تكن الجالية الأوروبية بهذه الكثافة، حيث لم تقتصر فقط على العاملين من الجنسيات الأوروبية الشرقية، ولكن كان هناك الكثير من أغنياء روسيا الذين أتوا إلى دبي سياحة، هاربين من شدة برودة بلادهم إلى دفء شواطئ الخليج العربي.

أقـــبلت امـــرأة جمـــيلة، ممـــشوقة القوام، كانت ترتدي العباءة الخليجـــية التقلـــيدية مع طرحة سوداء لا تغطي سوى نصف رأسها، لتخرج من تحتها غرة كثيفة من شعرها الأسود المصفوف...

اتجهت نحو نعيم فور دخوله البهو الكبير، وقالت مرحبة:

- "أهلا بك في فندق الجميرا، هل تود التسجيل؟"

أدرك نعـــيم علـــى الفـــور من لهجتها الخليجية المصطنعة أنها ليست من أهل البلاد.

- "شكرا، لدي حجز."

- "إذاً تفضل معي، وسأقوم بخدمتك."

تـــبع نعيم المرأة إلى مكتب في الزاوية للتسجيل. أشارت عليه بالجلوس ثم طلبت منه جواز السفر.

- "أنـــت ســـعودي؟" قالت بلطف، وهي تنظر إلى جواز سفره الأخضر.

– "نعـــم، وأنت على ما يبدو من المغرب. من مدينة فاس أليس كذلك؟"

نظرت المرأة بدهشة إلى نعيم، وكأنها تتساءل عن كيفية معرفة هذا الرجل، الذي لم تلتق به من قبل، لمسقط رأسها بهذه الدقة.

– "لقـــد زرت مدينة فاس عدة مرات... مدينة جميلة وعريقة. الغـــريب أن الكثيـــرين لا يدركـــون أن بفاس أقدم جامعة في العالم، جامعـــة القـــرويين، وأن امرأة اسمها فاطمة الفهرية هي التي قامت بتأسيـــسها من مالها الخاص!... هل تعلمين أن مدينة فاس كانت إلى مدة قريبة هي عاصمة المغرب، وأن الفرنسيين هم من قاموا بتغيير العاصمة إلى الرباط، بعد احتلالهم للبلاد."

– "ولكن كيف عرفت أني من فاس؟" سألت المرأة، مندهشة من هذا الرجل السعودي الذي كان يعلم عن مدينتها أكثر مما كانت تعلمه هي.

– "عرفت من لهجتك أنك مغربية ومن لثغتك لحرف الراء أنك مـــن مديـــنة فـــأس. أهل فاس مشهورون بلثغتهم لحرف الراء على خلاف باقي أبناء المغرب."

ابتسمت المرأة لملاحظة نعيم الذكية، وكادت تقول شيئا، ولكنها تراجعت في آخر لحظة، وقد لاحظ ذلك نعيم.

– "يبدو أن هناك شيئا على بالك تريدين قوله."

– "نعم... ولكن لا أعتقد أنه من اللائق..."

– "لا عليك، تفضلي... ماذا أردت القول؟"

– "أغلـــب مـــن تعرفت عليهم من السعوديين، سواء هنا أو في بـــاريس، حيث كنت أقيم، لم يتجاوز حدود معرفتهم بالمغرب سوى ملاهي كاسابلانكا... أنت... أنت يبدو عليك أنك مختلف."

– "هناك الكثيرون من السعوديين ممن يهتمون بأكثر من مجرد ساعات اللهو. أنا لست فريدا من نوعي تأكدي من ذلك؛ ربما أنت لم

تـــصادفي ســـوى الباحثين عن المتع الرخيصة." فجأة تنبه نعيم إلى جملـــته الأخيـــرة التي شعر أنها قد أهانت موظفة الاستقبال دون أن يقصد.

– "عفوا... أنا لم أقصد أنك أنت..."

– "لا علـــيك... تفضل، ستكون في الغرفة رقم ست مئة وستة وســـتين. أتمنـــى لك إقامة طيبة." قالت موظفة الإستقبال وهي تناول نعيم بطاقة الغرفة...

اســـتلقى نعيم على السرير فور دخوله لغرفته في طابق رجال الأعمال. أخذ يتأمل السبب الذي أتى به إلى منطقة الخليج، بعد ثلاثة أعـــوام من مغادرتها..." يالليتاريخ الذي يعيد نفسه بشكل أو بآخر!... تـــركت المـــنطقة لأسباب تتعلق بموت الدكتور عبد القادر بنوَزّاني، وحكومة الظل، وها أنا ذا أعود لنفس الأسباب." ولكن حاله الآن ليس كمـــا كـــان قبل ثلاثة أعوام، قبل أن يرى ما لم يكن يراه الكثيرون، وقـــبل أن يـــدرك مـــا لم يدركه سوى القليلين. كم تغيرت حياته في الـــسنوات الماضية منذ وفاة أستاذه الدكتور عبد القادر الذي اكتشف جانـــبا من حياته، لم يكن يعلم عنه شيئا مما أدى إلى اكتشاف تاريخ كان مطموسا عنه، يخص جده خليل الوزان الذي كان أحد القادة في جماعـــة لا يعلم عن وجودها سوى كبار العاملين بها. أخذ يفكر في المـــدة الوجيـــزة التي كان جزءا فيها من جماعة العروة الوثقى بعد اكتشافه لها، ولعلاقة جده، والدكتور عبد القادر بها. استطاع أن يفعل مـــا لم يستطع أحد غيره أن يفعل منذ تاريخ نشأة الجماعة. ربما هذا مـــا أثـــار ريبة قادتهم منه، وحثهم على أن ينضم لهم، وهو الذي لم يتـــربّ منذ صغره على أن يكون جزءاً من الجماعة، كما كانت هي عادة المنتسبين، ممن أعدوا لكي يتقلدوا مناصب قيادية في المستقبل. ولكـــن انـــضمامه للجماعة لم يدم طويلا بسبب تفكيره المستقل، وما عـــرف عنه من التساؤل عن كل ما كان يقبل من قبل الآخرين دون

تساؤل. ولكن ها هي الجماعة، بعد أقل من عام منذ أن طلب منه أن يتركها وأن ينسى أمرها، تعود هي للاستعانة به..." يبدو أن الخطاب الـذي وجـده الدكـتور عـبد القادر يؤرقهم بشكل كبير." أخذ يفكر نعيم..." ولكن لماذا كل هذا التكتم على باقي ما جاء في الخطاب؟... يطلبون مني المساعدة، ثم لا يعطونني سوى القليل من المعلومات!"

قطع رنين الهاتف حبل أفكار نعيم الذي تذكر أنه على موعد مع ثابت البغدادي، الشخص الذي سيكون همزة الوصل، بينه وبين جاسم الفراج، الذي آثر ألاّ يكون ظاهرا في الصورة.

– "السلام عليكم أخ نعيم، أرجو ألاّ أكون قد أيقظتك من النوم." أتى صوت من الهاتف ذو لكنة عراقية واضحة.

– "لا أبـدا، بل كنت أنتظر مجيئك. دقيقة واحدة، وسأنزل إليك في بهو الفندق."

* * *

جلـس نعـيم مع الشاب العراقي المهذب، الذي كان في عمره نفـسه تقـريبا، فـي أحد مقاهي الفندق. كان هذا هو أول لقاء يجمع بيـنهما، ولـو أن ثابـت البغدادي قد سمع بنعيم، مثله في ذلك مثل الكثيرين من أعضاء جماعة العروة الوثقى.

– "أنـا حقـا ممنون لهذه الظروف التي جعلتني ألتقي بك أخ نعيم... لقد سمعت عنك الكثير، وكم اشتقت إلى اللقاء بك... كما تعلم سأكون مرافقا لك هنا في دبي. إذا احتجت إلى أي ترتيبات، فكل ما عليك هو أن تأمر."

– "مـا يأمـر عليك عدو. أعتقد أن المسألة لن تطول، فغدا إن شـاء الله سـأقابل طلعت نجاتي، وأنهي معه المسألة التي قدمت إلى دبي من أجلها، ثم أغادر."

– "إذاً هل رتبت معه اللقاء؟"

– "نعـــم، لقـــد حدثـــته من كوالالمبور، ورتبت معه اللقاء عبر الهاتـــف. يـــبدو أنه قد تصادف في دبي حاليا مهرجان للإعلام. فقد أصر طلعت ان أحضر معه غدا الحفل الختامي، وتوزيع الجوائز."

– "المهـــرجانات في دبي أصبحت طوال العام، لذلك وجدنا لك الحجز في هذا الفندق بصعوبة. فالمدينة مكتظة بالإعلاميين والفنانين مـــن كافـــة أنحاء العالم. يقال إن هذه السنة سيتم الإعلان في الحفل الختامـــي عـــن إنـــشاء قـــناة إســـلامية ثقافية جديدة ستكون بمثابة المفاجأة... على العموم هذا رقمي إن احتجت لأي شيء."

صافح ثابت البغدادي نعيم، ثم غادر الفندق.

فـــي تلـــك الأثناء، على بعد أمتار قليلة، تنبه رجل كان يجلس برفقة الفنانة الشهيرة، وضيفة المهرجان، سمر القلوب، إلى أمر ظنه يستدعي إجراء مكالمة عاجلة.

– "عفوا سمر، أستأذنك لدقيقة واحدة فقط."

– "إلى أين، لا تتركني وحدي." قالت سمر لرفيقها الذي كان قد غادر المقهى، تاركا وراءه حرسه الخاص؛ لكي يمنعوا أية مضايقات قد تتعرض لها فنانة لها جماهيرية كبيرة مثل سمر القلوب...

أخـــرج الرجل جواله، بعدما ذهب إلى ركن هادئ بالفندق، لا يتواجد فيه أحد، ثم أخذ يدق على الرقم المقصود.

– "مـــساء الخيـــركمال، حاولت الاتصال بك منذ عدة أيام، بعد اتصالك بي مباشرة، ولكن كان جوالك يتصرف بطريقة غريبة."

– "نعم، يبدو أنني عن طريق الخطأ قد غيرت من طريقة التقاط الجوال للمكالمات... على العموم سمير، ماذا تريد، فأنا جدا مشغول الآن." قال كمال أغلو، باديا على صوته الإستعجال.

– "كنت أريد التحدث إليك بخصوص بعض التفاصيل الخاصة بالقـــناة، ولكـــن جَدّ للتو أمر أردت إطلاعك عليه." قال سمير رحال بتوتر بدا جليا على نبرات صوته.

- "أقلقتني يا رجل! ماذا لديك؟"

- "نعيم الوزان... رأيته للتو هنا في دبي!"

- "مـــاذا؟!..." ســـاد صمت استمر لعدة ثوان، وكأن كمال كان يحاول استيعاب ما سمعه للتو..." هل أنت متأكد؟"

- "طـــبعا متأكد! وإلا ما كنت تركت سمر القلوب بمفردها في المقهى؛ لكي أحادثك."

- "لا أدري إن كانت هذه مجرد مصادفة، أم أن هناك أمرا ما يرتب له ذلك الوغد... على العموم حسنا فعلت أنك أخبرتني."

- "هل تريدني أن أفعل شيئا؟"

- "لا... التفت أنت للأمور الأخرى... أما نعيم الوزان فسأتولى أنا بنفسي أمره!"

10

كان الحفل الختامي لمهرجان الإعلام، في الليلة التالية، حدثا لم تشهد مدينة دبي له مثيلا. كان عرسا أشبه بأعراس ألف ليلة وليلة، تجمع فيه أصحاب، السعادة وأصحاب المعالي، وغيرهم من نجوم المجتمع الخليجي والعربي وعلية القوم؛ ما كان بمقدور أحد أن يدخل قاعة الاحتفالات الكبرى إن لم يكن معه بطاقة دعوة، كتلك التي كانت مع نعيم الوزان الذي شعر لوهلة، كما لو أنه انتقل عبر المحيط إلى مدينة هوليوود، وأنه لم يعد في مدينة خليجية في منطقة يتفاخر أهلها بأنهم من أكثر شعوب العالم محافظة. تذكر في تلك اللحظة، وهو يدخل القاعة الممتلئة بأغلى وأثمن الأزياء والمجوهرات، تلك المقولة التي كان دائما يسمعها عن خصوصية المواطن الخليجي. لم يفهم أبدا المقصود بتلك العبارة، فهو اليوم لم يكن يرى أثرا لتلك الخصوصية، بل كل ما كان يراه هو رغبة موحشة في الابتعاد عن أية معالم للخصوصية المزعومة التي بدت، وكأنها مرفوضة من قبل الحاضرين.

– "نعيم الوزان! لوهلة خفت ألاّ تأتي، فلا أراك." قال طلعت نجاتي، وهو يعانق نعيم مرحبا به.

– "كيف لا آتي، ألم أعدك عندما زرتني في كوالالمبور، منذ عام، بأن المرة القادمة أنا الذي سوف أزورك." قال نعيم مبتسما، ثم أكمل..." ولو أني كنت أتمنى أن يكون اللقاء في مكان أقل صخبا."

– "نعيم، هل تعرف أن هذا الحفل الذي تراه يتقاتل على حضوره كل ذي شأن في العالم العربي."

– "لـــم أكـــن أعلـــم أن مهرجان الإعلام أصبح يشكل كل هذه الأهمية لدى الناس."

– "في الواقع أهمية هذا المهرجان تكمن في أن أحد ضيوفه هي الفـــنانة الفاتـــنة سمر القلوب، ويبدو أن الكل يرغب في رؤيتها عن قرب؛ حتى تزداد البركات." قال طلعت وهو يضحك لجملته الأخيرة، ثـــم أكمـــل..." هـــل تعلم أن في أحد معارض الكتاب تضاعف عدد الحضور خمس مرات، عندما انتشرت شائعة بأنها ستحضره."

– "هي إذاً فنانة مثقفة."

– "لا لـــيس بالضبط، قيل بأنها سمعت عن كتاب في المعرض عـــن قراءة المستقبل لأحد المنجمين المعروفين." كانت نبرة السخرية في الحديث واضحة مما استحقت ابتسامة مؤازرة من نعيم الذي أخذ يمشي وراء طلعت، وهو يقوده إلى المكان المحدد في القاعة.

– "ومـــا هـــو يا ترى ذلك الأمر المهم الذي أردتني فيه؟" سأل طلعت بعدما جلس هو ونعيم.

– "كـــنت أفـــضل الحـــديث في مكان أهدأ." أجاب نعيم، ملتفتا حوله.

– "مـــع الأسف، أنا، كما أخبرتك، سوف أسافر غدا صباحا في رحلـــة عمل قد تطول، لذلك فضلت أن أراك الليلة قبل سفري؛ على العمـــوم هناك فاصل في منتصف الحفل، نستطيع التحدث أثناءه في الحديقة المجاورة."

بدأ الاحتفال ثم أخذت سمر القلوب تعلن عن أسماء الفائزين في مـــسابقة المهـــرجان، والذي كان طلعت نجاتي أحدهم، بصفته مدير أفضل قناة إخبارية لتلك السنة. استمر توزيع الجوائز، حتى أتى وقت الإعلان عن جائزة شخصية العام الإعلامية.

– "الكـــل يعلـــم لمَـــن ستمنح هذه الجائزة." قال طلعت بصوت منخفض لنعيم.

- "لمن؟"

- "ســمير رحال... من غيره، فالرجل يمتلك إمبراطورية من القنوات الفضائية."

- "سمير رحال..." ردد نعيم مبتسما.

- "يبدو أنك تعرفه."

- "نعــم... كانــت ســتربطني به علاقة مصاهرة منذ خمس سنوات، ولكن لم يحدث نصيب."

التفت طلعت نحو نعيم، وقد فوجئ بما قاله الأخير.

- "من تقصد؟ ابنته دلال؟"

- "نعــم هــي؛ خطبتها ولكنّنا افترقنا بعد أشهر قليلة... ولكن مهلا، من أين تعرفها أنت؟"

- "من أين أعرفها!" ردد طلعت، مستغربا هذا السؤال..." ومن لــم يــسمع بهــا... اخــتفاؤها منذ ثلاثة أعوام كان الشغل الشاغل للصحافة العربية حينذاك."

- "إختفاؤها!... ماذا تقصد؟"

- "كــان حادثــا مــؤلما، اختفت في لندن، وهي تقضي شهر العــسل. قيل فيما بعد بأنها اختطفت من قبل سفاح لندن الذي اشتهر باخــتطاف النــساء فــي وضح النهار، فمع الأسف حتى الآن لم يتم العثور عليها، أو على جثتها."

- "جثتها!"

- "نعــم جثتها؛ فإن كان سفاح لندن هو الذي اختطفها، فأغلب الظن أنه قد قتلها بعدما فرغ منها."

- "لا حــول، ولا قــوة إلا بالله... لم أسمع بهذا الخبر إلا منك الآن... ما كنت أتمنى لها مثل هذه النهاية." قال نعيم، وقد ظهر على صوته التأثر لما سمع...

– "والآن سيداتي آنساتي، جائزة الشخصية الإعلامية لهذا العام تمنح لرجل الأعمال الكبير، الشيخ سمير رحال."

علت الأصوات مهللة لهذا الفوز، وقام أغلب الجالسين مصفقين لسمير رحال الذي اعتلى مسرح الحفل؛ ليستلم الجائزة، ويلقي بكلمته:

– "شكرا!... شكرا!"

استمر التصفيق والتهليل قرابة الخمس دقائق في ظل ابتسامة بهجة عريضة رسمت على وجه سمير رحال الذي أخذ يشير للحضور بالجلوس.

– "أود بادئ ذي بدء أن أشكر اللجنة المنظمة على هذا التكريم الذي لم يخطر أبدا على بالي..."

– "حلوة ***لم يخطر على بالي***، الرجل يكاد يكون اشترى الجائزة بنفوذه، وأمواله." قال طلعت بصوت خافت.

– "لا شك أننا في مجموعة قنوات الشمس قد بذلنا كل ما بوسعنا من أجل الإسهام في إثراء الساحة الثقافية في العالم العربي..."

– "**يقصد ثقافة الهشك بشك**." إستمر طلعت في تعليقاته الساخرة، موجها حديثه لنعيم.

– "وبث روح النهضة من خلال أرقى الفنون..."

– "**أرقى الفنون!**... منذ متى كانت سمر القلوب أرقى الفنون... أحيانا يهيأ لي أنه لا يشاهد ما تبثه قنواته، أو ربما يعتقد أن المثقفين قد اندثروا، ولم يعد هناك غير البلهاء."

– "وإني بهذه المناسبة أعلن عن إنشاء قناة شمس الإسلامية الثقافية، والتي سيديرها الداعية المعروف وسيم باسم!"

شعر طلعت بشيء من الدهشة، وهو يستمع إلى نبأ إنشاء قناة إسلامية من قبل سمير رحال، الذي كان يعتبره من أكثر الناس

مسؤولية عن تتفيه العقل العربي من خلال قنواته الاستهلاكية، التي تبث أردأ أنواع الفنون المعتمدة على الأغاني الهابطة، والنساء شبه العاريات، والأفلام التافهة الخالية من أي مضمون.

- "الذي لا أفهمه، كيف كنت ستصاهره في يوم من الأيام، وأنتما النقيضان." قال طلعت وهو يقود نعيم إلى خارج القاعة، بعدما انتهت الفقرة الأولى من الحفل.

- "ألم تسمع بقانون انجذاب الأضداد!" قال نعيم مبتسما، ثم أكمل حديثه بعد لحظات من استرجاع ذكريات قد نسيها..." كانت أجمل فتاة رأيتها في حياتي... مليئة بالحياة... شديدة الذكاء. تعرفت عليها قبل أن أراها من خلال أحد المنتديات الثقافية التي كنت أكتب فيها. راسلتني وأعربت عن إعجابها بما كنت أكتب؛ كانت تناقشني في بعض القضايا التي طرحتها، وشيئا فشيئا أخذت العلاقة تتوطد وأصبحت تستشيرني في مختلف أمور حياتها، لم تكن راضية عن حياتها الأسرية المفككة. أبوها كان قد إنفصل عن أمها وهي صغيرة، وكل منهما تزوج، وأراد أن يبدأ حياة جديدة، متناسيا الماضي وتبعاته، وكأن تبعات الماضي هو رهن لإرادة الإنسان، يُبقي عليه، أو يمحوه كيفما يشاء أو يحلو له... تقدمت لخطبتها دون أن يعنيني تفكك أسرتها، لشعوري بأن في داخلها بذرة طيبة تبحث عن أرض خصبة، ولكن..." صمت نعيم، ولم يكمل.

- "ولكن ماذا؟"

- "أدركت أن الإنسان الذي يركن عقله، وينقاد وراء مشاعره هو كالراكب في مركبة يقودها سائق أعمى... عاجلا أم آجلا سيكون مصيره الاصطدام!"

اكتفى نعيم بهذا الحد من الحديث عن ماضيه مع دلال ابنة سمير رحال، وشعر أن الوقت قد حان؛ لكي يفاتح طلعت في

الموضوع الذي جاء من أجله... فلم يعد لذلك الماضي الآن، في هذه اللحظة مكان!

* * *

- "أرجوك نعيم، اصرف نظر عن دانيال جولد، أرجوك!"

- "أنت تعلم جيدا أني لا أستطيع." قال نعيم بإصرار واضح.

- "متى ستتجاوز هذا الموضوع يا نعيم؟ متى ستنسى فؤاد شوكت، وحكومة الظل، وتلتفت لحياتك... التفت لعملك واتركك من كل هذا! يا أخي، إن كنت ترغب في البحث، فمن الأجدى أن تبحث لنفسك عن زوجة تنشئ معها أسرة سعيدة!... دعك من دانيال جولد، وما حدث لزوجها موشي... هل ترغب في أن تكون نهايتك مثل نهايتهما، ونهاية أستاذك الدكتور عبد القادر؟!"

- "ما الذي حدث لك يا طلعت؟... أنت الذي تقول هذا!... أنت... الصحفي الذي كرس حياته للبحث عن الحقيقة... ما هو الحل الأمثل في نظرك؟ نستسلم؟ نلحق بقافلة الجهل، ونجعلها تأخذنا إلى حيث شاءت؟ هذا هو الحل الآمَن أليس كذلك؟ و"طز" في الحقيقة! دعها غائبة مغيبة، ودع الآخرين يفعلوا بنا ما يشاؤون حيثما يشاؤون، ودعنا نحن نربي "العيال" حتى يصبحوا خانعين مثلنا!"

شعر طلعت في تلك اللحظة بذكرى قيم قديمة قد تحركت؛ ولكن على الرغم من قناعته بما قاله نعيم، إلا أنه كان قد أدرك أن المحارب فيه قد تقاعد تقاعدا مبكرا.

- "نعيم... لدي زوجة وأطفال أنا المسؤول عنهم... أنا أقدر فيك إخلاصك وحماسك في البحث عن الحقيقة، ولكنك تواجه قوة كبيرة لا قدرة لك عليها. فهم لديهم من الإمكانيات ما يفوق تصور أي شخص، وثق بأنهم لو شعروا للحظة أنك تشكل تهديدا خطيرا لهم، لقضوا عليك؛ تماما مثلما فعلوا مع غيرك... نعيم لا تغتر بما لديك

من أموال وأصدقاء نافذين. صدقني هذا لا يساوي نقطة في بحر ما لديهم من إمكانيات... ما كشفناه أنا، وأنت منذ ثلاثة أعوام عنهم، لا يشكل سوى رأس جبل الثلج، وما هو مدفون تحت الماء أكثر بكثير!" قال طلعت، وقد لاحظ نعيم في عينيه نظرات خوف لم يشهدها فيهما من قبل.

– "طلعت، ما الذي تخشاه؟ ما الذي تعلمه، ولا تريد إخباري به؟"

نظـــر طلعت حوله وكأنه كان متخوفا من وجود أحد يراقبهما، ثم قال:

– "مع الأسف أرى في نظرات عينيك ذلك الإصرار نفسه الذي لمحته فيهما منذ ثلاثة أعوام، عندما تقابلنا لأول مرة... أنا متأكد أنه لـــن يثنيك شيء عن المضي في طريق بحثك هذا... ولكني آسف يا نعيم، فلن أستطيع أن أرتب لك مقابلة مع دانيال؛ لأنها قد بدأت حياة جديـــدة، ولا تـــرغب في أن يكون لها أية علاقة بالماضي؛ ولكن ما أســـتطيع فعلـــه لمـــساعدتك فـــي مشوارك هذا، وذلك فقط من أجل الـــصداقة التي تربطنا، هو أن أخبرك بما قالته لي عندما التقينا بعد حادثة وفاة زوجها موشي."

مـــرة أخرى تلفت طلعت حوله، وكأنه كان يخشى من وجود متلصص يسترق السمع، ثم بصوت منخفض أخذ يقص على نعيم:

– "قـــبل وفـــاة موشـــي بشهرين، تعرفت دانيال على رجل في إحـــدى الـــسهرات التي كانت مدعوة لها في مدينة تورنتو، ونشأت بينهما علاقة من وراء زوجها. توطدت تلك العلاقة، لدرجة أنه أقنعها بالهـــروب مـــن زوجها، والذهاب معه إلى الإسكندرية، حيث يعمل، وقـــام بتـــرتيب رحلة بحرية في إحدى سفن رحلات البحر الأبيض المتوسط... كانت دانيال في قمة سعادتها مع ذلك العشيق الذي أنساها زوجهـــا وحياتها السابقة، التي رمتها من وراء ظهرها، وأصبح جل تفكيـــرها فـــي جاك؛ لكن فجأة، في إحدى ليالي السفينة، حاول جاك

قــتلها، ولكــنها إستطاعت أن تنجو منه بأعجوبة وطرحته قتيلا في كابينة السفينة، أو هكذا ظنت... المهم أنها بعدما خرجت من الكابينة، وقــد أصـــابها الهلـــع، ذهبت لتبحث عن المساعدة، فعادت مع أحد الملاحين ولم تجد أي أثر لجاك."

– "تقصد أن جاك لم يمت كما كانت تعتقد دانيال؟"

– "لا... أقصد أنها لم تجد أي أثر لجثة جاك، أو أي دليل على أن صراعا دار في الكابينة، وكأن شيئا لم يكن."

– "غــريب!... هــذا إذا يعني شيئا واحدا." قال نعيم، وقد بدأ يدرك ما كان طلعت يلمح إليه.

– "أن جـــاك كان يعمل من ضمن مجموعة دبرت لقتل دانيال بهذا الشكل، وهذا التوقيت بالذات!" أضاف طلعت.

– "توقيت قتل زوجها موشي!"

– "بالــضبط!... موشي قتل، ولكن اللذين قتلوه جعلوه يبدو كما لــو أنـــه انتحر بسبب هروب زوجته، ثم حاولوا بعد ذلك قتل دانيال لإخفـــاء أي أثـــر لخطتهم... وهذا ما بدأت تدركه هي، ولذلك عندما عـــادت إلـــى تورنـــتو قررت بيع منزلها، وتصفية كل أعمالها، ثم الاختفاء بعيدا عن كندا."

– "ولكنـــي أذكر أنك أخبرتني فيما مضى بأنها قد اتصلت بك، أليس كذلك؟"

– "هذا صحيح."

– "إذاً ما الذي اكتشفته دانيال فيما يخص موشي، وكان له صلة بك؟"

ابتـــسم طلعت مقدرا لنعيم حنكته وانتباهه الشديد للتفاصيل الذي كان دائما يقوده إلى استنتاجات عادة ما تكون صحيحة.

– "كـــان لموشي خزنة سرية لا يعلم بوجودها، أو بمكانها أحد آخـــر سوى دانيال؛ كان يضع فيها أهم أوراقه والجزء الحساس من

مذكـــراته، ولكـــن عندما فتحت دانيال الخزنة وجدتها فارغة إلا من ورقـــة واحدة كانت لإيصال طرد بريدي..." صمت طلعت برهة ناظرا إلى نعيم، ثم أضاف.." كان اسم المرسل إليه على الإيصال هو اسمي."

– "وهل وصل إليك هذا الطرد؟!" سأل نعيم، وقد ملأه الحماس.

– "لا، فالعنوان الذي كان على الطرد لم يكن عنواني!"

– "ماذا؟!!"

– "يـــبدو أن موشـــي وضع اسمي فقط من باب التمويه، ولكن عنوان المرسل إليه قطعا لم يكن عنواني!"

– "إلـــى من إذاً أرسل موشي أوراقه المهمة؟ هل ما زلت تذكر العنوان؟"

– "نعيم! اسمع نصيحتي واصرف النظر عن هذا الموضوع كما فعلـــت أنا... هناك خطوط حمراء لا يستطيع أحد تجاوزها!... انظر ما الذي حل بالذين حاولوا!"

– "أريد العنوان!... رجاء!... هل ما زلت تحتفظ به؟" طلب نعـــيم بإصـــرار كـــان واضـــحا كوضوح سحابة صيف في سماء صافية.

– "العـــنوان ليس معي الآن، هو في البيت. سأرسله إليك عبر رســـالة الجوال... ولكن تذكر أن هذا العنوان يعود إلى ثلاثة أعوام مضت. فمدة مثل هذه كفيلة بأن تغير أشياء كثيرة."

– "ما من شيء يتغير، إلا ويترك أثرا."

– "وأنت خير من يتتبع الآثار، اسألني أنا!" ابتسم طلعت، وهو يتذكـــر الأحـــداث التي جمعته لأول مرة مع نعيم، وقد مضت عليها السنوات بسرعة البرق.

– "طلعـــت... أريد سؤالك عن أمر أخير. هل ذكر لك موشي قبل وفاته أي شيء عن شخص يدعى رجب غول، وبخطاب كان قد وجده؟"

– "رجب غول... لا، لا أعتقد أني..." صمت طلعت قليلا، ولم يكمـــل جملته، حيث تذكر فجأة أمرا كان قد نسيه..." بالفعل، موشي كـــان يعرف صحفيا في إستانبول إسمه رجب غول؛ ولكن أذكر أني سمعت أنه قد مات هو وعائلته في حادثة تصادم... نعيم، الزم الحذر فـــيما أنت مقدم عليه، وتذكر أن بحثك عن الحقيقة قد يكلفك الكثير، وفي النهاية قد لا تجد شيئا سوى الظلام!"

إعـــتذر نعيم عن عدم البقاء حتى نهاية الحفل، ثم صافح طلعت قـــبل أن ينـــصرف، راجعـــا إلى الفندق. أخذت تراوده آخر كلمات صـــديقه، وهو يطل إلى سماء المدينة المظلم عبر نافذة السيارة التي كانـــت تقله. "**قد لا تجد شيئا سوى الظلام.**" أخرج من جيبه الجوال، ثم بدأ يكتب رسالة إلى طلعت:

صديقي العزيز،

أما آن للظلام أن ينجلي، ونور الحقيقة أن يعتلي، ليضيء لنا الطريق، ويضفي بصيصا من الأمل؟

* * *

فـــي فجـــر اليوم التالي بعد فروغه من الصلاة، سمع نعيم رنة هاتفه الجوال، منبهة بقدوم رسالة:

عزيزي نعيم،

العنوان الذي طلبته مني هو

150 شارع هنتنجتون، مدينة بوسطن الأمريكية.

تـــركت لـــك إيصال الطرد، الذي تركه موشي في خزنته، مع موظف الاستقبال. لا أدري لماذا احتفظت به كل هذه الاعوام. ربما لأني اشتقت لذكرى باحث عن الحقيقة قد روضته الأيام.

أتمنى لك التوفيق فيما تبحث عنه.

طلعت.

11

إن كانـــت هـــناك قاعدة تقول بأن اسم الشخص في الغالب ما يكون عاكسا لصفات صاحبه، فحتما رحيم هو الاستثناء لتلك القاعدة، فالرجل هو أبعد ما يكون عن الرحمة؛ بل إن نجاحه الأسطوري في مهنـــته اعـــتمد اعتمادا كليا على نزع كل ما يمت للرحمة من قلبه، لدرجـــة أن نكتة كانت قد انتشرت في أوساط حكومة الظل بأنه من الأضمن أن تراهن على أن يلين الصخر من أن تراهن على أن يلين قلـــب رحـــيم؛ وربما يكون هذا هو ما جعل منه آلة ترصُّد وقتل من الطراز الأول. كان إذا أوكلت إليه مهمة، كتلك التي أُوكلت إليه الآن، يتأنى في إنجازها؛ حتى يهيئ لها كل الظروف المناسبة؛ لكي يضمن لها النجاح؛ ولذلك لم يفشل قط، أو هكذا كان يعتقد!

* * *

اقترب رحيم من موظفة استقبال طابق رجال الأعمال في فندق الجميـــرا مرتديا "الشورت" يعلوه قميص قصير الأكمام وحول رقبته منشفة من مناشف الفندق.

– "كيف حالك رنا وكيف حال خالد؟"

– "الحمد لله بخير، نشكر الله." أجابت رنا، وهي تحاول أن تتذكر مـــن يكون هذا النزيل بالفندق الذي يعرف اسمها واسم زوجها، والذي يـــبدو، من طريقة كلامه معها، أنها سبق وقد قابلته من قبل، ولكنها لم تستطع أن تتذكر متى..." ومن يستطيع أن يتذكر كل نزلاء الفندق، وهم يتوافدون بكثرة... لا بأس، علي أن أتظاهر بأنني أتذكره؛ جيدا حتى لا يتضايق... لا بد من إرضاء النزيل." أخذت تفكر رنا.

– "تخيلي أن بطاقة دخول الغرفة مرة أخرى لا تعمل. لا أدري ما المشكلة."

– "آسفة جدا! هذا بالفعل يحدث بعض الأحيان... ذكرني برقم الغـــرفة، وســـأعيد برمجة البطاقة على الفور... يبدو أنك قد قدمت لتوك من صالة الرياضة."

– "رقم الغرفة ست مئة وستة وستون."

أدخلت رنا رقم الغرفة في جهاز الحاسب الآلي وخرج لها اسم النزيل..." الحمد لله، أستطيع الآن أن أخاطبه باسْمِه، ولن يدرك أنني لـــم أتعرف عليه في بادئ الأمر." أخذت تفكر، وهي تصنع له بطاقة جديدة.

– "تفضل سيد نعيم... ومرة أخرى أرجو المعذرة على العطل الذي أصاب البطاقة السابقة."

– "لا علـــيك رنا، فهذا الأمر وارد في جميع الفنادق... سلامي لخالد."

أخذ رحيم البطاقة، وتوجه للغرفة رقم ست مئة وستة وستين... في ذات الحين، كانت رنا تحاول جاهدة أن تتذكر المرة السابقة التي تحدثت فيها مع هذا النزيل الذي اسمه على ما يبدو نعيم الوزان!

* * *

دخـــل نعيم بهو الفندق، وكان في استقباله ثابت البغدادي، الذي كـــان شغوفا بمعرفة نتيجة اللقاء مع طلعت نجاتي، وعلى الفور ذهبا إلـــى ركـــن هـــادئ، خالٍ من الناس، ثم أخذ نعيم يقص على ثابت الحـــديث الـــذي دار، والنتيجة التي وصل إليها، والتي كانت على ما يبدو أقل مما كان يصبو إليه ثابت.

– "إذاً مـــع الأسف لم تستطع أن تقنع صديقك أن يرتب لك لقاءً مع دانيال." قال ثابت بنبرة عدم الرضا.

– "ولكـــن في المقابل أخبرني بمعلومات هي في غاية الأهمية. أنا واثق أن موشي قد أرسل مذكراته، وربما أمورا أخرى ذات قيمة إلى ذلك العنوان في..."

– "أخ نعـــيم." قاطع ثابت غير مقتنع بما كان يقوله نعيم..." لا يوجد دليل على هذا الكلام، فما لديك هو مجرد إيصال لطرد بريدي أرسله موشي جولد قبيل وفاته... قد لا يكون لهذا الطرد أية أهمية... إحـــساسي يقول لي بأننا أمام أمر واهٍ لا يستحق عناء البحث... نعم، هذا هو انطباعي عن كل ما قاله طلعت لك."

– "**انطـــباعك!**" ردد نعيم بسخرية..." أتعلم ما هي مشكلتنا؟... مـــشكلتنا أنـــنا نعتمد على الانطباع في حكمنا على الأمور، بدلا من الاعتماد على الدليل، والبرهان، والأخذ بالأسباب."

– "مـــاذا تقصد؟ ألا تؤمن بأن للمسلم فراسة يجب أخذها بعين الاعتبار!"

– "الفراســـة شـــيء مهم، ولكنها غير كافية بمفردها، فهناك أيـــضا العقل والحكمة... وليس من الحكمة أن تحكم على الأمور بـــناء على الانطباع فقط، دون استخدام العقل... والعقل يقول بأنه لـــو لم تكن لذلك الطرد أية أهمية، لما وضع موشي الإيصال في خـــزنته السرية، ولما وضع إسما على الإيصال غير الاسم الفعلي لصاحب العنوان، وكأنه كان يريد التمويه عن الشخص الذي أرسل إليه الطرد؛ حتى لا تصل إليه حكومة الظل إذا ما وقع الإيصال أو الطـــرد في يدها... المنطق يقول بما أن دانيال قد وجدت الخزنة الـــسرية، والتـــي لـــم يكـــن لأي شخص آخر علم بها، خالية من مذكرات موشي، فأغلب الظن أن تلك المذكرات هي محتوى الطرد الذي أرسله."

بـــدأ ثابت يضيق ذرعا من نعيم، ومن أصراره على نقاش أمر بالـــرغم مـــن عـــدم شـــعوره هو بأنه ذو أهمية، مما أدى إلى تأكيد

انطــباعه المسبق بأن التعاون مع شخص مثل نعيم، الذي لم ينشأ في كنف جماعة العروة الوثقى، هو قرار قد جانب الصواب.

- "نعيم... يبدو أنك فعلا تحب المجادلة."

- "**المجادلــة!**" ابتــسم نعيم، وهو يكرر الكلمة..." الغريب في الأمر هو أننا أصبحنا نستخدم هذه الكلمة بمفهوم سيء، مع أن الله - عــز وجــل- استمع من فوق سبع سماوات إلى امرأة كانت تجادل الرســول -علــيه الصلاة والسلام- وقام بإنصافها؛ لأنها كانت على حق... أفليس من الواجب علينا نحن البشر أن نستمع إلى من يجادل، وننصفه إن كان محقا؟!"

لــم يكــن لدى ثابت رد جاهز لحجج نعيم، بل في تلك اللحظة تذكر نصيحة جاسم الفراج له بعدم الخوض في نقاش معه..." الرجل يعــشق المجادلــة، فهو لم يتربَّ على الانصياع لأوامر من هم أعلم مــنه، وأكبــر شأنا؛ لذلك تجده يناقش كل ما يقال. لا تدخل معه في نقاش، وإلا ستتوه في بحور حججه القوية التي يتفنن هو فيها!"

- "على العموم سأخبر السيد جاسم عما دار بينك وبين طلعت، وســيكون القــرار النهائــي له. هذا ما أستطيع فعله، وغدا سأخبرك بالنتيجة."

لــم يمهــل ثابــت نعــيم فرصة للرد، فسرعان ما صافحه، ثم انــصرف وهــو يقــول في خاطره..." يا له من شخص عنيد... كم يعشق الجدال!"

* * *

كانت الأوامر التي تلقاها رحيم واضحة..." فتش في غرفة نعيم الوزان، اخترق حاسبه الشخصي المتنقل، ثم اتصل بي."

بعــد الانــتهاء مــن الجزء الأول من المهمة، التفت رحيم إلى الحاسب الشخصي الذي كان ملقى فوق المكتب، وأزاح منه البطارية؛

حتـــى يـــتمكن من وضع جهاز التجسس الذي لم يتجاوز حجم بذرة اللـــيمون، ثـــم وضع كل شيء في مكانه. بعد ذلك جاء دور الجزء الأخير من المهمة.

- "ألو... هذا أنا... لم أجد شيئا ذا أهمية في غرفته، وقد قمت باختـــراق الحاسب، فأي ضغطة سيضغطها نعيم على لوحة التحكم، ستبث على الفور إلى مركز الاتصال والمراقبة."

- "هل ما زلت في غرفته؟" جاء الصوت من الجوال.

- "نعم... أي أوامر أخرى؟"

- "أحـــسنت... أريـــدك أن تـــراقبه من بعيد، واحذر أن يشعر بـــك... أريد أن أعرف ما الذي عاد به الآن، بعد كل هذه الغيبة... أخشى ألاّ يكون تواجده في هذا التوقيت مجرد مصادفة!"

* * *

فُـــتح بـــاب المصعد في الطابق السادس من الفندق، وهمَّ نعيم بالخـــروج منه، فاصطدم كتفه مع كتف رجل قوي البنيان كان يدخل المـــصعد. نظـــر نعيم إليه، لكي يعتذر، وما كاد يفتح فمه بالحديث، حتـــى تلعثمت الكلمات، وتوقف الصوت في منتصف حنجرته. لم ير نعيم في حياته عينين كهاتين اللتين كان ينظر إليهما. كان فيهما برود شـــديد لم يلاحظه على أي إنسان من قبل وكأنهما كانا جزء من جسد نزع منه الروح! لسبب ما شعر نعيم بغصة في حلقه وأخذت ضربات قلـــبه تتسارع، وكأنه رأى عفريتا من الجن يدخل المصعد، بدلا من رجـــل لم يره قط في حياته. خرج نعيم من المصعد ثم، على تردد، اســـتدار نحو الرجل الذي كان في تلك اللحظة يمد يده اليسرى نحو أزرار المصعد وقد كشف عن وشمة غريبة فوق معصمه على شكل دائرة تتوسطها نقطة... لم تكن تلك العلامة غريبة على نعيم... فهي ذاتها علامة وسط المدينة التي تستخدم في إشارات المرور في كثير

مـــن الـــدول، ولكـــنها كانت أيضا ترمز إلى شيء آخر كان قد مر عليه... ولكن ماذا؟... لم يتذكر...

رن هاتـــف جـــوال نعـــيم في تلك اللحظة. كان المتصل أنور، شريكه الماليزي.

– "نعـــيم، لدي خبر غريب أردت تمريره إليك... محللنا المالي لاحـــظ زيادة كبيرة في شراء أوامر البيع الآجل لأسهم شركة العقار اللبنانـــية فـــي أســـواق المال الأمريكية، مع العلم أن جميع المحللين يتوقعون نموا قياسيا في الأرباح هذه السنة..."

– "ومـــع ذلـــك هناك من يراهن على أن سهم الشركة سيهبط هـــبوطا حادا." قاطع نعيم، وهو يتأمل مغزى الخبر الذي سمعه من أنور.

– "نحـــن نمتلك كمية لا بأس بها من أسهم الشركة... ما رأيك في أن نبيع جزءا منها على سبيل الإحتياط؟" سأل أنور.

– "بـــل تخلـــص مـــن جمـــيع الأسهم... هناك أمر ما مريب يجري... لا داعي للمخاطرة."

انهـــى نعيم المكالمة، وفجاة أخذ يتذكر ذلك الحلم الذي رآه منذ عدة أيام... تلك الجبال... تلك المنازل المتناثرة عليها... تلك الآيات التي كان يتلوها جده...

أخذ يتساءل، هل كان ذلك مجرد حلم؟

12

هــناك فــئة من الناس لا تستطيع تجاوز الماضي مهما حاولت وجاهــدت، إذ تعيــشه في مخيلتها وكأنه واقع يتلاعب بها ويحركها عبــر دروب الــزمن، ومهمــا تظاهــرت بأنها قد تجاوزت أغلال الماضي، فهي في قرارة نفسها لا ترغب إلا أن تكون أسيرة لحياة قد كانت ولم تعد، وكأنها تعتقد أن للإنسان القدرة على إيقاف الزمن عند نقطة من نقاط التاريخ، فلا يتجاوزه وبذلك تحيى تلك الفئة الموهومة اللحظات الجميلة ثانيا... وثالثا... ورابعا... و... ولكن ما لا تدركه تلــك الفئة هو أن الزمن لا يقف لأي أحد مهما كان، وإن لم يستطع الإنسان السير مع الزمان، فالزمان قادر على أن يسير دونه!

* * *

كــان أغلــب المدعويــين إلى منزل فؤاد شوكت، الواقع في حي بيكَنهيل الراقي، هم من الأطباء، والطاقم التمريضي الذين أشرفوا على عــلاج صاحب المنزل الفاخر. وبالرغم من أن بعضهم أبدى شيئا من الامــتعاض لعدم توافر النبيذ والشامبانيا، كما جرت العادة في مثل هذه الحفلات، إلا أن غالبية الحضور كانوا متفهمين للمعتقد الديني الذي جعل فؤاد وزوجته لا يسمحان بدخول الكحول إلى منزلهما.

– "لقــد تغيــر كثيرا فؤاد وزوجته منال؛ كانت حفلاتهما دائما مليــئة بأشهر الفنانين، وأجود انواع النبيذ الفرنسي... لينا، سأخبرك بــسر، ولكن إن سمعتك ترددينه لأي مخلوق سأنكر أني قلت لك أي شــيء." قــال الدكــتور براون مبتسما، وهو يخاطب لينا التي كانت تربطه بأبيها علاقة صداقة قديمة.

– "أعـدك بأني لن أبوح بالسر لمخلوق؛ حتى جمال أنا أضمنه لك." قالت، وهي تغمز إلى جمال الذي كان واقفا بجوارها يستمع إلى الحديث.

– "نحـن أصدقاء فؤاد كنا نسميه الدون جوان المصري، لكثرة علاقاته بنجمات هوليوود."

– "فؤاد شوكت، غير معقول! ولكن كيف؟ يبدو عليه أنه رجل ملتـزم، ويحب زوجته." استفسرت لينا، غير مصدقة ما قاله الدكتور براون.

– "هـذا الآن... كمـا قلـت لـك، لقد تغير فؤاد في الأشهر الأخيرة."

– "تقـصد بعدما أصيب بالسرطان؟" سأل جمال الذي أراد أن يكون طرفا مشاركا في الحديث.

– "لا... بـل حتـى قبل ذلك... أعتقد أنه المد الأصولي الذي يجـتاح العـالم العربـي هذه الأيام. يبدو أن العدوة قد أصابته." قال الدكتور البراون، وهو يضحك لجملته الأخيرة.

– "يبدو أنك تكثر من مشاهدة الإعلام الأمريكي، وبالأخص قناة فـوكس المتطرفة." كان المتحدث هذه المرة هو سعود النجيدي الذي حضر لتوه، والتقط كلمات الدكتور براون الأخيرة.

– "آه... أخيرا وصلت سعود. كنت أسأل عنك."

– "كنت تسأل عني أو تتمنى ألاّ آتي؟"

ضـحك الاثـنان وهما يتصافحان، في حين بدت الدهشة على جمـال لهـذه المـودة التـي كانت تجمع الدكتور براون مع سعود النجيدي، الجراح "المطوع"!

– "مـنذ قلـيل أخبرني الدكتور بيرسون أنه عرض عليك أن تنـضم إلى قسم جراحة الصدر بعد إنتهائك من مدة التدريب، ولكنك رفضت. هل هذا الكلام صحيح؟"

– "نعـم صحيح... لا أعتقد أني استطيع ترك أهلي وأصدقائي فـي الـسعودية والعيش هنا في أمريكا بقية عمري... فبلادي أولى بـي." قال سعود، ثم نظر إلى جمال الذي كانت دهشته أخذت تزداد، خاصة بعد سماعه خبر عرض وظيفة على سعود المطوع، في أرقى مستشفيات بوسطن!

– "سنفتقدك كثيرا عندما تغادر، سعود." ما أن فرغ من جملته، حتـى تنبه إلى وجود رجل أنيق المظهر، رشيق القامة، بالرغم من تجاوزه العقد السادس، كان يخاطب فؤاد شوكت..." بعد إذنكم جميعا هذا جورج روكفلر أريد التحدث معه في موضوع مهم."

انـصرف الدكـتور براون نحو جورج روكفلر، وفؤاد شوكت الـذي ظهر عليه شيء من التوتر، وهو يحادث الضيف الذي حضر فجأة دون دعوة؛ بقي سعود مع لينا، وجمال الذي أبدى عدم الارتياح من وجود الجراح "المطوع".

– "كـيف حالـك جمال، لم أرك منذ عدة أشهر؟... الكل يسأل عنك في النادي السعودي أرجو أن يكون المانع من مجيئك خيرا."

– "مـشغول في المستشفى، وفي بعض الأمور الأخرى." أجابه جمال بامتعاض لم يبذل جهدا لإخفائه.

– "يا سيدي اجعلنا من أمورك الأخرى هذه، ولو مرة واحدة في الشهر من أجل التواصل."

– "إن شـاء الله يكون خيرا... بعد إذنكما أنا ذاهب إلى الخارج لكي أدخن سيجارة."

تـوجه جمـال نحو باب المنزل، في حين شعرت لينا بشيء من الخجـل مـن جـراء سـلوك جمال الباهت تجاه سعود الذي بدا عليه الانزعاج من هذه العداوة غير المبررة التي كان يتلمسها من ابن بلده!

* * *

أشـــعل جمـــال سيجارته، وأخذ يحرقها، وهو ينظر إلى بعض المـــارة الذين لم تخلُ منهم الأرصفة في تلك الليلة الباردة الممطرة، فقـــد كـــان أغلبهم يُمَشُّون كلابهم تمشية المساء في حديقة الحي، وقد وضـــعوا علـــى أنفسهم كل الذخائر الممكنة للحماية من البرد، وهم يقومون بمهمتهم اليومية التي اعتادوا عليها، منذ أن قرروا أن يقتنوا لأنفسهم صديقا وفيا.

ظـــل جمال ينفخ في سيجارته ببطء شديد؛ لكي يتفادى الدخول مـــرة ثانـــية إلى المنزل، وفي قرارة نفسه كان يتمنى أن تخرج لينا وتخبره أنها قد ملت من الحفل وترغب في الإنصراف؛ ولكن الدقائق مـــضت، ولـــم يحدث ذلك الأمر الذي كان يتمناه، وأخذت قشعريرة البرد تتمكن منه، فقرر العودة إلى الداخل على مضض!

رمـــى جمال بسيجارته على جانب الطريق، واستدار عائدا إلى منـــزل فؤاد شوكت، عندما لاحظ شيئا ظنه من الوهلة الأولى خدعة بصرية من ركام ذكريات الماضي التي كانت لا تريد فراقه... على مـــسافة ليـــست ببعيدة، كانت امرأة سمراء، ذات شعر أسود طويل، متجهة نحو سيارة بورش صفراء مرصوفة أمام إحدى المباني. نظر جمال إلى المرأة غير مصدق لما أخذ يتجسد أمام عينيه...

امرأة شديدة الشبه بدلال!

بـــل تكاد تكون هي دلال!... البشرة السمراء... الشعر الأسود الكثـــيف الممـــتد إلـــى الخصر... القوام... "ولكن لا يمكن أن تكون هي!... كيف؟!... لا يمكن!"

قرر جمال الاقتراب من المرأة؛ حتى يتأكد بنفسه أن ما كان يـــراه لـــيس بخدعـــة بصرية يلعبها عليه عقله المشتاق إلى حنين مـــاض مفقود، ولكن مع كل خطوة كان يخطوها كانت ملامح تلك المـــرأة تزداد وضوحا، مؤكدة له مدى التشابه الذي أخذ يصل إلى درجة التطابق!

كاد لوهلة أن يصرخ مناديا "دلال!" عندما سمع صوتا يناديه من الخلف فألتفت نحوه.

- "جمـــال، فـــؤاد ســـقط على الأرض مغشيا عليه!" كانت لينا تصرخ في اللحظة ذاتها التي سمع فيها صوت سيارة الإسعاف قادما مـــن الاتجـــاه نفـــسه الـــذي انطلقت نحوه السيارة البورش الصفراء وبداخلها من قد تكون زوجته المفقودة... دلال!

13

فضل الدكتور بيرسون أن يبقى فؤاد شوكت ليلة في المستشفى تحت الملاحظة، بعدما أسعف من حالة الإعياء التي أصابته في الحفل؛ أصر على أن يُخطر بكل صغيرة وكبيرة تخص فؤاد، دون الرجوع إلى الطبيب المناوب، كما هي العادة المتبعة مع باقي المرضى. اندهش سعود النجيدي من هذا الاهتمام المبالغ فيه من قبل الدكتور بيرسون، خاصة وأن حالة فؤاد كانت مستقرة، ولم تكن تستدعي كل هذا التحرز؛ لكنه عزا الأمر إلى كون فؤاد من أكبر المتبرعين للمستشفى، مما يفرض رعاية فوق العادة!

– "إن كنت لا تثق في الطبيب المناوب، فأنا على استعداد؛ لكي أبقى هنا في المستشفى إلى الصباح، وأتولى بنفسي الإشراف على صحة السيد فؤاد."

– "شكرا لك سعود، ولكن لا داعي لهذا. أنا فقط لا أريد أن يتخذ الطبيب المناوب أي قرار دون علمي، فأنت تعلم كيف أن بعض هؤلاء الأطباء يأمرون بفحوصات لا داعي لها عند أقل شكوى من المريض، وأنا لا أرغب في أن يتعرض السيد فؤاد لمثل هذه الفحوصات التي لا ينتج عنها سوى الإرهاق، دون أدنى فائدة." قال الدكتور بيرسون، مصمما على رأيه.

– "كما تشاء." رد سعود، ثم استأذن في الانصراف.

– "تذكري جيدا.. أي أمر يخص فؤاد لا بد، وأن يتم مراجعتي فيه مباشرة، ودون الرجوع إلى أي طبيب آخر." قال الدكتور بيرسون، مذكرا الممرضة بنبرة حازمة لم يترك لها أي مجال للشك

فـــي رغـــبة جراح الصدر المعروف أن يكون هو الوحيد الذي يتخذ القرارات فيما يخص مريضه المهم!

عـــاد ســـعود بعد مدة وجيزة، وقد نسي هاتفه الجوال في قاعة الأطباء بجناح المرضى المنومين.

-"آه... الحمـــدلله أنك ما زلت هنا. فؤاد يشعر بشيء من ضيق فـــي التنفس. هل يمكنك الكشف عليه؟" قالت منال، زوجة فؤاد، وقد خـــرجت للتو من غرفة زوجها أثناء ما كان سعود متجها نحو قاعة الأطباء.

- "بكل سرور، ولكن دعيني أبلغ الدكتور بيرسون أولا..."

- "لا داعـــي لإزعاجه، أنت تعلم جيدا أن ثقتي أنا وفؤاد بك لا تقل عن ثقتنا بالدكتور بيرسون."

اســـتجاب سعود لطلب منال، ودخل معها لرؤية فؤاد الذي بدا مهموما على غير عادة.

- "ســـلامات أبا وائل... المدام أخبرتني بأنك تشتكي من ضيق في التنفس." قال سعود مبتسما، بعدما جلس على طرف السرير.

- "مـــنال قلقـــة علـــيّ أكثر من قلقي على نفسي... أما أنا فقد ســـلمت أمري لله." قال فؤاد، ثم تنهد تنهيدة طويلة بعدها أضاف..." كم كان بودي أن أنهي أمورا كثيرة أعياني المرض عن إنهائها."

- "إن شـــاء الله ستقوم بالسلامة، وتنهي أمورك المتبقية." قال سعود بنبرة متفائلة محاولا أن يزيح الغم الذي بدا واضحا على فؤاد.

في تلك الأثناء طرق الباب، حيث كانت لينا تستأذن للدخول.

- "ســـلامات... أقلقتـــنا علـــيك." قالت لينا بلطف، وهي تدخل الغرفة، وبجوارها جمال الذي بدا مترددا عند رؤيته لسعود.

- "ممتاز! بما أنه لدينا هنا طبيب أشعة، فما رأيك لينا لو نراجع ســـويا مـــع جمال أشعة الصدر التي أجريت للسيد فؤاد." قال سعود، وهو يغمز لجمال، في محاولة لاذابة الثلج الذي ظهر واضحا بينهما.

– "أيــة أشــعة!... ألم يراجعها الدكتور بيرسون؟" سأل جمال، وقد أخذ بغتة بطلب سعود.

– "سعود، لقد قمت بالواجب وزيادة أنت وباقي زملائك؛ أصبح الوقت متأخرا، وأنتم لديكم استيقاظ مبكر. أريدكم أن تذهبوا لبيوتكم، وتستريحوا..."

– "ما الذي تقوله يا أبا وائل. فنحن راحتنا في الاطمئنان عليك، ثم إن مراجعة الأشعة لن تستغرق وقتا طويلا."

– "وأنا أؤيد كلام الدكتور سعود، خاصة أنه معنا أفضل طبيب مقيم في قسم الأشعة." أضافت لينا؛ لتؤكد ما قاله سعود.

ذهب الثلاثة إلى قاعة الأطباء في الجناح ذاته، لمراجعة النسخة الإلكترونية من أشعة الصدر التي أجريت لفؤاد شوكت. لم يكن جمال متحمــسا لــتواجده مــع سعود، وخاصة أنه كان يشعر بأن كل هذه المجــاملات القادمــة من رئيس النادي السعودي ببوسطن ما هي إلا محاولــة لكسب ثقته قبل أن ينهمر عليه بسيل من المواعظ والنصائح بمــا يجــب، وما لا يجب أن يفعله كمسلم؛ هذا بجانب أنه قد يتطرق أيضا لطبيعة علاقته مع لينا، فيقحم نفسه في أموره الخاصة كما هي عادة "المطاوعة"، عل حسب ظن جمال.

– "لمــاذا تــريدنا مــراجعة الأشــعة؟ ألا تثق بقراءة الدكتور بيرســون؟" قال جمال متذمرا، وهو يستدعي ملف فؤاد على الحاسب الآلي.

– "طبعا أثق بالدكتور بيرسون، ولكن هذا لا يمنع أن نراجعها نحــن أيــضا، حتــى يطمئن قلب فؤاد، فالرجل ثقته بنا كبيرة." رد سعود، شارحا لجمال سبب إصراره على مراجعة الأشعة بنفسه.

– "أنــا أيضا أتفق مع ما تقوله، سعود." قالت لينا، ثم أضافت مــوجهة حديثها إلى جمال، وقد تضايقت من تذمره..." فؤاد شوكت مــن ألطف وأطيب الشخصيات التي قابلتها في حياتي، هو وزوجته

مـــنال؛ ومـــن حقه علينا أن نقضي دقائق معدودة زيادة، للاطمئنان عليه!"

– "لا بأس... لا بأس... يبدو أنني الوحيد الشرير هنا، الذي لا يهتم برجل طيب، مثل فؤاد شوكت... على العموم هذه هي الأشعة، فلنَـــر إن كان هناك ما يثير ال... ما هذا؟!" تنبه فجأة جمال لأمر في الأشعة أصابه بالحيرة.

نظـــر ســـعود هو الآخر إلى ذلك الجزء من أشعة الصدر الذي لفـــت انتـــباه جمـــال، وسرعان ما انضمت لينا هي الأخرى ناظرة، وعيـــناها تنـــتقلان ما بين الاسم الظاهر في شاشة الحاسب لصاحب الأشـــعة وما بين الأشعة نفسها؛ لكي تتأكد أنه لا يوجد لبس أو خطأ في استدعاء الملف الإلكتروني الصحيح.

– "هـــل عـــاد الـــورم مجددا؟" سألت لينا منهية حالة الصمت الممزوجة بالدهشة.

– "يبدو كذلك... ولكن دعيني أستدعي الأشعة التي أخذت لفؤاد قـــبل العملية، ونقارنها بهذه." رد جمال على استفسار لينا، وقد أخذ ينقر بالفأرة على لوحة التحكم بالملف.

– "هـــذه هـــي الأشعة القديمة، في النصف الأيمن من الشاشة، وهـــذه هـــي التي أخذت الليلة، في النصف الأيسر... غريب!" كانت الدهشة واضحة على وجه جمال.

– "هـــذا ليس بورم جديد... ولكن... كأنه هو نفسه!" قال سعود غير مصدق لما كان يراه..." هل أنت متأكد من أن هذه الأشعة هي التي أخذت الليلة؟"

– "نعـــم هي، انظر بنفسك إلى التاريخ المكتوب إن كنت تشكك في قدرتي على استدعاء الملفات الصحيحة!"

شعرت مرة أخرى لينا بالحرج من ردة فعل جمال المبالغ فيها، ثم تساءلت:

– "هل من الممكن أن تكون هذه مجرد رواسب ما بعد العملية، كتجمع للدم مثلا؟"

– "لا... فالرواسب عادة لا تكون بهذا الشكل المتطابق، بل هو الورم نفسه!" أكد جمال، ثم أومأ سعود برأسه، متفقا معه في الرأي.

– "ولكن كيف يمكن لهذا أن يحدث؟ سعود، هل تعتقد أن الدكتور بيرسون أخطأ في العملية واستأصل الجزء السليم من الرئة بدلا من الذي يحتوي على الورم الخبيث؟"

– "لا أدري لينا، فأنا لم أحضر إلا في نهاية العملية، بعدما كان الدكتور بيرسون قد قام بالاستئصال..." فجأة التفت سعود إلى جمال، وقد تنبه إلى أمر كاد يغفله..." جمال قم باستدعاء تقرير مختبر الأنسجة، فهو الذي سيبين إن كان الورم قد استؤصل أم لا."

أخذ جمال ينقر على الشاشة، وخلال لحظات كان الكل يقرأ التقرير.

– "حسب التقرير، العينة كانت تحتوي على ورم خبيث... ربما من الأفضل أن أراجع غدا هذه الأشعة مع الاستشاري، قد يكون كلام ليس هو الأصوب، وأن ما نراه هو مجرد آثار ما بعد العملية." قال جمال مستسلما، وقد بدأ يشعر بالملل.

– "مهلا." قاطع سعود..." من هو هذا الدكتور شانج الموقع اسمه على التقرير؛ أنا لم أسمع به من قبل، ففي العادة يقوم الدكتور لويد بمراجعة عينات الرئة."

– "ربما كان الدكتور لويد في إجازة وقت العملية... أنا واثق بأن هناك تفسيراً منطقيا لما نراه. غدا يمكنك مراجعة الأشعة مع الدكتور بيرسون، أو الدكتور فيرشايلد إستشاري الأشعة، وستحصل على إجابة مقنعة أفضل من هذه التكهنات، فهم في نهاية الأمر أعلم منا." قال جمال، وقد قام من على الحاسب، عازما النية على مغادرة المكان.

– "أنـــا فـــي حياتي لم أر، أو اسمع بشي كهذا!... على العموم معك حق، لا بد من مراجعة الدكتور بيرسون في الأمر." ردد سعود، شاعرا بشيء من الريبة.

انصرف جمال، ولحقت به لينا، فيما جلس سعود يتأمل الأشعة، وتقريـــر معمـــل الأنـــسجة، محاولا أن يجد تفسيرا منطقيا لما كان يراه...

ســـار جمال على عجل؛ خوفا أن من يلحق به سعود لأي سبب مـــا؛ فقد شعر بأنه قد التقى به أكثر مما يجب في تلك الليلة العجيبة؛ بل كان في قرارة نفسه يتمنى لو أنه لا يلتقي به مجددا طوال مكوثه في مدينة بوسطن!

شـــعر جمال بالراحة عند اقترابه من مخرج جناح مرضى قسم الجـــراحة، فقـــد كـــان علـــى بعد خطوات من المصعد المؤدي إلى المرآب، حيث توجد سيارته. لفت إنتباهه في أثناء ما كان يفتح الباب الزجاجـــي الخاص بالجناح، الحكمة اليومية التي كانت تضعها إحدى الممرضـــات على الباب. ابتسم وهو يقرأ تلك الكلمات التي اعتبرها مجرد هراء، لا تحمل أي معنى، ولا قيمة...

كانت حكمة اليوم تقول:

احذر مما تتمناه، لأنه قد يتحقق!

14

علـــى ارتفاع ثلاثين ألف قدم من سطح الأرض، كانت الطائرة الخاصة المملوكة لكمال أغلو تستعد للهبوط في مطار بمدينة بوسطن الدولي. كان كمال قد تلقى للتو مكالمة عاجلة شعر على إثرها بنشوة، وارتياح لاحظهما عليه فرانك روكفلر الذي رافقه في الرحلة القادمة من لندن.

– "كـــان هذا اللورد ماير يذكرني بوجوب زيارة فؤاد شوكت؛ يبدو أنه لن يغادر المستشفى هذه المرة!" قال جملته، ثم أطلق ضحكة مدويـــة أثـــارت انتباه طاقم الطائرة، ومرافقيه من الحرس الشخصي والسكرتارية.

– "مـــن كـــان يخطـــر علـــى باله أن يتحول فؤاد هذا التحول الغريب." قال فرانك متعجبا.

– "تـــبا للنـــساء، هن أساس كل المصائب... أنا واثق أنه لولا تأثيـــر مـــنال عليه لما جرى له الذي جرى؛ ولكنه أحمق، جعل حبه لزوجته يتغلب على كل ما بناه في السنوات العديدة الماضية."

– "لقـــد قالها نابليون فيما مضى: **شيرشي لا فام**... ابحث عن المـــرأة." ضـــحك فـــرانك هـــذه المـــرة، وقـــد أعجبته العبارة ثم اســـتطرد..."ولكـــن مـــن يكون هذا الداعية الذي أثر في الناس بهذا الشكل؟"

– "لا أحد!... إنه لا أحد، مجرد صرصار، وسيتم رشه بمبيد حـــشري." قـــال كمـــال، والغيظ يملؤه من ذكر سيرة وسيم باسم، الداعـــية الـــذي كان سببا في الالتزام الديني الذي طرأ على منال زوجة فؤاد شوكت.

– "مـــن حسن الحظ أن فؤاد لم يكن على دراية بالحدث الكبير الذي نعد له، وإلا لكانت مصيبة كبرى!"

– "المسألة لا علاقة لها بالحظ، إنها عبقرية اللورد مايرز... فهو دائمـــا مـــا يقـــول بأن المسلم مهما بلغ ولاؤه لنا، ومهما ارتقى في تنظيمـــنا، فسيبقى دائما قنبلة موقوتة قابلة للانفجار في وجهك في أية لحظة! ولذلك نحن لا نأتمنهم على الأسرار الكبرى!"

* * *

على بعد آلاف الأميال كانت رحلة الخطوط البريطانية المتجهة إلـــى بوســـطن تستعد للإقلاع... أخرج رجب غول جواله، الذي لم يغلقه بعد، عندما شعر بهزة تنبئ بقدوم رسالة قصيرة:

ســـيدي الولـــي، لقد وصلنا للتو، ونحن الآن متوجهون لفندق الكوبلي. لا تنسني في دعواتك

كـــان مرسل الرسالة برزان زنكي، احد طاقم سكرتارية كمال أغلو!

15

لــم يدرك نعيم الوزان كيف ومتى جاء إلى هذا الكهف الكبير، ولكنه أدرك أن عليه السير في اتجاه الضوء، بعيدا عن ظلام الاتجاه المعــاكس. اخــذ يسير حتى بلغ مدخل الكهف، الذي لفت انتباهه أنه كــان يطل على بحر شاسع ذي أمواج عاتية متلاطمة. فبالرغم من ضــراوة الــرياح، وكثافة السحب، التي شيئا فشيئا أخذت تتكاثر في الــسماء، إلا أن المارة كانوا يسيرون على الشاطئ دون مبالاة، لما كان يلوح في الأفق! فجأة ظهرت موجة كبيرة تعقبها موجة أكبر!... تسونامي بارتفاع عشر طوابق أقبل باتجاه نعيم، وباقي الناس بسرعة لم يشهدها على موجة من قبل! أمسك نعيم بصخرة كانت بجواره عند مــدخل الكهــف، في حين انجرف باقي الناس متلاطمين بين أذرعة الأمواج! فما إن تتلقفهم موجة، حتى ترمي بهم إلى الموجة الأخرى. ظــل نعيم متمسكا بصخرته بكل ما أعطاه ربه من قوة، محاولا ألاّ ينجــرف كمــا انجــرف باقي الناس، ولكنه شعر لوهلة أن أنامله قد أخذت تتراخى، وقبضته مع اندفاع العواصف والأمواج لم تعد قادرة علــى التماسك. شيء ما بداخله كان يشجعه على التراخي... فلم يعد هناك داع لهذه المقاومة اليائسة، فالموجة كانت أقوى من أية صخرة يحــاول التمــسك بها... ولكن إن ترك نفسه كباقي الناس، فإلى أين سيسير؟ تساءل، فقد ينجرف مرة أخرى إلى داخل الكهف نحو الجهة المظلمــة! فجأة اختلف المكان، ووجد نعيم نفسه على أرض يابسة، ولكــن يحــيط به الظلام... شيئا فشيئا من الجهة الشرقية، بدأ النور ينــبعث، متماشــيا مع خطوات رجل سرعان ما تبينت ملامحه التي كانت تشبه ملامح نعيم إلى حد كبير... كان جده!

- "أراك مهموما." قال خليل الوزان، وهو يقترب من حفيده.

- "أبحـــث عن شيء، ولا أجده... كلما اقتربت منه ابتعد." رد نعيم.

- "وما هو ذلك الشيء الذي تبحث عنه؟"

-"الحقيقة... الحقيقة الغائبة."

- "نعيم، تذكر أن الحقيقة مهما غابت، أو مهما غُيِّبت، فلابد لها من عودة... والليل مهما طال ظلامه، فلابد له أن ينجلي، ويأتي من بعده الفجر، ليضفي بنوره بصيصا من الأمل."

اســـتيقظ نعيم، وقد أخذ ينظر حوله في مختلف اتجاهات غرفته التي لم يبرحها منذ الليلة السابقة. انتبه إلى صوت المؤذن المنبثق من هاتفـــه الجوال، مناديا إلى صلاة الفجر فقام من على سريره، واتجه نحو الحمام؛ لكي يتوضأ، متمنيا أن يكون هذا هو الفجر الموعود، أو على الأقل قد اقترب مجيئه!

* * *

خـــرج نعيم يتمشى على شاطئ الفندق، مستمتعا بمنظر شروق الشمس في تلك الساعة التي كادت تخلو من كل الناس، سوى بعض عمـــال الفـــندق الذين كانوا منهمكين في ترتيب الكراسي، وتنظيف الطـــاولات، وإزالـــة المخلفـــات من فوق أروقة الفندق المطلة على الـــشاطئ الجميل، الممتد إلى مرسى اليخوت. كعادته أخذ نعيم يسير في ذلك الوقت من اليوم، مستعرضا لنفسه مجريات الأمور، محاولا أن يجد تفسيرا منطقيا لما شاهد، وسمع...

اســـتمر به السير إلى أن اقترب من يخت على المرفأ كان قد أخـــذ ينـــصرف منه من تبقى من الحفل الساهر الذي شهده الليلة السابقة، والذي لحق الحفل الختامي لمهرجان الإعلام.. بعض من الذين خرجوا كانوا يترنحون يمينا ويسارا ثملين من أثر الشراب،

والـــبعض الآخر كان أكثر تماسكا، ولكن أكثر ما لفت انتباه نعيم كـــان منظـــر ســـمير رحال، وهو يودع سمر القلوب التي كانت محاطـــة بهالـــة من المعجبين من رجال المال، والأعمال، وبعض الـــساسة، والمثقفـــين الذين التقى ببعضهم نعيم على مدار السنين السابقة.

– "كـــاد الـــزمن أن يـــتوقف فـــي يخـــتك يا سمير!" قال أحد المدعويـــين، وهو يغاد، ر وقد أطلق ضحكة تخللتها حازوقة أصابته بشرقة.

– "أنت ملك الحفلات دون منازع!" قال الآخر.

– "حبيب قلبي سمير!... ويختي على يخته!" قالت سمر القلوب، وقـــد رمـــت لـــه بقبلة في الهواء في أثناء ما كانت تغادر، ممسكة بحاشيتها، وهي تكاد لا ترى الطريق من فرط السكر.

أخـــذ ســـمير يبتسم، وهو يستمع إلى تعليقات الثناء من ضيوفه المغادرين، وقد شعر بالزهو، حتى وقع بصره على نعيم الوزان الذي كان يراقب ما يحدث من على بعد مسافة ليست ببعيدة.

اختفـــى أثـــر الابتسامة فجأة، وقد عادت به ذاكرته إلى الوراء خمس سنوات، عندما جاء نعيم، بصفته خطيب ابنته دلال، إلى قصره بجدة كأحد المدعوين في حفل استقبال رجل الأعمال الأمريكي الكبير جـــورج روكفلـــر. كانـــت أول وآخر مرة يحضر له نعيم حفلا من حفلاتـــه التـــي كانـــت دوما حديث المجتمع الجداوي!... تذكر كيف ســـارع نعيم بالخروج، حيث لم يعجبه ما رأى حينذاك... تذكر كيف لحقت به دلال، وهي ترجوه ألاّ يغادر... تذكر مدى الحزن الذي بدا على ابنته في أثناء عودتها، حيث لم تفلح في ثني نعيم عن المغادرة، خاصة بعدما رآها تمازح بعض الحضور.

– "الـــيوم هو أتعس يوم في حياتي!" كانت هذه هي جملة دلال الوحيدة في تلك الليلة، قبل أن تجهش بالبكاء، محتضنة أباها...

منذ تلك الليلة التي فسخ فيها نعيم خطبته من دلال، تاركا شرخا كبيرا في قلبها، شعر سمير رحال بكراهية شديدة تجاهه، وفي قرارة نفسه، كان ينتظر اليوم الذي يرد فيه الصاع صاعين لنعيم الوزان!

16

تلقـــى نعيم رسالة على هاتفه الجوال من ثابت البغدادي الذي طلـــب مـــنه أن يلتقـــيا فـــي العاشرة صباحا في أحد مقاهي مركز الماركاتو التجاري، القريب من الفندق. كان لا يزال هناك متسع من الوقت، فذهب نعيم واختار كرسيا على الشاطئ الخالي وجلس عليه، مـــتأملا هدوء مياه الخليج العربي التي كانت تخلو من الأمواج في ذلـــك الـــيوم المشمس من أيام شتاء دبي ذي الطقس المعتدل. شعر برياح خفيفة فور جلوسه، أشعرته بشيء من البرودة، ولكنها لم تكن لتثنـــيه عـــن خلوته التي اختارها في تلك اللحظة التي شاء فيها أن يـــستعرض بعض مجريات الأمور... هناك علاقة واضحة ربطت موشـــي جـــولد بالدكـــتور عبد القادر بنوّزاني تمحورت حول ذلك الخطاب المريب الذي حصل عليه رجب غول... ذلك الخطاب الذي لم يقرأ منه سوى الجزء الذي أطلعه عليه جاسم الفراج..."لماذا كل هذا الحذر من قبل العروة الوثقى، فهم من جانب يطلبون مساعدتي، ومـــن جانب آخر لا يبدون كامل الثقة في!" لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يتساءل فيها نعيم عن قرارات تتخذ من قبل قادة العروة الوثقى، وهذا ما جعل أغلبهم يتحاملون عليه إلى أن تم فصله نهائيا من الجماعة، بالرغم من كونه حفيد خليل الوزان، القائد الأسطوري الذي بنيت حول كشوفاته القصص والأساطير. لم يشفع له ثقة عمر الحـــسيني فـــيه، وفي قدراته المميزة التي كان من الواضح أنه قد ورثهـــا عن جده، والتي قادته إلى اكتشاف أمور يجهلها الكثيرون، حول ما يدور من صراع بين العروة الوثقى، وحكومة الظل، وهو الذي لم يتربَّ في أحضان الجماعة وأكنافها..." لا بأس، يكفيني ما

قــرأت مــن الرسالة في الوقت الحالي، وما أخبرني به طلعت عن واقعــة دانيال، وذلك العنوان –في بوسطن– الذي تركه موشي... حــتما سيقدر قادة العروة الوثقى هذا الاكتشاف الخطير، وسيطلبون مني أن أذهب إلى بوسطن؛ في تلك اللحظة سيكون شرطي الوحيد هــو أن أطلع على باقي الرسالة، فكيف أستطيع فك طلاسمها إن لم تكــن المعلومة كاملة تحت متناول يدي؟... فكل ما أعلمه أن هناك حدثا ما سيحدث في مدينة حَدَاد بعدها سيعود شخص او شيء ما... مدينة حَدَاد... مدينة حَدَاد... لماذا تبدو تلك المدينة مألوفة، ولو أني متــيقن أني لم أسمع بمدينة بهذا الاسم؟... حتى عندما أجريت بحثا عبــر الإنتــرنت، لــم أجد لهذه المدينة وجود... هل هي مدينة قد اندثــرت، ولا يعلــم عنها أحد سوى حكومة الظل؟... هل اكتشف الدكــتور عبد القادر سر تلك المدينة هو وموشي جولد، أم أن هناك جانبا آخر للغز لا أراه؟"

ظلــت الأفكار والأسئلة تنصب على نعيم كانصباب المطر من غمامــة ســوداء، فظل يصارع الأفكار، ويتلقف الأسئلة الواحد تلو الآخــر، محاولا أن يصل إلى إجابات منطقية تعينه في اتخاذ القرار المناسب لخطوته القادمة، حتى بدأت الرياح تشتد أكثر، وأخذت المياه تملؤها الأمواج الشديدة التي كادت تغرق قدميه...

نظر نعيم إلى الوقت؛ كان موعده مع ثابت البغدادي قد اقترب؛ هــم بالــذهاب إلــى المركاتو، فاتجه نحو بهو الفندق. ما كاد يخطو خطوتــين، حتى سمع صوت ارتطام، نظر خلفه فوجد الكرسي الذي كان يجلس عليه، وقد تهاوى، فتلاقفته الأمواج.

* * *

– "يعجبني فيك دقتك المتناهية في المواعيد." قال ثابت، مستقبلا نعيم.

– "الـــوقت ثروة غير متجددة، لذلك أحاول أن أحسن استخدامه مـــا استطعت." رد نعيم مبتسما، وهو يصافح ثابت، ثم أكمل..." هل لديك إجابة لي بخصوص ما تحدثنا فيه البارحة؟"

– "نعم... لقد أجابني صباح اليوم الأخ جابر... يبدو أن الأخوة ظلوا طوال الليل يتباحثون الأمر."

ابتـــسم نعيم، وقد كان متيقنا من أن ما توصل إليه سيلفت انتباه القـــادة. كانـــت هـــذه فرصته؛ لكي يطلب من ثابت أن يوصل إليهم رغبته في أن يطلع على أكثر مما أطلعوه عليه.

– "لدي شرط بسيط؛ لكي أكمل المهمة..."

– "مهمـــتك قد اكتملت، والأخوة يبعثون إليك بشكرهم على ما بذلته من جهد." قاطع ثابت نعيم الذي لوهلة لم يستوعب ما قد سمعه للتو من جليسه.

– "عفوا... لم أفهم قصدك... وماذا عن بوسطن؟"

– "يـــبدو أن الأمر لم يعد يشكل تلك الأهمية... هذا ما قاله لي الأخ جابر... عفوا، ولكني مضطر للانصراف الآن، فلدي موعد مهم لا أســـتطيع التأخر عنه." وقف ثابت، ثم استطرد حديثه..." تشرفت بمعرفتك أخ نعيم، وأتمنى أن نلتقي مجددا في المستقبل."

انصرف بعدما صافح نعيم الذي ظل صامتا، وقد ملأته الدهشة لما سمعه للتو!

17

لـــم تكـــن لينا تتخيل مدى تعلق جمال بزوجته السابقة دلال، حتـــى إستمعت إليه، وهو يقص عليها ما شاهده في الليلة البارحة. حيـــنها أدركت أن دلال لا تزال تمتلك مفاتيح قلبه، وأنها أكثر من مجـــرد ذكـــرى عابـــرة، تكفـــل بهـــا الزمان ليضعها في مخزن الذكـــريات، فدلال كانت حاضرة بقوة، ومن الصعب على أحد أن ينافـــسها في حب جمال لها، حتى بعد كل هذه الغيبة، وكأنه كان ينتظر عودتها!

– "مـــا الذي تقوله يا جمال... أحقا مقتنع أنت بأن التي رأيتها فـــي الليلة الماضية هي دلال؟!... كيف؟ هل تعتقد مثلا أنها قد فقدت الذاكرة، كما في الأفلام، وبطريقة ما جاءت إلى بوسطن!" قالت لينا، وهـــي تـــسير مـــع جمـــال، متجهة إلى مواقف السيارات الخاصة بالمستشفى، بعد انتهاء دوام العمل.

– "لا داعـــي للـــتهكم. أنا أعي جيدا ما رأيت، وأقول لك هي دلال... لا أعلم كيف، ولكنها هي."

– "أو ربمـــا تكـــون امرأة شديدة الشبه بها... جمال، يجب أن تـــتجاوز هـــذا الماضي المتمثل في دلال!... أنا لا أقبل أن أكون..." صـــمتت ليـــنا، دون أن تنهي جملتها، وقد شعرت بأن كبرياءها قد خدش.

– "ليـــنا، أنت أقرب شخص لي هنا في بوسطن. لولا ذلك لما كنت أسررت إليك بما شاهدته... قد تكونين محقة في أن المراة التي شاهدتها ليست هي دلال... ولكن... لا بد لي أن أتأكد."

– "حسنا... ماذا تريد أن تفعل؟"

– "سأذهب الآن إلى ذلك المكان الذي شاهدتها تخرج منه أمس، وأسأل عنها هناك."

هــزت ليــنا رأسها غير مقتنعة بما قد سمعته، ولكنها رضخت لإصرار جمال، غير راغبة في التخلي عنه الآن.

– "هيا بنا إذاً... تريدنا أن نذهب بسيارتي، أم سيارتك؟"

– "حقــا!... لا مانــع لــديك فــي أن تأتي معي؟" سأل جمال مندهشا، وسعيدا في آن واحد.

– "نعــم، فقــط لكــي أثبت لك أن المرأة التي شاهدتها ليست بــدلال!" قالــت لينا، وفي قرارة نفسها كان خوف من أن تكون تلك المرأة التي شاهدها جمال هي بالفعل دلال!

* * *

لــم يمض وقت طويل، حتى دخلت سيارة جمال الرياضية حي بيكنهــيل، ثــم أخــذت تتجه إلى الشارع الذي يقع عليه منزل فؤاد شــوكت، والذي شاهد فيه تلك المرأة التي تشبه إلى حد كبير زوجته المفقودة دلال. صف سيارته بجانب مبنى قديم أثري، لا يزال يحافظ على رونقه، وكأنه بني منذ مدة وجيزة، يعلو مدخله شعار على شكل عجلة مستديرة مدببة أطرافها.

– "من هذا المبنى رأيتها تخرج." قال جمال، مخاطبا لينا.

– "هــذا نادي الروتاري." ردت لينا، وقد لمحت الشعار البارز للمبنى.

– "روتاري؟" سأل جمال مستفهما.

– "هــو نادي اجتماعي يضم كبار رجال الأعمال والساسة، له فروع عديدة في كل أنحاء العالم تقريبا."

خــرج جمــال مــن السيارة، واتجه نحو الباب الخشبي الكبير للمبنى.

- "مهلا!... إلى أين أنت ذاهب؟"

- "إلـــى داخل النادي." رد جمال الذي توقف عن سيره بسبب سؤال لينا الذي وجده غريبا بعض الشيء.

- "نادي الروتاري لا يستطيع دخوله سوى الأعضاء فقط، فهو غير مفتوح لعامة الناس."

- "ماذا لو دخلناه بحجة الرغبة في الاشتراك؟"

- "لن تستطيع، فالاشتراك فيه عن طريق الدعوة الخاصة."

- "ولكني رأيت دلال تخرج من هنا... ألا توجد طريقة لمعرفة أسماء جميع الأعضاء؟" سأل جمال، وقد ملأته الحماسة، غير مكترث إن كان النادي للخاصة أو العامة.

- "لا يمكن معرفة هذا إلا عن طريق أحد أعضاء ال... مهلا! تذكرت أمرا... جورج روكفلر، والد فرانك، هو رئيس فرع بوسطن لنادي الروتاري... قد يساعدنا إذا طلبنا منه!"

- "ولكن كيف سنحصل عليه الآن؟! لينا، لا أعتقد أني سأطيق الانتظار يوما آخر!" قال جمال مبديا التذمر.

- "ومن قال بأننا بحاجة إلى الانتظار طويلا؟" ردت لينا، وهي تشير برأسها لجمال؛ لكي ينظر خلفه.

كـــان رجل يسير، وبجواره كلب من فصيلة الدوبرمان. تعرف جمال عليه، حيث سبق أن رآه الليلة الماضية في منزل فؤاد شوكت؛ لكـــن مـــا هاله كان منظر ذلك الكلب الذي لم يكن مقصوص الذيل والأذنين، كما جرت العادة مع كلاب فصيلة الدوبرمان...

- "يبدو أن جميع أفراد أسرة روكفلر تعشق الكلاب، وتدافع عن حقوقها!" ردد جمال بصوت منخفض.

أقبل جورج نحو لينا مبتسما، ومعه كلبه الذي أخذ يتأمل الشاب القمحـــي النحـــيل، الواقف بجوار الفتاة الشقراء، وكأنه كان يسترجع ذكرى لقاء سابق!

18

عَـمّ الطــريق، في بشارع الشيخ زايد، المؤدي إلى مطار دبي الدولــي، الهــدوء فــي ذلك الوقت من بعد منتصف الليل في وسط الأســبوع. كانــت الــسيارة التي تقل نعيم تسير في الطريق الواسع بهدوء، مثلما طلب هو؛ حتى يصفي ذهنه على منظر المدينة الساكن، الذي بدا له من نافذة المقعد الخلفي..." هكذا انتهت الرحلة! يا لها من نتــيجة غيــر مرضــية!" أخذ نعيم يفكر، وهو يسترجع ما حدث له الــبارحة، حــين أُبلــغ بأن العروة الوثقى قد اكتفت بما توصل إليه، هكــذا، ودون إبداء أو توضيح، تنهي الجماعة اتصالها معه... "هذه ليست المرة الأولى، فلمَ العجب؟"

استرجع نعيم ذكريات ظن أنه قد نسيها، ولكن الأحداث الأخيرة أرجعتها إلى مقدمة رأسه...

تذكــر الرســالة الشفوية التي جاءته من جاسم الفراج قبل نحو عام:

– "أنــت لا تلتزم بما يقال لك، وتصر على رأيك، وإن خالف رأي القادة... نعيم، هذا لا يصلح، عليك أن تنسى أمر فؤاد شوكت."

– "كــيف أنسى أمر الرجل الذي خدعني، وناصبني العداء هو وجماعــته... أليس هو، ومن معه المتسببين فيما حدث للدكتور عبد القادر... أليس هو الذي تسبب في خسارة أعمالي التجارية، وهدد كل مــن يتعاون معي في جميع الدول العربية بالمقاطعة، مما اضطرني للهجــرة بعــيدا، فالــرجل حاصــرني ونفاني اقتصاديا... إن كانت الجماعة لا ترغب في الانتقام لأفرادها، فأنا أرغب!"

– "هناك أمور أنت تجهلها."

- "مثل ماذا؟"

- "لا أستطيع إخبارك، ولكن عليك الانصياع."

- "أنصاع لأمر لا أفهمه!... كيف؟!"

- "أنـــت عنيد، وهذا سيضر بك!... أنا لا يهمني إن كان جدك هو خليل الوزان، فلا تعتقد أن هذا سيمنحك معاملة خاصة!"

- "ومـــن قال إني أريد معاملة خاصة!... كل ما أريده هو أن أفهم لماذا تطلبون مني الكف عن فؤاد شوكت؟!"

لم يتلق نعيم إجابة عن استفساره، ولكنه تلقى قرارا بفصله، تلاه قطـــيعة تامة من قبل الجماعة إلى أن فوجئ منذ أسابيع باتصال من جاسم الفراج يطلب لقاءه في مكتبه بكوالالمبور لأمر مهم!... وها هو ذا الأمر المهم يُنهى بشكل مفاجئ، دون إبداء أي سبب!

تنبه نعيم فجأة، وهو في خضم ذكرياته، إلى مطار دبي الدولي الـــذي قد تجاوزته السيارة... استغرب من هذا الأمر؛ ظن أنه ربما السائق قد فاته المخرج... ولكن السيارة استمرت في طريقها، وكأنها كانت متوجهة إلى مكان آخر غير المطار!

- "عفوا، يهيأ لي أنه قد فاتك مخرج المطار." نبه نعيم السائق، مـــتوقعا أن يتلقى منه اعتذارا عن ذلك السهو الذي طرأ، لكن السائق لم ينطق بكلمة.

- "عفـــوا... يا أخ... ما الذي يحدث؟ لماذا لا ترد علي؟! إلى أين أنت تأخذني؟!"

أتت نعيم الإجابة على سؤاله الأخير من خلال لوحة على جانب الطريق ترحب بالقادمين إلى إمارة الشارقة!

19

– "ليـــنا... مـــاذا تفعلين هنا؟" سأل جورج روكفلر في أثناء ما كـــان يقترب من لينا وجمال، وقد رسم على وجهه ابتسامة صفراء، حاول أن يخفي بها دهشته من هذا اللقاء الذي لم يتوقعه.

– "ســيد روكفلــر، ما هذه المصادفة الجميلة... كنت للتو في سيرتك مع جمال." قالت لينا بعدما صافحت جورج الذي لم يبد ذات الحمـــاس للقائهمـــا، ثم استطردت..." في الليلة الماضية شاهد جمال امـــرأة، شبّه عليها، تخرج من نادي الروتاري، فأراد التأكد إن كانت بالفعل هي أم لا."

– "ومـــن يا ترى تلك المرأة؟" سأل جورج موجها حديثه لجمال الذي تلعثم، ولم يدرك بماذا يجيب الرجل... فكيف يخبره عن اعتاقده بأنـــه قد شاهد امرأة يظنها زوجته المفقودة منذ ثلاثة أعوام، دون أن يظهر، وكأنه رجل معتوه!

– "هـــي صـــديقة قديمـــة مـــن السعودية فقد أخبارها منذ عدة ســنوات، اسمها دلال." قالت لينا، وقد شعرت بالحرج الذي وقع فيه جمال، فأرادت إنقاذ الموقف.

– "لا يـــوجد في فرع بوسطن لنادي الروتاري امرأة أصلها مـــن السعودية... حتى الاسم دلال لا يبدو مألوفا... نعم أنا واثق أنـــه لا يوجد ضمن قائمة الأعضاء الاسم دلال." رد جورج على ليـــنا، ثـــم نظر إلى جمال..." هل أنت متأكد أنها خرجت من هذا المبنى؟"

– "نعـــم، رأيتها تخرج من هذا المبنى المميز، ثم ركبت سيارة بورش صفراء كانت تقودها." أجاب جمال مؤكدا.

– "كمـــا قلـــت لك، لا توجد ضمن قائمة الأعضاء امرأة اسمها دلال، فأغلـــب الظـــن أنك رأيت امرأة أخرى تشبه زوجتك... أنت تعلم، النساء قد يتشابهن في المساء." قال جورج ممازحا.

– "ماذا قلت؟!" سأل جمال، وقد ملأته الدهشة مما سمعه للتو.

– "عفوا... ماذا تقصد؟" تلعثم جورج، وقد تنبه إلى زلة لسانه.

– "كيف عرفت أن دلال هي زوجتي؟... فلا أنا، ولا لينا ذكرنا لك ذلك!"

– "صـــحيح... أنـــا قلـــت بأنهـــا صديقة جمال، ولم أذكر أنها زوجته!" أضافت لينا، وقد اعتلتها الدهشة هي الأخرى.

– "زوجـــة... صـــديقة... ما الفارق! رجاء، لا وقت لدي لهذا الهراء!"

أنهـــى جـــورج روكفلر جملته، ثم دخل مبنى نادي الروتاري، ومعه كلبه، تاركا لينا، وجمال اللذين كانا في قمة دهشتهما.

– "هل سمعت ما قاله؟ كيف عرف أن دلال هي زوجتي؟"

– "لا أدري... ولكن أكيد هناك تفسير منطقي... ربما... ربما تكـــون مجرد زلة لسان غير مقصودة." قالت لينا بتحفظ، وهي غير مقتنعة بهذا التفسير البسيط الذي لم تمتلك غيره.

– "هـــناك أمر ما يخفيه جورج روكفلر." قال جمال، متأملا، ثم استطرد..." أنا واثق الآن بأن تلك المرأة التي رأيتها هي دلال!"

20

تـــوقفت الـــسيارة أمام منزل في حي هادئ، تملؤه منازل أنيقة متراصـــفة، أغلب سكانها من الطبقة ما فوق المتوسطة. على عكس باقـــي المنازل، كان المنزل الذي توقفت أمامه السيارة مُنارة أضواؤه الداخلـــية، مُنِمَّةً بأن ساكنه كان لا يزال مستيقظا في ذلك الوقت من بعد منتصف الليل، وكأنه كان في انتظار مجيء ضيف ما.

– "تفـــضل أســـتاذ نعيم... لقد وصلنا." قال السائق، بعدما ظل طوال الرحلة صامتاً لا ينبس بكلمة.

– "أتفضل إلى أين؟!... ما هذا الهراء؟ هل تعلم أن ما قمت به يعد إختطافا؟!... من أنت؟ وماذا تريد؟ ولصالح من تعمل؟..."

– "أرجـــوك أســـتاذ نعيم، لا تضيع وقتك ووقتي، فأنا وظيفتي تنحـــصر في الإتيان بك إلى هنا. الإجابة على جميع أسئلتك ستجدها في الداخل." قاطع السائق نعيم الذي كان في قمة انفعاله لما حدث...

ســـاد الصمت ثواني معدودة، ثم فتح نعيم باب السيارة، واتجه نحـــو الـــبوابة الخارجية للمنزل الذي كان يقف بجواره حارس قوي البنـــيان، لا يقـــل حجمه عن حجم سائق السيارة الذي أتى بالضيف المنتظر الذي سرعان ما أشير له بالدخول، بعدما فتحت البوابة.

أخـــذ نعـــيم يخطو بحذر نحو الباب الداخلي للمنزل، وقد امتلأ عقله بمزيج غريب من القلق، والفضول في آن واحد، وأدرك بأنه لو كانت هناك رغبة لإيذائه في آناء هذا الليل، لما كان بوسعه أن يفعل شـــيئا الآن، خاصـــة بعـــدما أغلقـــت البوابة فور دخوله! استمر في خطواته حتى فُتِح البابُ، وخرج منه رجل في نهاية العقد الرابع من عمره، متوسط الحجم، يصعب ربط ملامحه ببلد، أو عرق محدد.

– "أهــلا وسهلا أخ نعيم، شرفت منزلي المتواضع... تفضل، تفــضل." قــال الــرجل مرحبا، وقد بدا عليه السرور لقدوم الضيف المنتظر.

– "عفوا... ولكن من أنت؟ ولِمَ أتيت بي بهذا الشكل؟ لقد فَوّت علي رحلتي!" قال نعيم رافضا الدخول قبل تلقي بعض الإجابات على تساؤلاته.

– "أخ نعــيم، أنا لم أفوِّت عليك رحلتك، بل فقط قمت بتصحيح مــسارها، فالوقت لم يحن بعد لكي تعود إلى ماليزيا... مشوار بحثك لم ينته بعد!"

– "من أين تعرفني؟ وعن أي مشوار تتحدث؟!" سأل نعيم، وقد أخذ الفضول عنده يطغى على شعوره بالقلق.

– "مــشوار الخطاب الذي عثر عليه رجب غول، والذي بحث أمره الدكتور عبد القادر بنوزّاني، فهل لديك غيره؟"

ذهــل نعيم لما سمعه من الرجل الذي كان يعلم أكثر مما توقع منه.

– "من أنت؟"

– "تفــضل أولا إلــى الــداخل، وســوف أجيــبك على أغلب تساؤلاتك."

* * *

– "اســمي جعفــر الأشعري؛ لا أعتقد أنك سمعت بي من قبل، ولكني سمعت عنك الكثير." قال الرجل عند دخوله مع نعيم إلى صالة الضيوف.

– "وممن سمعت عني؟"

– "من عدة أشخاص، أحدهم الدكتور عبد القادر بنوّزاني رحمة الله عليه."

– "الدكـــتور عـــبد القادر!" ردد نعيم، وقد أدهشه سماع الاسم مرتين في أقل من خمس دقائق.

– "لا تـــتعجب... لقـــد كانت تربطني علاقة قوية به استمرت، حتى بعدما تم فصلي من الجماعة."

– "الجماعة!!"

– "عفـــوا... نسيت إخبارك بأني كنت في يوم من الأيام عضوا في العروة الوثقى، وقد تم فصلي مثلك بسبب **كثرة تساؤلاتي، وعدم انصياعي للأوامر** على حد ما زعم بعضهم."

اندهش نعيم لما سمعه للتو، خاصة أنه كان يدرك أنه من النادر أن يتم فصل أحد أعضاء العروة الوثقى، كما تم معه. لوهلة أخذ يظن أنـــه قـــد تكون هذه مجرد مكيدة من جهة أمنية ما؛ لكي تحصل منه على ما يعلمه عن جماعة العروة الوثقى!

– "مهـــلا، مهـــلا... عـــن مـــاذا تتحدث؟ أي عروة وثقى هذه التي..."

– "أخ نعـــيم، أنـــا لا أحاول خداعك أو الإحاطة بما تعرفه عن العـــروة الوثقى." قال جعفر، مقاطعا، وكأنه قرأ أفكار نعيم، وأدرك الـــذي كـــان يدور في خاطره، ثم استطرد..." صدقني السبب الذي جعلنـــي آتي بك إلي بهذا الشكل هو رغبتي في مساعدتك، ومساعدة نفـــسي من أجل الوصول إلى الحقيقة... حقيقة مقتل صديقي الدكتور عـــبد القـــادر، والسر وراء الخطاب. على العموم، وفقط لكي أزيدك اطمئـــنانا، ســـأخبرك بأمر لا يمكن لأحد أن يعرفه مالم لم يكن على صلة وثيقة بالعروة الوثقى... لقد كنتُ أحد النقباء، وكان مُرشدي هو ذاته مُرشدك جاسم الفراج، قبل فصلي منذ ثلاث سنوات."

اندهش نعيم مما سمعه من الرجل، فما قاله كان لا يعلمه إلا قلة قلـــيلة من كبار أعضاء الجماعة. فالهيكلة التي اتخذتها العروة الوثقى كانـــت تعـــتمد على مجموعة من النقباء حول العالم، يكون كل منهم

مسؤولا عن مجموعة من المساعدين، تحت كل مساعد عدد من عمداء الأسر، والأسرة تتكون من أبسط أعضاء الجماعة. هذه الهيكلة هي التي مكنت العروة الوثقى من المحافظة على سريتها عبر السنين، فقد كانت كل أسرة مستقلة عن الأخرى، وكل مساعد لا يعرف إلا نقيبه، وعمداء الأسر الذين يديرهم، كذلك الأمر بالنسبة للنقيب، فصلته فقط بمساعديه وبأحد القادة الذي كان يرشده. بل إنه من النادر أن يعرف النقيب اسم أحد القادة غير الذي كان يرشده، وكان نعيم أحد هذه الحالات النادرة، بل وبدا له أن هذا الاستثناء النادر، قد ينطبق أيضا على جعفر الأشعري!

– "أخ نعيم، دعني اعود بك قليلا إلى الماضي؛ لكي أتمكن من إيضاح بعض الأمور لك. في عام ألف وتسع مئة وتسعة بعد سقوط السلطان عبد الحميد الثاني، وتمكن حركة الاتحاد والترقي من زمام الدولة العثمانية، شعرت العروة الوثقى بالخطر، خاصة بعدما تبين لها الصلة الوثيقة بين الاتحاد والترقي، وبين يهود الدونمة والسبأيين، أو حكومة الظل، كما هو الاعتقاد."

– "ماذا تقصد بكما هو الاعتقاد؟" قاطع نعيم مستفهما.

– "هذه النقطة بالتحديد هي لب الموضوع، ولكن لا أريد الخوض في تفاصيلها بعد؛ دعني أكمل لك أولا ما بدأته... أين كنا؟... نعم، بعدما تبينت صلة الاتحاد والترقي مع يهود الدونمة، شعرت الجماعة بالتهديد، فقررت الانتشار في الأرض على أن يلتقي القادة مرة، على الأقل، كل عام في المدينة المنورة؛ لكي يناقشوا أهم القضايا دون أن يشعر بهم أحد. هذا الجزء من التاريخ أنت تعرفه جيدا، ولكن ما لا تعرفه هو أنه في نفس تلك السنة اقترح جدك خليل الوزان أن تتكون جماعة مصغرة، فرقة لا يتعدى عدد أفرادها الخمسة أو الستة، يكون هدفها هو الوصول إلى حقيقة حكومة الظل بمعزل عن العروة الوثقى، وذلك لما كان يشوب الأمر من مخاطر قد

تهدد بكشف أمر الجماعة الكبرى ما إذا تم إسقاط الجماعة المصغرة؛ ومـــن جهـــة أخـــرى، فعزل تلك الفرقة، أو الجماعة المصغرة عن العـــروة الوثقـــى يمكنها من الاستعانة بأي أحد، ولو كان من خارج العروة الوثقى... مع الأسف تلك الفكرة لم ترق لعدد من القادة، ولكن الـــشيخ أبوبكـــر الحـــسيني، أمين عام قادة الجماعة في ذلك الوقت، اســـتطاع بحنكـــته أن يقنع الأغلبية بجدوى تلك الخطوة، وتحمل هو مـــسؤوليتها. تكـــونت تلك الجماعة المصغرة، والتي عرفت فيما بعد باسم جماعة الحسيني، واستمر أمرها إلى أن حُلّت قبل ثلاث سنوات عندما تم القضاء على غالبية أعضائها، بمن فيهم القائد المسؤول في ذلك الوقت، الدكتور عبد القادر بنوّزاني."

– "نعـــم، لقـــد قرأت في مذكرات جدي ذكره لجماعة الحسيني دون الدخـــول في التفاصيل، ولكني لم أكن أعلم أن تلك الجماعة قد إستمرت إلى قبل ثلاث سنوات..."

فـــي تلـــك اللحظة طرأ على ذهن نعيم أمر جعله يستعيد أحداثا جـــرت فـــي المـــدة ذاتهـــا التي قال جعفر إن أغلب أعضاء جماعة الحسيني قد تمت تصفيتهم فيها.

– "هـــل لمقتل موشي جولد علاقة بجماعة الحسيني؟" لم ينتظر نعـــيم الإجابة، فقد بدأ يدرك الأمر بمفرده..." يا إلهي!... إذاً موشي جولد كان أحد الأعضاء هو و..."

– "الدكـــتور أحمـــد عبد الوارث، ورجب غول، وصفاء الدين إسماعيل." أكمل جعفر، وقد أدرك أن نعيم فطن للأمر.

– "ولكنك قلت بأن **أغلبهم**، وليس **كلهم** قد تمت تصفيتهم، معنى ذلك أنه مازال أحد أفراد تلك الجماعة على قيد الحياة."

– "نعم، بقي شخص واحد على حد علمي، هو أنا." رد جعفر علـــى استفـــسار نعيم الذي بدا مندهشا مما كان يتجلى له في تلك الليلة!

– "بعـدما تـم فـصلي من العروة الوثقى، تلقيت اتصالا من الدكـتور عبد القادر، حيث لم يكن مقتنعا بذلك القرار المتعنت الذي اتخذه أغلب القادة، بناء على توصية من جاسم الفراج، وقد طلب مني أن أنـضم معـه إلى جماعة الحسيني التي كان يترأسها... كان ذلك قبـيل وفاتـه بأشهر قليلة، وقبل الاجتماع السنوي للقادة، حيث كان يعتزم إخبارهم بقرار انضمامي معه."

فجـأة شـعر نعيم بالرهبة، وقد بدأ يدرك بفطنته إلى أين كان يسير الحديث.

– "نعـيم... أريـدك أن تفكـر في الأمر الآتي: جميع أعضاء جماعة الحسيني تمت تصفيتهم ماعدا أنا... وقادة العروة الوثقى كانوا علـى دراية بجميع أعضاء جماعة الحسيني ماعدا أنا؛ لأن الدكتور عـبد القـادر توفـي قـبل الاجتماع، وبناء عليه لم تتسنَّ له فرصة إخـبارهم بـشأني... هـذا يعني أمرا واحدا، وهو أن افتضاح أمر أعـضاء جماعـة الحـسيني تم من الداخل! أحد قادة العروة الوثقى خائن، وعلى اتصال بحكومة الظل!"

– "ما تقوله هذا هراء!... لماذا لا تكون أنت الخائن الذي وشى بالدكتور عبد القادر ورفقائه؟! لقد سمعت منك ما يكفي!"

قـام نعـيم من مجلسه، واتجه نحو باب القاعة، وقد عزم أمره على الخروج، حتى ولو اضطر أن يصارع كل من يحاول منعه!

– "لماذا الهروب؟! هل صدمتك الحقيقة؟! هل ستتجاهلها؛ لكي تـريح رأسك كما يفعل أغلب الناس؟!" أخذ جعفر يصرخ نحو ضيفه الـذي فتح الباب، وهمَّ بالخروج... "هل سألت نفسك لماذا طُلب منك أن تـتوقف عن بحثك؟! ما الذي يوجد في بوسطن، ولا يريدونك أن تكتشفه هناك؟!"

توقـف نعـيم فجـأة عن سيره، وقد هاله ما سمع من صاحب المنـزل الذي لم يكن فقط على دراية بأمر تعاونه السري مع العروة

الوثقـــى، ولكنه أيضا كان ملما بتفاصيل ما قد جرى لاحقا من نقض لذلك التعاون!

استدار نعيم في مكانه، ناظرا إلى جعفر، ثم سأل:

– "من أين أتيت بكل هذه المعلومات؟"

– "ما يهمك أن تعلمه الآن هو أنني في صفك، وأننا نبحث عن نفس الأمر... عن الحقيقة التي لا يرغب البعض في أن نصل إليها!" قال جعفر، وهو يمرر لنعيم ورقة مطوية.

– "ما هذا؟"

– "هذا هو أول الطريق الصحيح... النسخة الكاملة لخطاب نجم الدين غول!"

– "نجـــم الدين غول؟" تساءل نعيم بحيرة، حيث لم يسمع بذلك الاسم من قبل... "تقصد رجب غول."

– "عفوا، نسيت أنك لم تُخْبَر بكامل القصة من أولها!" رد جعفر الأشعري، مبتسما.

21

الصديق العزيز خليل الوزان،

لا أدري إن كـــان سيصلك هذا الخطاب أم لا ولكني أكتبه على أمل أن يجد طريقه إليك فما رأيته اليوم في مغارة غريبة هنا بوادي نهر الكلب قد كلفني حياتي

ذلك المشهد الغريب

الطقـــوس والرجال بأروابهم السوداء وتلك الإشارة المرسومة على صدورهم. إنها إشارة إلههم الذي كانوا يقدمون إليه القربان.

أحـــاول تـــرتيب أفكاري لكي أترجم لك كلام كبيرهم الذي كان يتحدث بلغة لم يعد يتحدث بها إلا القليل من الناس، الآرامية:

قـــد جاد الزمان علينا بما كنا نحلم به منذ مئات السنين. وها هـــو الحلم يصبح حقيقة، ورايتنا تعلو من جديد دون علم الأعداء، فهـــا هي ذي مرحلة قد انتهت لتبدأ بعدها مرحلة جديدة، تنتهي بعد قرن من الزمان، ليكون الوقت في حينها قد أزف، وعندئذ في مدينة حَدَاد كما، أخبرنا السلف سيكون الحدث الأعظم مؤذنا بعودة الغائب الذي طال انتظاره.

* * *

ســـاد الـــصمت المكـــان بعد فراغ نعيم من قراءة الخطاب بنصه الكامـــل، والـــذي كان لدهشته موجها لجده خليل الوزان. أخذ يفكر فيما جـــاء في الخطاب، وأخذت الأسئلة تتهاطل على ذهنه... ولكن السؤال

الذي ألح عليه أكثر من غيره هو لماذا أخفت عليه جماعة العروة الوثقى النص الكامل من الرسالة، وخاصة أنها كانت موجهة إلى جده؟! هل ما ذكره جعفر عن وجود خائن في الجماعة صحيح؟! أيعقل أن يكون جاسم الفراج هو ذلك الخائن، ولذلك أعطاه جزءاً مبتوراً من الرسالة، حتى لا يكتشف مكنونها، فلا يصل إلى الحقيقة! هل معنى ذلك أن جاسم هو المسؤول عن مقتل الدكتور عبد القادر بنوَزَّاني، وباقي رفاقه؟!

– "هل سبق لك، وشاهدت الألعاب السحرية، كتلك التي يقوم بها ديفيد كوبرفيلد، وغيره؟"

اندهش نعيم من هذا السؤال المباغت الذي لم يفهم مغزاه.

– "نعم، ولكن ما علاقة هذا بما نبحثه الآن؟"

ابتسم جعفر من إجابة نعيم، ثم قال:

– "كان هذا نفسه هو جوابي عندما سألني الدكتور عبد القادر السؤال ذاته قبل وفاته بأسابيع... عندما يريد أن يقوم الساحر بخدعته البصرية، فأول وأهم ما يفعله هو جعل الجماهير تنظر إلى جهة ما، بينما يقوم هو بصنع خدعته في الجهة الأخرى، فلا ينتبه إليه أحد، إلا بعدما تكون الخدعة قد تمت، فتتعجب الجماهير، وهم لا يدركون أنهم وقعوا للتو فريسة لغفلتهم... ما أريد قوله لك أخي نعيم: إن حقيقة الأمور قد لا تكون بالضرورة هي ظاهرها."

صمت نعيم قليلا، لكي يتأمل ما قاله جعفر في ضوء ما بدا ينكشف له من متغيرات جديدة، ثم لم يستطع مقاومة السؤال الذي أخذ يلح عليه أكثر من غيره:

– "من تعتقد هو الخائن الذي وشى بجماعة الحسيني؟"

– "الجواب على هذا السؤال، وعلى أسئلة أخرى لا تقل أهمية يكمن في أمرين... الأمر الأول هو فك طلاسم هذه الرسالة التي بين يديك... أما الأمر الثاني، فهو معرفة ما الذي حدث لذلك الطرد الذي أرسله موشي جولد قبيل مقتله."

نظـــر نعيم إلى الرسالة مرة أخرى، ولكن هذه المرة كان يقف عـــند كل كلمة محللا لها، محاولا أن يصل من خلالها إلى شيء ما، ربما أغفله غيره ممن اطلع على الرسالة... الحدث الذي شاهده نجم الدين غول كان في مغارة بوادي نهر الكلب بالقرب من بيروت كما ذكـــر صاحب الرسالة... هل هي مغارة جعيتا الواقعة في وادي نهر الكلب؟ أغلب الظن أنها هي... ولكن متى؟

– "هل تعلم العام الذي كتبت فيه هذه الرسالة؟"

– "في عام ألف وتسع مئة وتسعة."

– "ألـــف وتسع مئة وتسعة!" ردد نعيم، وقد استوقفه التاريخ..." هل تذكر الشهر بالتحديد، هل كان قبل، أو بعد إبريل؟"

ابتـــسم جعفر، وقد أخذ يشعر بمدى ذكاء نعيم، تماما مثلما قيل له.

– "هـــل تقـــصد قبل، أو بعد عزل السلطان عبد الحميد الثاني، وســـيطرة حـــزب الاتحـــاد والترقـــي على زمام الأمور في الدولة العثمانـــية؟ أنت تسير في الاتجاه الصحيح، فأغلب الظن أن المرحلة التي كانت تحتفل بانتهائها تلك الجماعة هي سقوط الخلافة الإسلامية بـــسقوط السلطان عبد الحميد الثاني الذي حاول بعث الروح فيها من جديد... ولكن السؤال الذي لم يتوصل إلي إجابته أحد هو عن ماهية ذلـــك الحدث الأعظم الذي سينهي هذه المرحلة، وقد مضى قرن من الزمان؟"

– "مديـــنة حَدَاد... هل استطاع أحد من جماعة الحسيني معرفة المقـــصود بتلك المدينة؟" سأل نعيم وهو يعاود تأمل الرسالة التي بين يديه.

– "علـــى حد علمي لا... على الأقل لم يكن قد توصل إلى ذلك الأمـــر الدكتور عبد القادر في آخر لقاء لنا. لا أدري إن كان قد طرأ أمـــر جديـــد بعد ذلك، فهو لم يخبرني... رحمة الله عليه كان كثير

الانـــشغال قبـــيل وفاته، وكان الاتصال بيننا في الأيام الأخيرة قليلا جدا."

– "وماذا عن باقي أفراد جماعة الحسيني هل أخبرك أحد منهم عن أي أمر توصل إليه."

– "كمـــا سبق، وأخبرتك، لم يكن أحد على علم بخبر انضمامي إلـــى مجموعتهم، فالدكتور عبد القادر كان يريد أن يمهد الأمر، أولا لمجلس قادة العروة الوثقى..."

– "هـــذه العلامـــة التـــي علـــى شكل دائرة تتوسطها نقطة ســـوداء... ألـــم تلفـــت انتباهك؟" قاطع نعيم، وقد تذكر فجأة تلك الوشـــمة التي رآها فوق معصم الرجل الذي صادفه في المصعد، منذ ليلتين.

– "هـــذه العلامـــة غريبة حقا؛ كأنها علامة وسط المدينة التي نلاحظها في بعض إشارات المرور في الكثير من المدن... لا أدري إن كـــان نجـــم الدين غول يقصد الإشارة إلى وسط مدينة بيروت... الرسالة كلها مليئة بالأمور المحيرة."

– "جعفـــر... إن أردت ان تفهـــم أمرا ما، فعليك ان تضعه في سياقه الصحيح... استخدام علامة الدائرة التي يتوسطها نقطة سوداء كإشارة إلى وسط المدينة هو أمر مستحدث في نظم المرور، ولم يكن موجودا قبل قرن من الزمان. معنى ذلك أن كاتب الرسالة كان يقصد أمـــرا آخـــر بوضعه لهذه العلامة، لكن من الواضح أنه لم يكن لديه وقت، لكي يفسر مقصده."

– "وماذا تعتقد كان يقصد برسمه لتلك العلامة في الخطاب؟"

– "اقـــرأ الرسالة جيدا، وركز على الجزء الذي يقول فيه: **تلك الإشارة المرسومة على صدورهم. إنها إشارة إلههم الذي كان يقدم إليه القربان**... يبدو أن نجم الدين غول تذكر في آخر الرسالة أنه لم يصف تلك الإشارة، فرسمها."

– "تحليل منطقي، ولكن أليس من الغريب أن تكون هذه الإشارة هي لمجموعة في غاية السرية، وفي الوقت نفسه تستخدم في علامات المرور في كثير من مدن العالم؟"

هز نعيم رأسه بالموافقة، ثم أخذ يرتب أفكاره قبل أن يرد على استفهام جعفر.

– "علـــى امـــتداد التاريخ كانت هناك ظاهرة تكاد تكون ثابتة، وهي رغبة الفئات المختلفة من جماعات، وشعوب، أو حتى طوائف، في ترك آثارهم على جوانب حياة الناس، كإشارة غير مباشرة لمدى نفـــوذهم وسطوتهم، فخذ مثلا علامة الهرم الذي تتوسطه عين ثاقبة، المرســـومة علـــى فـــئة الدولار الأمريكي؛ هذه من أشهر علامات الماسونية المتنورة."

– "الماسونية **المتنورة؟**" سأل جعفر، مستفهما من نعيم عن ذلك المصطلح المركب الذي لم يسمع به من قبل.

– "فـــي الـــسنوات الثلاث الماضية، بعد الأحداث الغريبة التي مرت، إبان وفاة الدكتور عبد القادر، أخذت أبحث في أمور الجمعيات الـــسرية وكيفية عملها، وأحد الأمور التي استوقفتني هو الدمج الذي كان يحدث كل مدة وأخرى بين جمعيات مختلفة، والتغلل الذي تحدثه مجمـــوعة في داخل مجموعة أخرى، فتغير بذلك مسارها إلى الأبد. الأمـــر الذي لاحظته هو أن بعض الطوائف، عندما تشعر بدنو أجلها نتـــيجة لضعف قد أصابها بسبب محاربتها من قبل الدولة على سبيل المـــثال، يقوم أفرادها بالتغلغل في طائفة أخرى أكثر نفوذا وسطوة، وبالتدريج تحدث عملية تغيير قد لا يلاحظها العامة من الأفراد، وقد حـــدث هذا كثيرا عبر التاريخ، فمثلا طائفة الحشاشين الذين اشتهروا فـــي زمن الحروب الصليبية بعمليات الاغتيال التي طالت الكثير من أمـــراء الأقالـــيم الإسلامية، بل وكادت تطول صلاح الدين الأيوبي نفـــسه، هـــذه الطائفـــة التي كانت تسكن في جبال الشام، عندما كاد

الجـيش الأيوبي أن يقضي عليها، قامت بالتغلغل في بعض الطوائف الـشيعية كالإسماعيلية، بل خلقت مسارا إسماعيليا جديدا مغايرا للذي أتـت بـه الدولة الفاطمية، فعرفت باسم الإسماعيلية النزارية؛ بل إن الإسماعيلية نفسها هي نتاج لتغلغل بعض العقائد التي كانت موجودة فـي بلاد فارس والهند، في شيعة على بن أبي طالب الذين تمركزوا في العراق، وشرقها من البلاد."

– "هـل تـريد القـول بـأن الحركة الماسونية اليوم هي نتاج لاختراق طائفة أخرى لها."

– "بكـل تأكـيد، وقـد كتب في هذا الأمر عدد من الباحثين، فالحـركة الماسونية، لِما وصلت إليه من سطوة ونفوذ، كانت عنصر جذب لكثير من الجماعات التي لم تصل إلى تلك المكانة نفسها حول العـالم، لـذلك انصهر فيها السبئيون ويهود الدونمة، والأهم من ذلك جماعـة الإلوماناتـي، أو جماعة المتنورين الذين اتخذوا من العين المبصرة رمزا لهم."

– "مهـلا، مهلا... ما علاقة كل هذا برسالة نجم الدين غول؟" سـأل جعفـر، وقد شعر بنفسه يغرق في طوفان من المعلومات التي أخـذ نعيم يلقي بها عليه، فازداد حيرة من بعد ما ظن أنه قد اقترب خطوة من فك طلاسم الخطاب.

– "الطائفة الأم!... حكومة الظل!"

– "الطائفة الأم؟" ردد جعفر، وقد شعر بحماسة تغمره، بالرغم من عدم اكتمال الصورة التي كان يرسمها نعيم له.

– "نعم... هناك مجموعة ما تسير عبر التاريخ، تاركة بصمتها على مختلف جوانب الحياة، تحاول أن تسيطر على الشعوب، دون أن يشعر بها أحد... يد خفية لا يعرف أحد حقيقتها سوى أنها موجودة، ولكن أين؟ وكيف؟ لا توجد سوى فرضيات... هل هي يهود الدونمة؟ أم الماسونية؟ أم المتنورون؟ السؤال الجوهري الذي شكلت من أجله

جماعـــة الحـــسيني لتحاول الإجابة عليه، منذ أن تم اكتشاف مؤامرة إسقاط السلطان عبد الحميد الثاني، كما أكدت لي أنت منذ قليل."

- "حكومة الظل!"

- "نعـــم، الطائفـــة الأم التـــي تحرك باقي الطوائف! يبدو أن الدكتور عبد القادر كان محقا، فالإجابة على كل هذه التساؤلات تكمن هنا في رسالة نجم الدين غول!"

مد نعيم يده نحو حقيبته، وأخرج منها حاسبا آليا محمولا.

- "هل لديك اتصال مباشر بالإنترنت؟"

- "المنزل يغطيه شبكة الواي فاي."

دخـــل نعـــيم على الإنترنت بعد أن حصل على الرمز السري للـــشبكة الخاصـــة بمنزل جعفر. كان الحماس قد ملأه، إذ شعر بأن الأمور قد أخذت تتجلى له، وكأن عتمة تملأ حياته، قد أخذ نور قادم يـــزيحها شيئا فشيئا... ذهب إلى محرك بحثي، وأدخل كلمتي: **مدينة حَـــدَاد**... ســـرعان مـــا جاءته قوائم تحمل كلمة **مدينة** وكلمة **حدّاد** وحِداد، ولكن لم يكن هناك **مدينة حَدَاد!**

* * *

في مكان ما مجهول تحت سطح الأرض، كان المراقب الشاب يعـــد لنفـــسه كوبا من القهوة، عندما فجأة أضاءت إشارة حمراء في جهازه، محدثة صوت صفير متقطع، على الفور ترك القهوة، واتجه نحـــو الجهـــاز، ثم كما هو المعتاد في مثل تلك الحالات، اتصل عبر شبكة الهاتف الداخلي بكبير المراقبين...

* * *

كان كمال أغلو في قمة اشتياقه وهو ينتظر ضيفته التي أوشكت أن تحضر إلى جناحه الفاخر بالفندق، عندما رن جواله...

نظر إلى الاسم الظاهر على الشاشة، فأدرك على الفور أن هذه المكالمة لا تحتمل التأجيل.

- "ألو."

- "سـيد كمال، هناك مشكلة." جاء الصوت من الطرف الآخر من الجوال.

- "خيرا."

- "التقطـنا عملـية بحـث قـام بها نعيم الوزان عبر حاسبه المحمول..."

- "مـستحيل، نعيم الوزان هو الآن في طريقه إلى كوالالمبور، ولا توجد خدمة إنترنت عبر الرحلة."

- "يبدو أن نعيم لم يغادر بعد، فالإشارة التي أتتنا كان مصدرها الشارقة، ولكن الأهم هو ما كان يبحث عنه... مدينة حَدَاد!"

- "مدينة حَدَاد!... مستحيل!... وهل توصل إلى شيء؟!"

- "بالطـبع لا، ولكنه غيَّر مسار رحلته، وحجز إلى بيروت ثمَّ إلى بوسطن."

أنهـى كمـال المكالمـة، وقد تعكر مزاجه مما سمع..." لو أن اللورد ماير علم بما جرى لفقد الثقة بي"... أخذ يفكر..." ذلك الوغد، سيـسبب لـي الكثير من المتاعب، كان يجب علي التخلص منه كما تخلصت من رفاقه!"

ضـغط كمـال علـى رقم رحيم في جواله في وسط ثورة من الغضب، وصلت معه إلى الذروة!

- "أيـن أنـت، وما الذي تفعله؟!... ألم تخبرني بأن نعيم قرر العودة، وأن اليوم رحلته؟!"

- "هذا صحيح... ولكنه يبدو قد غير رأيه في آخر لحظة؛ كنت سأتصل بك؛ لكي أخبرك بالتطورات، ولكنك سبقتني." جاء رد رحيم متماسكا، مملوءاً بثقة ورسوخ.

- "وأين هو الآن؟!"

- "فـــي مكان ما بالشارقة، مع الأسف السيارة التي كانت تقله اســـتطاعت أن تفلـــت، وكـــأن الـــسائق كان يشك في أن هناك من يتتبعه..."

- "علـــى العمـــوم، نعيم حجز إلى بيروت، وسوف يغادر بعد ساعات. اذهب إلى المطار، وسوف تجد الترتيبات الجديدة مع رجلنا هـــناك... رحـــيم، أريـــد أن أكون على علم بكل تحركات نعيم في بيـــروت... مـــن حسن حظك أنك وضعت جهاز المراقبة في حاسبه المحمـــول كمـــا أمرتك!... لعل هذا هو الأمر الوحيد الذي يشفع لك عندي!"

رمى كمال جواله على الأريكة المجاورة، ثم صب لنفسه كأسا من النبيذ المعتق الذي اشتراه خصيصا للقاء الليلة. ما كاد يرشف من الكـــأس، حتـــى سمع صوت طرقات خافتة على باب الجناح جعلته لوهلة ينسى ما قد جرى للتو.

نظـــر من العين السحرية... كانت هي... فتح الباب، وبسرعة خاطفـــة جـــذبها إليه، واحتضنها بلهفة واشتياق، في حين أبدت هي مقاومة مدللة...

- "كمـــال... لن أستطيع أن أمكث طويلا، فمنذ لحظات اتصل بـــي فـــرانك؛ لكـــي يخبرنـــي عن موعد اجتماع مجلس إدارة نادي الروتاري الذي سينعقد بعد ربع ساعة."

- "سئمت من زوجك هذا... متى ستتخلصين منه؟!"

ابتـــسمت دولـــي وقـــد سئمت هي الأخرى من زوجها فرانك روكفلـــر الذي كانت تعلم جيدا أنه في هذه اللحظة مع إحدى عشيقاته في حجرة مجاورة بالفندق!

22

فــرغت ليــنا من مرورها الصباحي على أغلب المرضى، ولم يتــبق ســوى فؤاد شوكت الذي فضلت أن يكون آخر من تمر عليه؛ حتــى تقــضي معه وقتا إضافيا، خاصة وأن شعورا كان ينتابها بأن حالته تتدهور ببطء، بالرغم من طمأنة الدكتور بيرسون...

طــرقت علــى باب الغرفة، ثم دخلت بخطوات متأنية، فوجدت مــنال تــردد باللغة العربية عبارات لم تفهم منها سوى كلمة الله، ثم نفخت على زوجها الذي كان مغرقا في التأمل والتفكير، لدرجة أنه لم ينتبه لقدوم لينا.

– "عفــوا... المعذرة على المقاطعة، بإمكاني أن آتي في وقت لاحق."

– "لا أبــدا، تفضلي، كنت فقط أحصن فؤاد بالمعوذات." قالت منال، وقد شعرت على فور من تعابير وجه لينا أنها لم تفهم قصدها فأســتطردت..." هذه سور من القرآن نؤمن بها كمسلمين بأنها تحمي من كل ما قد يضر إذا ما قرأناها على أنفسنا، أو على غيرنا."

– "آه... ذكرتنــي كلمــة الله بجدتــي؛ كنت وأنا صغيرة دائما أسمعها ترددها... مع الأسف هذه من الكلمات القليلة العربية التي ما زلــت أذكــرها؛ ولكني أفكر بجدية أن أعمل في دولة عربية لبعض الــوقت بعــد فراغــي من فترة التدريب، وبذلك أضرب عصفورين بحجر واحد؛ منها أتعلم اللغة، ومنها أتعرف على جذوري التي أشعر بأني قد ابتعدت عنها."

– "إن شــاء الله إذا قمت بالسلامة، سوف أحرص على ترتيب إقامتك بنفسي في البلد الذي تختارينه." قال فؤاد معلنا عن عودته من

عـــالم الـــتأملات الـــذي أخذه إلى مكان بعيد، أبعد من مخيلة أي من المـــتواجدين فـــي غرفته..." بالمناسبة، أين الدكتور سعود؟ وعدني الـــبارحة بأنه سيأتي إلي، ولكني لم أره منذ آخر مرة كان هنا، قبل يومين."

– "أنـــا أيضا لم أره منذ ذلك الوقت؛ ربما يكون قد إنشغل في حالة حرجة. على العموم إذا رأيته، فسوف أخبره بأنك تسأل عنه."

هـــز فؤاد رأسه، ثم أخذت تنتابه سعلة قوية أخرج على أثرها بلغمـــا ممـــزوجا بقلـــيل من الدم. كان في الأثناء جهاز قياس نسبة الأكـــسجين فـــي الدم يقيس معدلا منخفضا بعض الشيء، فنادت لينا على إثره الممرضة المسؤولة عن فؤاد، وطلبت منها أن تزوده بقناع الأكسجين بعد سحب عينة من الدم الشرياني لأجل بعض الفحوصات.

– "لا تقلقـــي، حالـــته مستقرة، وهذه فقط إجراءات احترازية." قالـــت لينا لمنال التي غرغرت عيناها، وأخذ القلق على زوجها يبلغ معهـــا ذروته، فما كان بحيلتها إلا أن تردد آية الكرسي، وهي تمسح على جبينه...

خـــرجت ليـــنا مـــن غرفة فؤاد بعد أن اطمأنت عليه، وتبعتها الممرضـــة إلـــى زاويـــة الطـــاقم الصحي بالجناح، ثم توجهت إليها بالسؤال:

– "ألـــم تنتبهي من قبل بأن البلغم الذي يخرج من فؤاد ممزوج بالدماء؟"

– "بلـــى، وقد أخبرت الدكتور بيرسون بالأمر فقال بأنه مجرد إلتهاب رئوي بسيط، وأمر بالمضاد الحيوي." ردت الممرضة مجابهة نبـــرة اللـــوم التـــي شـــعرت بها من خلال سؤال لينا، التي بدورها إستغربت من تصرف الممرضة، حيث جرت العادة أن يتم الإتصال أولا بالطبـــيب المقـــيم أو الأخِـــصَّائي إذا طـــرأ أي تغيير في حالة المريض، وليس بالاستشاري مباشرة.

– "ولِـمَ اتصلت بالدكتور بيرسون ولم تخبريني أنا أولا؟! هل لـديك مشكلة في كيفية علاجي للمرضى؟!" سألت لينا بنبرة حازمة أشعرت الممرضة بالارتباك.

– "عفـوا، لم يخطر هذا على بالي أبدا! ولكنها أوامر الدكتور بيرسون... فأنت تعلمين مدى تقديري لك!"

كـان الاندهاش واضحا على لينا، ولم تدرك ماذا تقول؛ فعادةً، الاستشاري لا يطلب مثل هذا الطلب من الممرضة، إلا إذا كان غير واثـق فـي الطبيب المقيم الذي يعمل معه، أو إذا كانت الحالة معقدة جـداً، بحـيث تتطلب تدخله المباشر، وكلا الأمرين لا ينطبق على الوضع الراهن، فهي تعلم جيداً أن الدكتور بيرسون يثق في مقدرتها الطبـية، كمـا أن حالـة فؤاد شوكت ليست بأعقد من حالات أخرى تتولـى هي الإشراف عليها..."إلا إذا!"... أخذت تفكر، وهي تستعيد صورة الأشعة الغريبة التي رأتها مع سعود، وجمال منذ يومين.

– "هل رأيت الدكتور سعود؟"

– "لـيس مـنذ صـباح البارحة عندما كان يبحث عن الدكتور بيرسون."

* * *

–"تفـضل." قال الدكتور بيرسون من داخل مكتبه آذناً بالدخول لمـن كان يطرق على الباب، ثم استطرد بعدما تبين له من الذي كان فـي الخارج..." لينا، كيف حالك، وكيف حال المرضى؟ أكلُ شيء على ما يرام؟"

– "أتمنـى ذلك.." صمتت قليلا، وقد شعرت بشيء من التردد، وهي تفكر كيف تبدأ الحديث في الموضوع الذي جاءت من أجله.

– "ما الخطب؟" سأل الدكتور بيرسون الذي بدأ يشعر بأن قدوم لينا وراءه أمر ما، قد لا يعجبه.

– "هــل رأيــت سعود مؤخرا؟... السيد فؤاد يبحث عنه، وقد حاولت الاتصال به، ولكن دون جدوى."

– "ومــا الــذي... يريده فؤاد من سعود؟... لماذا يبحث عنه؟" سأل بنبرة مضطربة.

– "كمــا تعلــم، فالمريض المغترب عادة ما يشعر بالراحة مع الطبيب الذي يستطيع التحدث معه بلغته الأم."

– "لا أعتقد أن وصف مغترب ينطبق على فؤاد شوكت، فالوقت الــذي يمضيه هنا في أمريكا لا يقل عن الذي يمضيه في مصر، أو أي بلــد عربـــي... على العموم لا تشغلي بالك بهذا الأمر، وانتبهي لباقي المرضى." قال الدكتور بيرسون، محاولا إنهاء الحوار، ثم أخذ ينظر إلى بعض الملفات التي كانت على مكتبه.

– "ماذا عن سعود؟" سألت لينا بصوت متردد.

– "سعود، ماذا عنه؟"

– "هل رأيته مؤخرا؟"

– "لا... لم أره منذ يومين... لينا، أنا مشغول الآن، فإن لم يكن لديك أمر مهم..."

– "هل رأيت أشعة فؤاد الأخيرة؟"

جــاء الــسؤال مباغتا مما جعل الدكتور بيرسون يترك الملفات التي كانت بين يديه، ويمعن النظر في لينا، حيث شعر بأن الحوار قد بدأ يأخذ مجرى لن يعجبه.

– "وماذا عن أشعة فؤاد الأخيرة؟"

– "عــندما راجعتها مع سعود... كان يبدو... كان يبدو كما لو أن الورم... لا يزال موجودا."

– "الورم لا يزال موجودا! كيف ذلك، وقد استأصلته بنفسي، وقــد أكد ذلك تحليل الأنسجة؟... لينا، ما رأيته هو مجرد آثار ما

بعـد العملية، مصحوبا بتغيرات نتجت عن الالتهاب الرئوي الذي أصيب به فؤاد. هذا كل ما في الأمر."

شعرت لينا بشيء من الارتياح لهذا التفسير المنطقي لما شاهدته مـنذ يومين مع سعود وجمال... "الدكتور بيرسون لديه خبرة طويلة، ولا شـك فـي أنه أدرى بمثل هذه الأمور." أخذت تفكر في أثناء ما كانت تخرج من مكتبه.

* * *

عـاودت الاتـصال بجوال سعود، بعدما لم يجب على جهاز الـنداء... لم تكن هذه من عادة سعود أن يترك مرضاه، والأطباء الـذين يعملـون تحـت إشـرافه، دون أن يراهم أو يجيب على اتـصالهم... أخـذت لينا تشعر بالقلق، فلربما وقع له حادث، أو أصـيب أحـد أفراد اسرته بمكروه فانشغل معه. حاولت الاتصال هـذه المرة على هاتف منزله، ولكن النتيجة كانت هي ذاتها... لا أحد!

ذهـبت إلـى المصعد، وقد قررت الذهاب إلى قسم الأشعة، حيث جمـال كما اعتادت أن تفعل في منتصف النهار، منذ أن اتخذته صديقا قـبل شهر؛ فلربما يكون جمال على علم إن كانت أمور سعود على ما يـرام، بمـا أنهمـا مـن الجالية نفسها، فقد كانت تدرك أن السعوديين المبتعثـين عـادة مـا يكونـون على إتصال ببعضهم بعضا من خلال نواديهم...

كـان المـصعد متجها نحو الطابق الأول عندما توقف قبل ذلك بعـدة طوابق. فتح الباب، ثم دخل رجل بدين ذو لحية كثيفة، مرتديا معطفا أبيض، بدا كما لو أنه لم يُكوَ منذ دهر.

– "لينا، كيف حالك، وكيف حال الدكتور بيرسون؟"

– "دكـتور لويد، لم أرك منذ مدة... لقد خطرت على بالي أنا

وســـعود، عندما كنا نقرأ تقرير عينة الورم الذي استؤصل من فؤاد شوكت. اندهشنا عندما لم نجد اسمك على التقرير."

– "آه... كان هذا منذ عدة أسابيع... يا إلهي! كدت أفقد حياتي، عـــندما صـــدمتني تلك السيارة!... إلى الآن ما زلت أشعر بألم في ســـاقي الأيمن...بعض الناس لا ينبغي أن يسمح لهم بالجلوس خلف عجلة القيادة."

– "حمدا لله على سلامتك... آسفة لأني لم أسمع أنه قد وقع لك حادث... هل تم القبض على سائق السيارة؟"

–"لا، مـــع الأســـف قد فر الوغد... ولكن لحسن الحظ أني لم أصب سوى بشرخ بسيط في عظمة الساق أخذت على إثره إجازة."

– "إذاً، فالدكتور شانج الذي حلل العينة كان بديلا مؤقتا لك."

– "نعم، نعم... لا أدري من أين أتى به الدكتور بيرسون!" علق الدكتور لويد، ثم أخفض صوته مستطردا، وكأن شخصا آخر غيرهما موجود في المصعد..." الرجل غير منظم على الإطلاق، تصوري أنه أضـــاع بعض شرائح العينات! الحمد لله أن تعيينه كان لمدة مؤقتة!" صـــمت قليلا ثم فجأة خطر أمر على باله..." ما إسم صاحب العينة التـــي كنت تقرئين تقريرها؟... فؤاد شوكت أليس كذلك؟... أظن أن عينـــته هي إحدى العينات التي أضاعها ذلك الأخرق... نعم تذكرت الآن، عندما أخبرت الدكتور بيرسون بالأمر بعد رجوعي من الإجازة المرضـــية، قال لي أنه راجع العينة بنفسه مع الدكتور شانج قبل أن تفقـــد... كـــم هو رائع الدكتور بيرسون! ليت جميع الجراحين مثله يهتمون بمراجعة العينات بأنفسهم مع طبيب الأنسجة!"

شعرت لينا بريبة شديدة مما سمعته للتو... عينة مختبر تضيع! ولماذا عينة فؤاد شوكت؟! أخذ هاجس يملؤها من جديد جعلها تسرح حتـــى أنها لم تنتبه للمصعد، وقد وصل إلى الطابق الأول، إلا بعدما كاد يغلق بابه، وهي لا تزال بالداخل.

– "لينا، هل تنوي الخروج من المصعد، أم أنك غيرت رأيك؟" سأل الدكتور لويد، وقد مد يده بسرعة بين درفتي باب المصعد، قبل أن يغلق، بعدما خرج منه، ولاحظ أن لينا لم تخرج.

– "عفـــوا.." قالت على خجل، ثم خرجت على الفور، وأخذت تـــتجه نحـــو قسم الأشعة، بعدما شكرت الدكتور لويد. كانت تخطو بعجل، حتى تصل إلى جمال، وتخبره، بما قد سمعته للتو، فلعله يؤكد هاجـــسها..."هـــل يعقل أن يكون الدكتور بيرسون قد أخطأ جراحيا، فـــأراد أن يداري خطأه، فدبر أمر فقدان العينات مع الدكتور شانج، بعدما تم تلفيق التقرير؟!... يا إلهي، أين سعود؛ لكي أخبره؟!"...

– "ليـــنا، ماذا أصابك؟" تساءل جمال، وقد خرج لتوه من قسم الأشعة إلى السيب الذي كانت لينا تقطعه جريا.

– "جمال، كنت قادمة إليك!... هناك أمر خطير، ولكن أولا هل تعلم أين سعود؟"

– "ســـعود؟ لـــم أره منذ تلك الليلة... ماذا أصابك؟ وما الأمر الخطير الذي تتحدثين عنه؟"

– "أعـــتقد أن حياة فؤاد شوكت في خطر!... الدكتور بيرسون ربما ارتكب خطأ أثناء ما كان يجري له عملية استئصال الورم، وقد حاول إخفاء الأمر مع طبيب الأنسجة الدكتور شانج..."

قاطـــع جمال لينا التي بدت في غاية الانفعال من خلال حديثها الذي كان يسابق دقات قلبها:

– "مهلا، مهلا لينا!... يبدو أن جيناتك العربية هي التي تتحدث الآن، وترســـم صـــورة لمؤامـــرة، في أغلب الظن، لا وجود لها... الدكتور بيرسون من أشهر جراحي العالم، ولا يمكن..."

– "وكيف تفسر إذا، صورة الأشعة التي رأيتها أنت معنا؟... ثم هل تعلم أن عينة المختبر للورم، الذي من المفترض أنه استؤصل، قد فقـــدت؟... ولـــيس هـــذا فقط، بل إن الدكتور بيرسون هو الذي أتى

بالدكتور شانج عندما أخذ الدكتور لويد إجازة مرضية، نتيجة للحادث الذي تعرض له."

– "متى باشر الدكتور شانج عمله؟" سأل جمال دون إظهار أي حماس للموضوع، وكأنه أراد فقط أن يثبت أمرا ما في خاطره، لكي ينهي هذا الحوار حول فؤاد شوكت.

– "ماذا تقصد؟" استفهمت لينا، وقد باغتها سؤال جمال.

– "أقصد أن الدكتور شانج باشر عمله قبل عملية فؤاد، أوليس كذلك؟ فإذا كان الدكتور بيرسون هو الذي أتى به؛ حتى يزيف تقرير العينة كما تلمحين، فمعنى ذلك أنه كان يعلم أنه سيخطئ في العملية قبل أن تحدث... أو ربما كان يخطط لعدم استئصال الورم! هَيّا يا لينا! رجاء لا تقولي لي إنك تظنين فعلا أن هذا ممكن!" قال جمال، وقد بدت عليه نبرة تهكم ما كانت لتخطئ سامعها.

– "لا أدري لماذا فتحت معك هذا الموضوع! سأبحث عن سعود، وأخبره بما اكتشفته، فلعله يكون أكثر تفهما!"

أرادت لينا أن تغادر، عندما أمسك جمال بذراعها في محاولة ليثنيها عن الذهاب.

– "دعك من فؤاد وسعود الآن، فلدينا ما هو أهم... قررت أن أذهب إلى نادي الروتاري، بعد انتهاء الدوام، وأنتظر هناك؛ حتى تظهر دلال ثم..."

خطفت لينا ذراعها من يد جمال الذي أخذت تمعن النظر فيه، وكأنها كانت ترى أمامها رجلا غير ذلك الذي اتخذته صديقا، أو كأنما غشاوة على عينيها قد أخذت تنزاح.

– "ألهذه الدرجة أنت إنسان أناني؟!... أنت لا تفكر إلا في نفسك، أما بالنسبة للآخرين ومشاعرهم..."

– "لينا.."

– "أرجــوك!... ابحث أنت عن زوجتك الغائبة بعيدا عني؛ أما أنا فلدي ما هو أهم؛ لكي أبحث عنه!"

انطلقت لينا غير آبهة بجمال الذي أصابته حالة من الذهول لما قد سمعه للتو... انطلقت وقد عزمت أمرها، بعد أن اتخذت قرارا لا رجعة فيه!

23

لكـــل إنـــسان نقطـــة ضعف؛ نقطة "أكيليس" التي من خلالها تـــستطيع أن تصل إلى الشخص، وتكشف عن مكنونه، وتطوعه، ليـــصبح صيدا سهلا، مهما كانت مكانته، وبلغت قوته! تماما مثل حال البطل الأسطوري اليوناني "أكيليس" الذي غطَّسته أمه، عندما ولـــد فـــي بحيرة الخلود، ولكنها نست تلك النقطة عند كاحله التي أمسكته بها، فلم يمسها ماء الخلود؛ لتصبح نقطة الضعف... نقطة "أكيليس"!

* * *

أدرك رجـــب غـــول بحس الصياد الذي ورثه عن جده نجم الـــدين، أن تلك المرأة التي كانت تدخل، وتخرج خلسة من جناح كمال أغلو هي "كرت" الرهان الذي سيلعب به! "الكرت" الذي من خلاله سيكشف عن كامل أوراقه، فيقش به خصمه الذي ظل يحلم بالقـــضاء عليه طيلة السنوات الثلاث الماضية... أخيرا بدأ يشعر بـــشيء مـــن الارتـــياح، وقد تبين له أن لحظة النهاية قد اقتربت، لـــيأخذ بـــثأره وثأر زوجته وابنه! لا يهم ماذا يحدث له بعد ذلك، فحياته كانت قد فقدت كل معنى بعد ذلك اليوم الذي شاهد فيه أعز مـــا في دنياه يتلاشى تحت عجلات الظلم والجبروت، وبالرغم من كون ذلك المنظر هو الذي أفقده طعم الحياة، إلا أنه هو ذاته الذي تكفـــل بجعلـــه يقاوم كل الصعاب، ويتغلب على جميع العقبات في ســـبيل أن يقطع رأس الأفعى التي كان يتتبعها ويراها، وهي تبث بسمومها شرقا وغربا، دون أن يقف أمامها أحد!... ولكن قريبا...

أخذ يفكر رجب غول... قريبا سينتهي كل شيء... فقط عليه الآن أن يعــرف من هي تلك المرأة الجميلة صاحبة السيارة "البورش" الصفراء!

24

شعر نعيم الوزان، وكأن جميع الأنظار كانت عليه، وهو يجلس على مقعده بالدرجة الأولى بعد صعود الطائرة متأخرا في رحلة دبي – بيروت...

كان المقعد الذي بجواره خاليا، بالرغم من وجود آثار عليه تدل علـــى أنـــه لم يكن شاغرا، ولكن كان يبدو أن صاحبه قد ذهب إلى المـــرحاض. نظـــر نعيم إلى يساره، وإذا برجل في المقعد الموازي يبتسم له، وهو يقول بصوت منخفض يملؤه الغبطة:

– "يـــا لـــك مـــن رجل محظوظ... في حياتك لن تنسى رحلة اليوم!"

لم يفهم نعيم مقصد الرجل، ولكنه شعر، وكأن جميع الرجال في الدرجة الأولى يشاركونه الرأي من نظرات أعينهم التي ظلت ترمقه، أو ربما كانت ترمق الكرسي الذي كان يجلس عليه... أو ربما كانت تسترق النظر إلى شيء آخر!

لـــم يأبـــه نعيم الوزان كثيرا لمن حوله، فقد كانت هناك أمور كثيرة تشغل باله، مما جعلته يستغرق في تأمل ما مر به من أحداث، منذ أن أتته مكالمة جاسم الفراج:

خطـــاب نجـــم الدين غول... حديثه مع طلعت نجاتي... دانيال جولد... موشي جولد، والطرد الذي أرسله قبيل وفاته إلى ذلك العنوان ببوســـطن، 150 شارع هنتنجتون... إنهاء العروة الوثقى للمهمة التي كلفته إياه بشكل مفاجئ... ثم لقاؤه مع جعفر الأشعري، وما سمعه منه فـــي تلـــك الليلة، والنص الكامل لخطاب نجم الدين غول الذي أطلعه عليه، والذي كان موجها إلى جده خليل ولكن لم يصله... لماذا لم يره

جاسم الفراج إلا جزءاً من الرسالة وأخفى عنه الباقي؟ هل من الممكن أن يكون جاسم هو ذلك الخائن الذي كان يعتقد جعفر الأشعري بوجوده بـــين قادة العروة الوثقى؟!... كان هناك خيط رفيع لا يكاد يراه نعيم، وولكـــنه شـــعر به يربط ما بين جميع تلك الأحداث المتلاحقة، منذ أن وقعـــت عيـــنا نجم الدين غول على تلك الجماعة في المغارة... **مغارة غـــريبة بنهر وادي الكلب**، هكذا كتب نجم الدين... هل هي ذاتها التي أصبحت تعرف اليوم بمغارة جعيتا؟ أخذ يتساءل نعيم.

شـــيء مـــا بداخلـــه كان يقول له بأن الإجابة على الكثير من التساؤلات تبدأ من على بعد 20 كلم شمال بيروت...

– "عفـــوا..." باغـــت نعيم صوت رقيق تعرف على صاحبته، فـــورما الـــتفت إليها، وهو يزيح ساقيه من الطريق؛ لكي تتمكن من الجلوس على مقعدها الواقع بينه وبين النافذة.

– "المعذرة إن كنت سببت لك أي إزعاج." أكملت سمر القلوب جملتها، بعدما جلست بجواره.

اكتفـــى نعيم الوزان بإلقاء ابتسامة، وقد أدرك سر تلك النظرات التي صاحبته، منذ أن صعد إلى الطائرة!

* * *

– "شكلك ليس غريبا علي، هل سبق أن التقينا من قبل؟" بادرت ســـمر القلوب بالحديث مع نعيم، بعد إقلاع الطائرة بمدة وجيزة، في خـــضم استعجابها لأمر ذلك الرجل الذي يجلس بجوارها، وقد انشغل عنها بالتفكير، وكأنه لا يجلس بجوار فاتنة الرجال، ومحسودة النساء! نجمة نجوم العرب!...

– "أعتقد بأننا تواجدنا في أكثر من مكان في ذات الوقت، ولكننا لـــم نلـــتق بشكل مباشر." أجاب نعيم على تساؤل سمر القلوب التي أخذت تتأمل أكثر وجه نعيم، وكأنها بدأت تتذكر أين رأته.

– "نعم... صحيح... رأيتك مع طلعت نجاتي في حفل مهرجان الإعلام... هل أنت صحفي؟"

– "لا، أنـــا رجل أعمال، ولكن تربطني صداقة قديمة بطلعت، لذلك دعاني إلى الحفل."

– "حبـــيب قلبي طلعت..." قالت سمر القلوب، وقد رسمت على وجههـــا ابتسامة سرور لاكتشافها وجود صديق مشترك بينها، وبين جليـــسها في الرحلة..." ولو أني آخذة على خاطري منه، تصور أن كـــل القـــنوات تتحدث عن برنامجي الاستعراضي الجديد، وقناته لم تذكره إلا مرة أو مرتين فقط!... لا أخفيك، أنا أخبرته بأنني زعلانة مـــن هـــذا التجاهل، فكان رده بأن قناته إخبارية سياسية، ومع ذلك غطت خبر البرنامج الجديد بما يتناسب مع حجم المواد المنوعة التي تبثها القناة؛ تصور يا أستاذ.. آه... عفوا أنت لم تخبرني اسمك؟"

– "نعيم الوزان."

– "تـــصور يـــا أستاذ نعيم، أن طلعت يظن أن أخبار السياسة مازالت تهم المشاهدين!... الناس طفشت خلاص من السياسة، وتريد ما ينسيها هذا الهم.. يكفيهم هَم البيت والشغل!"

صـــمتت سمر بعض الشيء، وهي تنظر إلى نعيم، منتظرة منه المـــوافقة علـــى ما قالته، ولكنه اكتفى فقط بالابتسام، وقد شعر بأن التعليق لن يكون له أية جدوى، فآثر السكوت، ولكن ذلك الصمت لم يـــدم طويلا، إذ سرعان ما طرأ على ذهن سمر القلوب أمر، شعرت أنـــه هـــو الذي سيثير لعاب هذا الرجل الذي يتثاقل في حديثه معها، وكأنه غير آبه لوجودها بجواره!

– "هـــل اســـتطعت الحـــصول على دعوة إلى إحتفال بعلبك؟" سألت، وقد رسمت على وجهها ابتسامة ماكرة.

– "احتفال بعلبك؟!"

لم يفهم نعيم المقصود من ذلك السؤال الذي باغته.

- "لا نقــل بــأن طلعت لم يستطع تأمين دعوة لك؟" أطلقت ضــحكة خفــق لها قلوب رجال الدرجة الأولى ثم استطردت..." الحقــيقة أنا لا ألومه، فعدد المقاعد محدود جداً، خاصة وأن أغلب المدعــوين هــم من قادة الدول، وبعض كبار رجال الأعمال في العــالم... هــل تعلــم أنني الفنانة الوحيدة من العالم العربي التي ستــشارك فــي هــذا الاحــتفال الضخم الذي لم تشهد له المنطقة مثــيلاً!... أقــول لــك خبراً لا يعلمه إلا عدد محدود من الناس." أمالــت رأســها قلــيلا نحو نعيم، ثم بصوت منخفض همست..." الــرئيس الأمريكــي سيحضر الإحتفال بنفسه! ولكنه لم يعلن هذا الخبــر بعــد لأسباب أمنية؛ أخبرتني صديقة تقيم في أمريكا على علاقة مع أحد كبار مستشاري الرئيس."

- "فــي الحقــيقة أنــا لا علم لي بأمر هذا الاحتفال، ولا أعتقد أني..."

- "لا تحمــل هما سأحصل لك على دعوة خاصة، فمُنتج الحفل مــن أعــز أصدقائي!" لم تمهل سمر نعيم فرصة للتحدث، فقد كانت على ثقة بأن لعابه سيسيل لهذا العرض السخي.

- "أشكرك على..."

- "لا داعــي للــشكر، فصديق طلعت هو صديق لي، ولو أني مازلت زعلانة منه، ولكن لا بأس هذه المرة، سأصفح عنه من أجل خاطرك، وخاطر رفقة السفر."

- "أريد أن أقول فقط، لو سمحت لي... أنا لست من هواة مثل هذه الاحتفالات، ولا أعتقد أن وقتي سيسمح لي بالحضور، فأنا كثير الانشغال... و..." شعر نعيم بالحرج، وهو يحاول الاعتذار بلباقة في الوقت الذي كانت سمر القلوب تنظر إليه بدهشة شديدة، غير مصدقة لمــا كانت تسمعه للتو، بل إنها للحظة شعرت بخدش في كبريائها... شعورا لم تصادفه من قبل!

ساد الصمت أغلب ما تبقى من الرحلة، وفي حين كان نعيم منهمكا في قراءة كتاب كان بحوزته، أخذت سمر القلوب تتأمل هذا الرجل الذي لم يكترث لها، ولا لدعوتها... تجاهله لها جعلها تشعر بانجذاب غامض نحـــوه. أخذت تختلس النظر له دون أن يشعر، فبدأت ترى في ملامح وجهه وسامة غريبة، ذكرتها بشخصية الرجل الغامض في بعض أفلام هوليوود؛ ذلك الذي تراه، وتنجذب إليه البطلة، دون أن تعرف سر ذلك الإنجـــذاب... ذلـــك الـــرجل الذي عادة ما كان يخفي من ورائه أمرا خطيـــرا، لا يريد البوح به لأي مخلوق؛ خوفا من أن ينكشف أمره، أو أمر تلك المهمة التي يحضر لها!... شعرت سمر في تلك اللحظة كما لو أنهـــا تعـــيش أحداث فيلم تقوم هي ببطولته، ونعيم الوزان الذي يجلس بجوارها هو البطل الذي يشاركها الأحداث!

– "ما هذا الكتاب الذي تقرؤه؟"

هـــذه المـــرة كانت سمر مصممة على أن يأخذ الحوار مجرى آخر، مع بطلها الغامض!

– "عفـــوا؟.." جاء رد نعيم، وكأنه كان في عالم آخر، ثم فجأة تنبه لمن كانت بجواره...

– "كـــنت فقط أسألك عن الكتاب الذي تقرؤه؛ يبدو لي من مدى استغراقك فيه، أنه كتاب ممتع."

–"هـــذا كـــتاب يتحدث عن الدولة الفاطمية، وتأثيرها في بعض عادات سكان العالم العربي اليوم."

– "واو!... يـــبدو أنه كتاب دسم... قلت لي إنه عن... **الدولة الفاطمية؟**"

كـــان من الواضح لنعيم، من طريقة السؤال، وعلامات التعجب التي بدت على ملامح سمر القلوب، أنها لم تسمع من قبل عن الدولة الفاطمـــية، أو ربمـــا قـــرأت عنها منذ زمن بعيد في حصة التاريخ بالمدرسة ثم نسيت أمرها.

– "يبدو أنك لست من هواة التاريخ."

– "فـــي الحقيقة أنا كنت دائما ضعيفة في مادة التاريخ." ردت ســمر، ثــم أطلقــت ضحكة خافتة مكسوة بشيء من الدلال قبل أن تكمل..." ثم ما أهمية قراءة الماضي، دعنا نهتم بالمستقبل أفضل؛ فما فات مات، وانتهى."

اســتثارت تلــك الجملة نعيم الذي شعر بأنه لا يمكن أن يتركها تمر، هكذا دون رد.

– "اســمحي لي بأن أخالفك الرأي تماما، فمن قال إن الأحداث عــندما يمــر عليها الزمن تنتهي، ولا يبقى لها أهمية. على العكس تمامــا، فالنظــر إلــى الماضي بعين مجردة يساعد كثيرا في فهم ما يجري حولنا، وفي التنبؤ بما قد يحدث غدا."

– "اسمح لي! وهل القراءة عن الدولة الفاطمية مثلا سيفيدك في فهم ما يجري حولنا من أحداث؟!" تساءلت سمر بنبرة تحد.

– "بكل تأكيد، وبما أنك استشهدت بالدولة الفاطمية، فدعيني أرجع بــك أكثــر من ألف عام إلى الوراء... كانت الدولة العباسية تعاني من ضــعف، نتيجة هوان خلافائها، وعدم قدرتهم على السيطرة على ولاة الأقالــيم التي أصبحت شبه مستقلة، وإن كانت مرتبطة برابط شكلي مع بغــداد عاصــمة الخلافة. في ذلك الوقت ظهر رجل ينتمي إلى الطائفة الإسماعيلية... هذه طائفة باطنية تعتبر من أشد الطوائف الشيعية غلوا." قــال نعيم جملته الأخيرة الاعتراضية بعد أن رأى علامة استفهام، مرة أخرى، في عيني سمر، عندما ذكر الطائفة الإسماعيلية..." ذلك الرجل، الذي عرف في كتب التاريخ باسم عبيد الله المهدي، استطاع أن يؤسس فــي شمال أفريقيا مع مجموعة من أتباعه نواة دولة استطاعت أن تحكم فــيما بعد شمال أفريقيا، ومصر، والشام، بالرغم من كون أغلب سكان تلــك المناطق هم من السنة، أي يتبعون عقيدة مختلفة تماما عن العقيدة التي كان يتبعها عبيد الله المهدي وأتباعه!... لكن السؤال كيف؟"

بدأت سمر القلوب تنجذب إلى الحديث الذي بدا لها، وكأنه لغز علـــى وشـــك أن يفك نعيم طلاسمه... كما أعجبها أسلوبه في طرح موضوع يدخل في قائمتها للموضوعات الجافة والمملة!

– "الفاطمـــيون هم من أوائل الجماعات التي استطاعت تحقيق المعادلة الصعبة."

– "عن أية معادلة تتحدث؟"

– "كيفـــية ســـيطرة الأقلية على الأغلبية!... نعم، فهذه المعادلة الصعبة استطاعوا أن يتقنوها بحرفية، ويؤصلوا لها، بحيث أصبحت المـــثال المحتذى لكل الأقليات، والفئات السرية الراغبة في الوصول إلى سدة الحكم."

– "كيف؟"

كان الفضول بالنسبة لسمر قد وصل إلى ذروته.

– "أولا لاحظي المسمى الذي اتخذته تلك الفرقة... **الفاطميون**... وهي نسبة إلى فاطمة الزهراء ابنة الرسول عليه الصلاة والسلام، مع العلم أنهم لا ينتسبون إليها لا من قريب ولا من بعيد، ولكنهم اتخذوا ذلـــك الاســـم مـــن أجل إيهام العامة بأنهم من آل البيت، وبناء عليه يحصلون على ثقتهم، وعطفهم... الأمر الآخر هم لم يعلنوا عن حقيقة مذهـــبهم، ومعـــتقداتهم للشعوب التي حكموها في الأقطار السنية في بـــادئ الأمر، بل أوهموا الناس بأنهم على معتقداتهم نفسها، في حين كانـــوا، فـــي ســـرية تامة، يحضرون ويؤسسون الدعاة لمذهبهم في محافـــل قائمـــة في المدن تحت مرمى الأبصار، دون أن يلتفت إليها أحد... هناك مثل يقول بأنه إذا أردت أن تخبئ شيئا عن أحد، فأفضل مكان تضعه فيه هو تحت نصب عينيه، فالإنسان لا يبحث عادة عما هو أمامه."

ابتسمت سمر لمقولة نعيم، ثم أخذ يراودها سؤال ملح.

– "ولكن هل بهذه السهولة يمكن خداع عامة الناس؟"

– "أي مخلــوق يمكن خداعه إذا هيأتِ له الظروف المناسبة... وهــنا يأتـــي الأمر الثالث الذي استخدمه الفاطميون ببراعة." صمت نعــيم قليلا، وقد بدأ يشعر بالتردد مما سيقوله، ولكنه سرعان ما قرر أن يكمــل..." تتفيه، العقول وتهميش المعتقدات، والعبادات من خلال تحويل المعاني الإيمانية إلى خرافات، والتعبدية إلى احتفالات."

ساد الصمت برهة، حيث أخذت سمر تشك في المعنى الذي كان يحاول نعيم أن يوصله لها، وكأنه كان يقصد من آخر حديثه أبعد مما كان يبدو للوهلة الأولى.

– "كيف؟" سألت، وقد أخذت تستشعر الإجابة قبل أن تأتي.

– "جُردت المناسبات الدينية من معانيها الروحية، ولُبست أثوابا مــن الاحتفالــية، فأصبح رمضان مثلا هو شهر الفوانيس والأغاني، ولــيس شــهر الصوم، والعبادة... أصبح العيد مقرونا بالمأكولات، ولــيس بالطاعات، بل إنه أصبح لكل مناسبة دينية أكلة تختص بها، مــثل كعــك عــيد الفطر، وفتة لحم عيد الأضحى، وعاشورية يوم عاشوراء، وحلويات شهر رمضان... جردت المعاني الروحية وحلت محلهــا معــان إستهلاكية بحتة من أجل انتزاع الدين من القلوب، ثم تحــويله إلى معتقدات شكلية لا قيمة لها، وتم تتفيه العقول من خلال شَغلها بالاحتفالات لكل ما يخطر للبال من مناسبة، لأجل شغل الناس عــن واقعهم، وما يجري من حولهم." صمت نعيم برهة، ثم بابتسامة خبيثة أكمل..." ألا زلت تعتقدين بأن التاريخ لا يعيد نفسه؟"

لــوهلة شعرت سمر القلوب، كما لو أنها تريد أن تصفع نعيم على وجهه..." هذا التافه، إلى ماذا يلمح بجملته الأخيرة؟"... ولكنها تماسكت بعد أن امتعض وجهها، وازدادت شفتاها إحمرارا من أثر العض عليها بأســنانها. أمــا نعيم، الذي شعر بارتباك جارته في الرحلة، فقد آثر أن يكتفي بهذا القدر من الحديث عن الفاطميين، وأن يعود مجددا إلى دفات كتابه؛ حتى تحط به الطائرة في وجهته التالية...

اســـتغرقت الرحلة نصف ساعة أخرى، ثم هبطت الطائرة في مطـــار بيـــروت الدولـــي... قـــام نعيم من مقعده، ثم اتجه نحو باب الطائرة، بعد أن أخذ حقيبته اليدوية، وفي ذات الأثناء تجمع عدد من رجال الدرجة الأولى حول سمر القلوب، مصافحين ومتباركين، وفي مخيلة كل منهم أن يحظى بشرف التعارف...

فـــي ظـــل هذا الجو من تكدس المعجبين، كان هناك رجل، من دون غيره، ينظر إلى نعيم بنظرات مملوءة بمزيج غريب من الغبطة والاحـــتقار. كان ذلك الرجل جالسا خلف نعيم وسمر طوال الرحلة، وقـــد استمع إلى ما دار من حديث بينهما. ظل يطالع إلى نعيم الذي خرج مسرعا من الطائرة، ثم تمتم في سره:

- "صحيح، يعطي الحلق للذي بلا أذنين!"

25

كانـــت الشمس قد اقتربت من المغيب، حين ركب نعيم الوزان السيارة المستأجرة، وطلب من السائق أن يأخذه إلى وادي نهر الكلب. لـــم يرغب في الذهاب إلى الفندق أولا، بل كان حماسه في أوجه، إذ شـــعر بأنـــه قد اقترب خطوة من فك لغز ذلك الخطاب الغريب الذي تركه نجم الدين غول!..

المغـــارة الغـــريبة بنهـــر وادي الكلب..." حتما هي مغارة جعيـــتا!" أخذ يفكر نعيم، تلك المغارة التي اكتشفها مبشر أمريكي يدعى وليام تومسون في أثناء رحلة صيد في أواسط القرن التاسع عـــشر. تذكر نعيم أنه في زيارة سابقة للمغارة، منذ عدة سنوات، كان قد استوقفه موضع يطلق عليه **مجمع الآلهة**. عندما حاول أن يعرف لم سمي هكذا، لم يجد إجابة شافية. ترك الموضوع، وشأنه، ولم يعره اهتماما بعد ذلك، ولكن هاهو ذا يعود مرة أخرى!... منذ أن قـــرأ الـــنص الكامـــل للخطـــاب الذي تركه نجم الدين غول، وبالـــتحديد عندما قرأ الجزء الذي يتحدث فيه عن قربان كان يقدم لإله تلك الجماعة، خطر على باله **مجمع الآلهة** بمغارة جعيتا..." لا يمكـــن أن تكون هذه مجرد مصادفة! هل من الممكن أن تكون هي ذاتها؟!..."

– "أســـتاذ نعيم، وصلنا إلى مغارة جعيتا." قاطع السائق سلسلة أفكار نعيم.

اســـتغرب بائع التذاكر من ذلك السائح الذي جاء قبيل انتهاء وقـــت الـــزيارة ببضع دقائق، وحاول إقناعه بأن يأتي غدا؛ حتى يتمكن من مشاهدة المغارتين السفلى والعليا، لكن نعيم لم يكن يريد

الانتظار، كانت وجهته محددة، وأراد أن يذهب إليها اليوم، وليس غدا...

أخذ التذكرة، ثم اتجه إلى المغارة السفلى... إلى **مجمع الآلهة**.

* * *

بالـــرغم من كونه قد دخل مغارة جعيتا من قبل، إلا أن نعيم ظل مشدوها لروعة التكوينات الطبيعية للصواعد والنوازل الكلسية التي كونت تضاريس جمالية متناغمة، كما لو أنها قد نحتت نحتا؛ لكـــي تضفي الروعة والجمال على المكان، ومع الإضاءة الخافتة، أصـــبح للمغـــارة طابع أسطوري، لا يوجد له مثيل في كافة بقاع الأرض...

لسبب ما شعر نعيم، كما لو أنه كان يدخل المكان لأول مرة، فنظرته لمغارة جعيتا كانت غير نظرة السائح الذي جاء لكي يرى روعـــة التضاريس التي خلفتها الطبيعة. هذه المرة، كانت نظرته وزيارتـــه تحمـــلان طابعا آخر... كان حماسه في أوجه لشعوره بالقـــرب مـــن ذات المكـــان الذي كان فيه، منذ قرن من الزمان، الـــرجل الـــذي شاهد ما لم يكن من المفترض أن يشاهده مخلوق لمناســـك جماعـــة لا يعـــرف عن وجودها غير المنتسبين إليها... جماعـــة اســـتطاعت أن تحافظ على سريتها مئات السنين، وربما أكثر!...

– "عفوا، ولكن انتهى وقت الزيارة." جاء صوت شاب نحيل لا يـــتجاوز العـــشرين من عمره، لكي يقطع حبل أفكار نعيم الذي كان يـــتأمل في مجموعة الصواعد التي سميت بمجمع الآلهة، في محاولة لاكتشاف أمر ما قد يفيد في فك بعض الطلاسم.

– "هل تعلم لماذا سميت هذه الصواعد بمجمع الآلهة؟" سأل نعيم غير مكترث بموعد إنتهاء الزيارة.

– "آه... كل ما هو معروف أنه اسم أطلقه أحد المستكشفين لهذا المكان في السبعينيات من القرن التاسع عشر... كان بودي أن أشرح لك أكثر تاريخ المغارة ولكن، مع الأسف، وقت الزيارة..."

– "السبعينيات من القرن التاسع عشر..." ردد متأملا ما قاله الشاب..." إذاً، مجمع الآلهة كان معروفا منذ ذلك التاريخ."

شيء ما كان في غير موضعه، أخذ نعيم يفكر، وقد شعر كما لو أن الضوء الخافت، الذي ظنه سيضيء له الطريق إلى الحقيقة، قد تلاشى؛ وفي محاولة يائسة سأل:

– "هل تعلم إن كان أمر اكتشاف هذا المكان قد أحيط بالسرية إلى ما بعد العقد الأول من القرن العشرين؟"

استغرب الشاب من هذا السؤال الغريب الذي لم يتلقه من قبل، بل إنه أخذ يشك في أن وراء هذا السائح الذي لا يرغب في الانصراف أمر ما قد يكون مريبا.

– "أنا فعلا آسف، ولكن وقت الزيارة قد انتهى، إن أردت المزيد من المعلومات فبإمكانك زيارتنا غدا... المغارة مفتوحة من الصباح، حتى هذا الوقت مساء."

شكر نعيم الشاب، ثم أخذ يتجه نحو المخرج، وقد أدرك لتوه أنه قد أخطأ تقدير المكان الذي يريده..." فإن كانت مغارة جعيتا قد اكتشفت في القرن التاسع عشر، وقد توافد المستكشفون على المكان منذ ذلك التاريخ، فكيف يمكن لجماعة مريبة، تقيم طقوسها بسرية قاتلة، أن تكون قد أقامت اجتماعا لها هنا في العام 1909، عشرات الأعوام بعد اكتشاف المغارة وذيوع صيتها. هناك خطأ ما، "أخذ نعيم يفكر..." لا بد أن نجم الدين غول كان يقصد مكانا آخر في خطابه غير مغارة جعيتا!... ولكن أين هذا المكان؟!... أين؟!..."

26

اتخـــذت لينا قرارا بأنه يجب عليها إخبار سعود عن شكوكها، فأمـــر مـــريب كان يحدث لفؤاد شوكت يبعث الشك في النفوس!... صـــورة أشـــعة حديثة تظهر وجود الورم الذي كان من مفترض أنه استؤصـــل قبل عدة أسابيع، والدكتور بيرسون يعزو ذلك الأمر إلى مجـــرد تغيـــرات ما بعد الجراحة... ثم حادث إصابة الدكتور لويد، والإتـــيان بأخِـــصَّائي أنسجة بديل هو في الوقت ذاته صديق للدكتور بيرســـون، وبعد ذلك فقدان عينة الورم... فكل تلك الأمور لا يمكن عزوها للمصادفة!...

كانـــت الحيرة تملأ لينا، وهي تستعرض الأحداث غير مصدقة لمـــا قـــد أخـــذ ينكشف أمامها، لدرجة أنها لوهلة ظنت أنها ربما قد أصـــيبت بوهم نظرية المؤامرة، وأنها أصبحت مثلها مثل المعتوهين الـــذين يعـــتقدون أن هناك دائما من يحيك المؤامرات للسيطرة على العالم، وعلى أقدار البشر!

لا بـــد مـــن الـــتحدث مع سعود..." ولكن أين هو؟! فالرجل لا يجاوب على جهاز النداء! وهاتفه الجوال مغلق!"...

راودت ليـــنا فكـــرة الذهاب إلى منزل سعود في أثناء ما كانت تشعل محرك سيارتها من داخل مرآب المستشفى، فالوقت لم يكن بعد قـــد تأخـــر؛ لكي تقوم بزيارة لمنزله الواقع في ضاحية مالدن، حيث يـــسكن العديد من المبتعثين السعوديين... نصف ساعة الطريق... لا بـــأس، وســـتخبره عـــن كل شكوكها... ففؤاد شوكت رجل طيب لا يـــستحق أن تغض الطرف عما يحدث له، ثم إن الرجل وضع كامل ثقته فيها، وفي سعود، ولا يمكن لها أن تخذله... ولكن، يبقى السؤال

الــذي لم تجد له إجابة، فلماذا يحدث له هذا؟ كيف يمكن لجراح في مكانــة الدكــتور بيرسون أن يقوم بمثل هذا الخطأ، ثم يداري خطأه بمــثل هــذه المؤامرة؟ كيف لم يكن الدكتور بيرسون أكثر حذرا في أثناء قيامه بإجراء عملية لأحد أهم متبرعي مستشفى بوسطن، لرجل أعمــال لــه من النفوذ، والصداقات ما ليس للكثير من رجال أعمال المدينة؟

هــذه التساؤلات، وغيرها أخذت تنهمر على ذهن لينا كزخات المطر في تلك الليلة من شتاء بوسطن العاصف، فجعلت الطريق يمر علــيها دون أن تشعر به، بالرغم من أن الزحام كان أكثر من المعتاد في مثل ذلك الوقت من المساء.

كان الشارع المؤدي للحي الذي يسكن فيه سعود يعج بالسيارات التــي كانت تسير ببطء شديد، وكأن حادثا قد وقع، فأعاق الطريق... حاولــت لينا أن تَلمَح من نافذة سيارتها سبب تلك العطلة، ولكن دون جدوى، فالزحام كان على امتداد البصر!...

بعــد نــصف ســاعة، استطاعت لينا بصعوبة شديدة أن تتبين الإضاءة المتقطعة لسيارات الشرطة في آخر الشارع... وشيئا فشيئا، مــع كــل مسافة كانت تقطعها سيارتها، أخذت تكتشف أنه لا وجود لآثار حادث، بل كانت هناك حواجز شرطة، وبجانبها عربات عليها أحــرف إستغربت من وجودها هنا في هذا المكان!... **FBI**... مكتب التحقــيق الفدرالي... كانت الحواجز أمام المنعطف الذي أرادت أن تسلكه، غالقة إياه!؟؟

– "عفوا، هل أنت من سكان الشارع؟" سأل أحد رجال الشرطة عند الحاجز.

– "لا، بــل جئت؛ لكي أزور زميلا لي في العمل." ردت لينا، وقد انتابها شعور شديد بالريبة.

– "آسف، لا يمكنك الدخول... هناك تحقيق جار."

- "ما الخطب؟ هل وقع حادث؟"

لم يجب الشرطي، واكتفى بالإشارة للينا؛ لكي ترجع بسيارتها، ومـــا كادت أن تعيد السؤال الذي لم تتلق عنه إجابة، حتى لمحت عن بعـــد كاميـــرات، وعربات المحطات التليفيزيونية، والإذاعية، فعلى الفور فتحت مذياع سيارتها على محطة الأخبار المحلية، والتي كانت فـــي وسط إذاعة الأنباء العاجلة االمتوافدة منذ ساعات... أخذت لينا تـــستمع في أثناء ما كانت تحرك سيارتها بعيدا عن منطقة الازدحام، ثم فجأة ضغطت على المكبح! فكادت تصطدم بها السيارة التي كانت تـــسير خلفهـــا... تغيرت ملامح وجه لينا لتصبح خليطا عبثيا ما بين الاستعجاب والفزع! ثم وصل الاضطراب إلى ذروته..." الاسم الذي نطق به مذيع نشرة الأخبار!... لا يمكن!... هناك خطأ ما!"

- "تـــود تذكيـــر المستمعين بالخبر العاجل... مكتب التحقيقات الفدرالـــية يـــؤكد القبض هذا الصباح على أحد المشتبهين بهم في مؤامـــرة تفجيـــر مطـــار بوسطن الدولي، وعلى ما يبدو أنه طبيب سعودي إسمه سعود النجيدي. سنوافيكم بالمزيد من التفاصيل، حين وصولها!"

27

يقـــال فـــي الأمثال إن كل ممنوع مرغوب، أو كما في بعض الأقوال، بعيد المنال مطلوب؛ هكذا هو الإنسان يبحث عما ليس لديه، ويـــتعفف عمـــا بـــين يديه... لماذا؟ لا أحد يدري... ربما هو ذلك الـــشعور بالتحدي الذي يبحث عنه بنو آدم، أو ربما هو ذلك الشعور بالملـــل مـــن كـــل مـــا هو "روتيني"، مما يجعل الإنسان يبحث عن المغامـــرة التي تخرجه من سأم الحياة بغض النظر عما قد تؤول إليه نتائج الأمور...

* * *

مـــرت الـــساعة تلو الأخرى، وجمال جداوي قابع في سيارته الكورفـــيت الزرقاء، على مسافة من باب مبنى نادي الروتاري. كان الانـــتظار مليئا بالذكريات والتأملات حول دلال رحال، بدءاً من أول لقـــاء بينهما على رصيف "البورتا بانوس" بمربيا إلى آخر مرة رآها فيها بحديقة الهايد بارك في لندن... كان شيء ما بداخله يؤكد له أنه سيراها الليلة، بل وقد يلتقي بها أيضا، كما كان شيء ما بداخله يريده أن يجـــيب علـــى السؤال الذي ظل يلح عليه، منذ أن رآها قبل عدة ليال، ذلك السؤال الذي كلما خطر على باله أزاحه واستبدل به ذكرى جمـــيلة مـــن ذكرياته معها، متفاديا بذلك الإجابة عليه... ولكن هذه المـــرة كـــان السؤال يلح عليه أكثر من العادة، وكان لا مناص من محاولـــة التفكيـــر في كيفية الإجابة عنه... فإن كانت هذه المرأة هي فعـــلا دلال، فمـــا الذي تفعله هنا في بوسطن؟ ولماذا لم تتصل به أو بأهلها منذ ثلاث سنوات إلى الآن؟!

"لا بـــد أن محاولة اختطافها أدت إلى نوع من فقدان الذاكرة... نعـــم، الـــصدمة كانت أقوى من أن تتحملها... ربما بعد ذلك تعرفت علـــى رجـــل رأف بحالهـــا... أتى بها إلى هنا... لا شك عندي أنه جـــورج روكفلر... كانت نظرته لي مريبة عندما التقيت به أنا ولينا، وأخبـــرناه عن المرأة التي رأيتها أمام نادي الروتاري... كيف عرف أنـــي أبحـــث عـــن زوجتي؟" ظل جمال يصارع أفكاره إلى أن فجأة توقـــف ذهنه عن التفكير، وأسرعت دقات قلبه، وهو يشاهد عن بعد الـــسيارة الـــبورش الصفراء، وهي تقف أمام مدخل نادي الروتاري الـــذي كـــان واقفا أمامه رجل لم ينتبه إليه جمال، حتى توقفت أمامه الـــسيارة، وقد بدأ بالسير نحوها، وكأنه كان ينتظر مجيئها؛ حتى تقله مـــن المكان... أمعن جمال النظر في الرجل، وهو يركب السيارة... لقد رآه من قبل... شكله ليس بالغريب... ولكن أين رآه؟... أين؟... وفجأة تذكره... فرانك روكفلر!...

أقبلت السيارة البورش نحو جمال الذي حاول إمعان النظر فيمن كان وراء عجلة القيادة، ولكن ضوء الكشافات كان ساطعا في عينيه، فلـــم يـــستطع أن يتبين إلا جانبا من وجه امرأة بدت له شديدة الشبه بالتي رآها تلك الليلة...

"إنهـــا حـــتما هي!... دلال!"... ودون أدنى تردد، أدار عجلة سيارته، وأخذ يتتبع السيارة البورش الصفراء.

28

تــوقفت سيارة جمال جداوي أمام فيلا مسورة أنيقة في منطقة نيوتن، الضاحية الثرية لمدينة بوسطن. ظل مترددا هل يذهب، ويدق جــرس المنزل الذي دخلت إليه المرأة مع رفيقها؟ ولكن كيف سيقدم نفسه؟ ماذا سيقول؟...

في ذات الأثناء توقفت سيارة خلفه، وخرج منها رجب غول الذي أخذ يتوجه نحو هاتف عمومي على الرصيف المقابل للمنزل. وضع السماعة على أذنه، وكأنه كان يتحدث مع شخص، في حين أنــه كــان يخاطــب نفسه، وهو ينظر إلى الفيلا التي دخلت إليها الــسيارة البورش الصفراء التي ظل يتتبعها، منذ خروج صاحبتها من الفندق:

"مــن تكونين يا ترى؟ إحدى عشيقات كمال أغلو أم أن المسألة أبعد من ذلك؟ ومن هذا الذي دخلت معه المنزل؟ زوج مخدوع؟ حتما زوج مخــدوع تخونينه... فيبدو عليك أنك امرأة خائنة، وإلا ما الذي جمعــك بشخص وضيع على شاكلة كمال أغلو، فالخائنون للخائنات، والطيور على أشكالها تقع..."

ظــل رجب في سلسلة تأملاته هكذا، حتى تنبه على حين غرة برجل يخرج من السيارة التي كانت قد توقفت أمامه، متجها نحو باب سور الفيلا...

– "من؟" جاء صوت عبر نظام الاتصال الداخلي الملحق بجرس السور.

– "اســمي جمال جداوي... أريد مقابلة دلال..." كان جمال قد قرر أنه لا مناص من المواجهة!

– "عفــوا، ولكــن يبدو أنك مخطئ في العنوان، فلا يوجد هنا شخص بهذا الاسم."

– "أريد مقابلة صاحبة البورش الصفراء، التي دخلت مع فرانك روكفلر!"

– "لحظة من فضلك."

بعــد أقل من دقيقة فتح باب السور، مؤذنا لجمال بالدخول فأخذ يتوجه على فور إلى الباب الداخلي للمنزل، وقد شعر أن ساعة الحسم قد أتت وأنه سيتأكد من كون هذه المراة التي رآها هي دلال... ولكن ماذا سيقول لها إن كانت فاقدة للذاكرة؟..." أنا زوجك الذي فقدك في شــهر العــسل؟!... أنــت امرأة سعودية ولك أهل بجدة؟!... اسمك الحقيقــي هــو دلال رحــال، ابــنة رجل الأعمال المعروف سمير رحــال؟!..." كــان مــع كــل خطوة يخطوها يشعر، وكأن الطريق الحجري داخل الحديقة يزداد طولا، ولا يريد أن ينتهي..." أخيرا، ها هي ذي عتبات الباب!"

مــا إن وصــل حتى كانت الخادمة قد فتحت له الباب، مرحبة بالزائر الذي جاء دون موعد.

– "السيد روكفلر ينتظرك في حجرة المكتب، اتبعني رجاء..."

قــادت الخادمة جمال عبر ردهات المنزل الذي كان أوسع مما يــبدو علــيه من الخارج. طرقت على باب مغلق، ثم فتحته مشيرة للزائر بالدخول.

– "دكــتور جمال، تذكرت الإسم عندما أخبرتني إميلدا بأنك في الخارج، وترغب في مقابلة دولي زوجتي." قال فرانك دون أن يخفي تعجبه لهذه الزيارة غير المتوقعة.

– "نعــم... أنا... لا أدري كيف... أبدأ..." كان الحرج الشديد واضــحا علــى جمال الذي كأنه فجأة تنبه إلى مدى حرج الموقف، خاصة وأن المسألة قد تعقدت بوجود زوج في الصورة.

– "مع الأسف دولي مرهقة، ولا تستطيع مقابلة أحد الآن، ولكن باستطاعتك التحدث معي إن كان الامر مهما."

لـــم يعـــرف جمال كيف يبدأ حديثه... كيف يخبر فرانك بأن دولـــي هـــي دلال، وأنهـــا متـــزوجة مـــنه هو، وبناء عليه يريد استردادها!...

– "هـــل تـــسمح، وتخبرنـــي كيف تعرفت على دلال... أقصد دولـــي؟" قال بعد أن استجمع كل قطرة من قطرات مخزون الشجاعة لديه.

– "عفـــوا!... ومـــا شأنك أنت بهذا الأمر؟" أبدى فرانك دهشة شديدة، ولكن جمال لاحظ بعض علامات القلق، مما جعله يشعر بأن ســـؤاله قـــد أصاب وترا حساسا! أخذ يفكر في أن فرانك حتما يخفي شيئا!... يخفي دلال!

– "ربمـــا مـــن الأفضل أن تنادي دلال... نعم دلال، هذا هو إسمها الحقيقي... كونها فاقدة للذاكرة لا يعني أنها لم تكن لها حياة قـــبل أن تلتقـــي بـــك... نعـــم، فدلال لها أهل، ولها زوج يحبها، وتحبه!" وصل حد الانفعال بجمال، لدرجة أن صوته كاد يسمع كل من في البيت! كل هذا على مرمى سمع وبصر فرانك الذي وقف، غير مصدق لما كان يحدث، مندهشا من المشهد العبثي الذي وجد نفسه فيه!

– "أنـــت حـــتما مجـــنون!... اخـــرج من هنا، وإلا استدعيت الشرطة!"

– "لن أخرج قبل مقابلة دلال!... من حقها أن تعلم الحقيقة!"

– "عـــن أية حقيقة تتحدث؟!... أنت بحاجة إلى طبيب نفسي... ما تقوله هو مجرد توهمات... دلال ليست دولي!"

مـــا إن فرغ فرانك من جملته، حتى فتح باب الحجرة، ودخلت امـــرأة جميلة سمراء ذات شعر أسود طويل، كانت هي التي شاهدها

جمـــال عـــن بعد! كاد للوهلة الأولى أن يصرخ اسمها، متجها إليها معانقـــا، ولكن سرعان ما تدارك نفسه إذ بالرغم من الشبه الكبير... إلا أنها لم تكن دلال!

– "ما الذي يجري؟... لماذا كل هذا الصراخ؟" تساءلت دولي، مـــتجهة نحو زوجها، وقد أخذت تمعن النظر في هذا الزائر الغريب، وكأنها كانت تُشبِّه عليه.

– "هـــذا المعـــتوه يعـــتقد أنك إمرأة يعرفها اسمها دلال!!" كان غضب فرانك قد وصل إلى ذروته.

– "دلال..." رددت دولي، ثم نظرت إلى جمال، وسألته..." من أنت؟"

– "عفـــوا... اسمي جمال جداوي... أنا آسف... يبدو أن سوء تفـــاهم قد حدث، وحسبتك شخصا آخر..." أخذت الكلمات تخرج منه بـــشكل متلعثم، وقد شعر بمدى حماقة الموقف الذي وضع نفسه فيه، نتيجة لاندفاعه، وعدم تأنيه.

– "دلال هذه التي حسبتني إياها... هل هي امرأة تحبها؟" سألت دولي في محاولة لتهدئة الموقف.

– "نعـــم، هي أيضا زوجتي... أنا في غاية الأسف... لا أدري ماذا أقول..."

– "ما الذي تعتقد أنه جرى لها؟"

– "دولـــي، مـــا الداعي لكل هذه الأسئلة الآن؟" قاطع فرانك الذي شعر بأنه يجب عليه إنهاء هذا المشهد الغريب على الفور..." فالأمـــر كلـــه عبارة عن سوء تفاهم غير مقصود، على العموم يا دكـــتور جمال قد تفهمنا موقفك، ولكني أعتقد أنه من الأفضل أن تذهب وترتاح الآن؛ بل من الأفضل لنا جميعا أن ننسى كل ما قد جـــرى اللـــيلة؛ تفاديـــا لأية شوشرة إعلامية، وخاصة أنني على مشارف انتخابات..."

– "أهــذا كــل ما يهمك؟! انتخابات! مستقبلك السياسي! سئمت منك، ومن الانتخابات!" انفجرت دولي فجأة بالصراخ على مرمى من جمال الذي شعر بأنه ربما قد حان الوقت، لكي ينسحب!

* * *

نظــر رجب غول نحو ذلك الشاب النحيل ذي الملامح العربية، وهو يخرج مسرعا من الفيلا متجها نحو سيارته الرياضية بعد مضي أقــل من نصف ساعة منذ أن دق جرس الباب، ولكنه لم يعر الأمر اهــتماما كبيرا، فقد كان هناك ما هو أهم بعد أن استطاع في أقل من ثلاثــين دقــيقة أن يتوصــل إلى معرفة شخصية تلك المرأة صاحبة المنزل، والرجل الذي كان معها...

ابتــسم رجــب، وقد شعر بأن القدر لا يزال يلعب في صالحه، وكأنه قد كتب له أن تتيسر جميع أموره، حتى يتمكن من عدوه الذي ظل طوال تلك السنين يخطط لأفضل طريقة للقضاء عليه!...

كل ما كان عليه أن يفعله رجب هو أن ينظر حوله، ليجد منزلا مجاورا معروضا للبيع. اتصل بمكتب العقار المدون رقمه على لوحة البــيع المغروزة في الحديقة الأمامية... ردت عليه عاملة السنترال، وأخبــرته أن ساعات الدوام قد انتهت، فأخبرها بأنه على عجل، فهو رجــل أعمــال من كندا وينوي الإقامة في بوسطن وقد أعجبه ذلك المنــزل الواقع في شارع الشمس بمنطقة نيوتن، ويريد أن ينهي كل شــيء الليلة قبل أن يسافر غدا في رحلة عمل قد تستغرق أسابيع... كان رجب يعلم جيدا أن في أمريكا لغة المال هي السائدة، ومن أجل الدولارات تفتح الأبواب، وتمتد ساعات العمل...

علــى الفــور أخــذت رقم جواله، ولم تمر دقيقة، حتى جاءته مكالمة عاجلة من العقاري المكلف ببيع المنزل!

– "السيد كمال؟"

– "نعـــم هـــذا أنا." ابتسم رجب، وقد استخدم اسم غريمه؛ حتى تكـــتمل ســـخرية الموقف، فمثلما استخدم قبل ذلك جواله لجعله أداة تصنت، ها هو يستخدم اسمه لمعرفة شخصية عشيقته!

– "أنـــا مايكل أورالي مندوب عقار المنزل الذي أعجبك بشارع الشمس... في الحقيقة هو منزل جميل، وعليه طلب كبير، من الجيد أنك اتصلت بي الآن، ولم تفوت الوقت."

– "المنـــزل جمـــيل جدا، وفي منطقة هادئة... هذا هو طلبي. المـــال لا يشكل بالنسبة لي أي عائق، ولكن قبل كل شيء، أريد أن أعرف من هم الجيران؟"

– "بكل تأكيد، هذا شيء مفهوم جدا."

أخـــذ مندوب العقار يخبره عن أسماء الجيران ووظائفهم، لكي يبـــين له مدى عراقة السكان، فعرف منه رجب كل ما كان يريد أن يعلمه...

اسمها دولي روكفلر زوجة رجل الأعمال، والمرشح الجمهوري لإنـــتخابات مجلـــس النواب المقبلة، فرانك روكفلر، نجل الملياردير جورج روكفلر.

– "يـــا لهـــا مـــن مـــصادفة جميلة، فأنا صديق جورج، والآن سأصبح جارا لابنه."

– "فعلا دنيا صغيرة... وليس هذا فقط، ولكن دولي أيضا مثلك ذات أصول عربية."

– "أنا لست عربيا... أنا تركي!"

أغلـــق رجـــب جـــواله بعد أن أخذ كل المعلومات التي كان بحاجـــة إليها... ركب سيارته، ثم انطلق بها والابتسامة لم تفارق وجهه.

* * *

اســتلقى جمـــال على الأريكة فور دخوله لشقته. شعر بصداع شـــديد يعصف برأسه، بعد تلك المغامرة الفاشلة، تلك المغامرة التي أحســـسته، بعد طي صفحاتها، بأنه قد فقد الكثير... فقد الأمل، وفقد لينا، وفقد كرامته، بعد أن تهجم على فرانك في منزله؛ لكي يقنعه بأن زوجته هي دلال!

"كان يجب علي أن أتاكد قبل اقتحام الفيلا!" أخذ جمال يفكر..." ولكن الشبه من بعيد!... كأنها هي!... يا ليتها كانت هي..."

غفـــت عيناه قليلا، ولكن سرعان ما استيقظ عندما رن جواله. حـــاول تجاهل المكالمة، ولكن المتصل عاود مرة ثانية، وثالثة؛ كان مصرا على أن يتلقى ردا!

– "ألو، مساء الخير جمال." جاء صوت لم يكن بالغريب.

– "مساء الخير، من؟"

– "أنا سمير رحال..." قال بنبرة حزينة، ثم صمت قليلا قبل أن يكمـــل... "ســـكوتلاند يـــارد اتـــصلت بي... عثروا على جثتها يا جمال!... عثروا على جثتها!" ثم أجهش بالبكاء.

– "جثة من؟!... لا... لا يمكن... دلال؟!"

مـــرت دقـــيقة، وطرفا المكالمة في صمت عميق، دون إغلاق الخـــط، وكأنهمـــا كانا يتأملان هول الخبر... ثم تمالك سمير نفسه، وأخذ يكمل حديثه:

– "اتـــصلت بي شرطة سكوتلاند يارد البارحة، بعد أن تأكدوا مـــن هـــوية الجثة... كلفت المحامي في لندن بالقيام بجميع إجراءات نقـــل الجثمان إلى جدة... أردت أن أخبرك، لكي تحضر العزاء، إن كانت لديك رغبة."

رمـــى جمال الجوال على الأرض بعدما فرغ من المكالمة، وقد شعر بألم شديد، ألم فقدان دلال مرة أخرى!

29

كـــان "كورنيش" الروشة يعج بالناس كعادته في ذلك الوقت من اللـــيل، ممتلـــئا بأهالي بيروت من كافة الطبقات، ميسورو الحال في المطـــاعم، والمقاهي الفاخرة؛ الأرجيلة في اليد اليسرى والكأس في الـــيد اليمنـــى، وأمـــا الغالبية المطحونة، فكانوا يكتفون بالسير على الأرصـــفة، متناســـين في تلك اللحظات البسيطة هموم يومهم الشاق الـــذي كـــان يزداد شقاء عن سابقه، وفي وسط كل هؤلاء كان هناك مزيج ممن أتوا من خارج لبنان للاستمتاع بكل ما لَذَّ وطاب من أمور قد لا تكون متوفرة بالشكل اليسير في بلدانهم...

آثـــر نعـــيم الوزان أن يسير ماشيا على الرصيف، مستلهما من صـــوت الأمواج، التي كانت تتصدى لها الصخور، حالة تأمل يراجع من خلالها آخر مستجدات الأمور...

ظل يراجع مرة تلو الأخرى النسخة التي كانت معه من خطاب نجـــم الدين غول، وبالأخص الجزء الذي كان يتحدث فيه عن مكان وقـــوع الحدث... **مغارة غريبة في وادي نهر الكلب**... هكذا وصف المكـــان. ولكـــن عـــن أية مغارة كان يتحدث، إن لم تكن هي مغارة جعيـــتا، فالمـــنطقة معروفة الآن، ولا توجد أية مغارات أخرى؛ في الـــوقت ذاته، مغارة جعيتا كانت قد اكتشفت قبل تاريخ كتابة الرسالة بعـــشرات السنين، بما يعني أنها حتما كانت معروفة لدى نجم الدين غول الذي كان يسكن في تلك المنطقة، ثم أنه من المستحيل أن تقوم جماعة سرية خطيرة بعقد اجتماع في مغارة يتوافد عليها المستكشفون مـــن كل حدب وصوب... عن أية مغارة إذاً كان يتحدث نجم الدين غول؟!...

ســـاعة مـــن الـــزمان مضت، بعدها وجد نعيم نفسه أمام فندق الفنيسيا، وقد قرر أن يمنح ذهنه قسطا من الراحة، بعد أن عصفت به التـــساؤلات. أخـــذ يـــتجه نحو البوابة المظللة، وقد شد انتباهه لافتة بالحجم الكبير تعلن عن احتفال بعلبك الذي ذكرته سمر القلوب:

مجموعة سمير رحال تقدم

احتفال القرن

احتفال بعلبك

بمشاركة نخبة من نجوم العالم

2009/12/25

تذكر نعيم أن تلك اللافتة لم تكن هي الوحيدة التي رآها منذ أن قـــدم إلى بيروت، بل كانت أغلب شوارع المدينة مليئة بالملصقات، واللافـــتات المعلـــنة عن هذا الحدث العظيم! ابتسم على الفور، وهو يستعيد ما حدث قبل ساعات في الطائرة، عندما حاولت سمر القلوب أن تتكـــرم علـــيه بدعوة للحفل، وكيف أنه رد لها الجميل بدرس في الـــتاريخ عن الدولة الفاطمية، واستخدامها للفن من أجل تغييب عقول العامة وتتفيهها!...

دخل بهو الفندق الذي كان مكتظا بالناس من رجال ونساء، من كافـــة الأقطار العربية، في مجموعات متناثرة تجمعها رغبة واضحة فـــي إظهار ثراء الملبس والحلي، وكأن اتفاقا مسبقا غير مكتوب قد جمع بين الرجال، والنساء في هذا المكان بأن يُظهر كل فرد منهم ما أوتـــي مـــن نعم المال والجمال. فالنساء كن حريصات على إظهار مفاتـــنهن الطبيعـــية التي خلقن بها، وغير الطبيعية التي أضفنها عبر مبـــضع الجـــراح. أما الرجال، وإن كان بعضهم يشاطر النساء في الاعـــتماد علـــى اظهـــار بعـــض الجمالـــيات، إلا أن أغلبهم كانوا يستعيـــضون بالتركيـــز علـــى قوة المال، وما يمكنه من شراء تحف الملبس والمعشر...

جلـس نعـيم علـى طاولة كانت قد خلت للتو، وبعد أن طلب عـصير البرتقال الطازج، أخذ يفكر مرة أخرى في خطوته التالية... هل يذهب مرة أخرى إلى مغارة جعيتا في الصباح؟ ولكن ما الجدوى مـن ذلـك، إن لم تكن هي المغارة المقصودة؟... كان هناك شعور ينتابه بأنه قد أغفل النظر إلى أمر ما مهم، ولكن ما هو؟ أخذ يراجع مـرة أخـرى كل ما كان يعلمه، وكل ما قد توصل إليه، منذ زيارة جاسم الفراج له في كوالالمبور إلى تلك اللحظة، خطوة بخطوة، فلعله يكتـشف أمـرا مـا قـد فاتـه، أو لم يعره انتباها، في خضم سيل الأحداث... كانت هناك خطوط كثيرة قد أخذت تتشكل؛ وكل خط من هذه الخطوط قد يشكل مدخلا لحل لغز ما رآه نجم الدين غول، ودَوّنه فـي خطابه، أو قد يشكل طريقا مسدود النهاية... بدأت هواجس نعيم تتـزايد، فمـاذا لو أن ما سمعه من طلعت نجاتي، عن الطرد الذي أرسـله موشـي جولد إلى بوسطن، لا يتعلق بمهمته الأساسية؟ أخذ يـشعر بالقلـق!... ماذا لو أن السر الذي اكتشفه نجم الدين غول قد مات بوفاته؟! فمئة عام قد مرت على كتابة ذلك الخطاب، أمور كثيرة قد تحدث في قرن من الزمان! فما بالك بخطة ما، في مدينة ما، من أجـل القيام بشيء ما، من قبل جماعة ما؟! مئة عام كفيلة بتغيير كل شيء... هذا إن كانت هناك بالفعل خطة لفعل شيء ما! فكل ما ورد في خطاب نجم الدين غول قد يكون في نهاية المطاف مجرد تهيؤات رجـل قتلته وحدة المكان؛ حتى وإن كان ما جاء في الخطاب يحمل مـضمونا صـحيحا، فجماعة في غاية من التنظيم والموارد كالعروة الوثقـى لم تستطع فك طلاسمه، فما الذي سيجعله يستطيع هو بمفرده أن يتوصل إلى ما لم يتوصلوا هم إليه؟!...

لأول مرة بدأ يتشكك نعيم في قدرته على السير في هذا الدرب الوعـر، لأول مرة أخذ يتساءل عن السبب الذي جعله يترك أعماله، ويقـبل هـذه المهمـة الغريبة! ربما كان طلعت محقا عندما نصحه

بالالـــتفات لعملـــه، وتـــرك كل هذه الأمور... مدينة حَدَاد!... عودة الغائب!... جماعة تتحدث بالأرامية في طقوسها!... ثم فجأة تذكر ما قـــيل لـــه عـــن كون هذا الأمر هو آخر ما بحثه أستاذه الدكتور عبد القادر بنوَزَّاني! فهل كان عليه إنهاء ما بدأه أستاذه الذي مات ضحية لبحثه عن الحقيقة؟ ولكن إن كان الأمر يتعلق بوفائه لأستاذه، أو ليس مـــا كـــان يخطـــط له، قبل أن يلتقي بجاسم الفراج، هو نوع من رد الاعتـــبار لـــه وللدكتور عبد القادر؟... فؤاد شوكت!... أوليس هو الشخص المسؤول عن كل ما حدث منذ ثلاثة أعوام؟!

شيئا فشيئا أخذ نعيم يستعيد ذكرى كرهه لغريمه... أخذ مجددا ذلـــك الكره يتملكه، ويسيطر على تفكيره، منسيا إياه كل ما عداه... كانت خطته التي رسمها في غاية الروعة والبساطة... مجموعة من المحافظ التي يمتلكها عدد من رجال الأعمال الماليزيين الراغبين في جنـــي الأربـــاح والانتقام مما حدث لهم إبان انهيار أسواق المال في جـــنوب شرق أسيا في أواخر التسعينيات. ذلك الانهيار الذي حمّلوا مسؤوليته الدول الغربية، وعلى رأسها الولايات المتحدة، لرغبتها في كـــبح جمـــاح الـــنمور الآسيوية... استطاع نعيم عن طريق شريكه الماليـــزي، الذي يحظى بتقدير وثقة الكثيرين من رجال الأعمال في ماليـــزيا، أن يتولى الإشراف على عدد من المحافظ التي بمجموعها أصـــبحت تـــشكل محركا لا يستهان به في أي سوق للأوراق المالية تدخله... كان المطلوب هو أن تشتري، على مدار العام، هذه المحافظ بكمـــيات مـــتفاوتة، دون أن تلفت الانتباه، أسهم شركات فؤاد شوكت المدرجـــة فـــي سوق الناسداك الأمريكية. كان عدد المحافظ، والمدة الزمنية التي تمت في خلالها عمليات الشراء، كفيلا بجعل المحللين لا يشكون في أن شخصا واحدا هو الذي يقود عمليات التجميع على تلك الأسهم، وبعد أن اشترى نعيم ثمانين بالمئة من الكمية التي كان يطمح بـــشرائها، سُـــرِّب خبر للأسواق بأن المحافظ الماليزية تبدي اهتماما

خاصـــا بأسهم تلك الشركات. كان نعيم يدرك من خبرته السابقة أن ســـوق الأســـهم يعتمد على الشائعات في المقام الأول، وقد دعم تلك الـــشائعات بشرائه بشكل مكثف ما تبقي من الحصة التي كان مقررا أن يـــشتريها، وبأسعار مرتفعة، مما أدى إلى تضخم غير مبرر في أسعار الأسهم... كان في أثناء ذلك نعيم يبيع من الحصة التي سبق، وأن اشـــتراها ســـابقا بأســـعار زهيدة، كما استفاد من أوامر الشراء بالأجـــل التي كان قد وضعها منذ عدة أشهر... النتيجة؟... رد رأس مـــال المستثمرين زائد نسبة أرباح ممتازة، مع تبقي كمية من الأسهم ليست بالهينة كان ينوي في اللحظة المناسبة أن يلقي بها في الأسواق بأسعار زهيدة، فيصيب ذلك ذعر المساهمين الأفراد الذين سيلقون هم بدورهم بما يمتلكون من الأسهم، فيحدث الانهيار على مرآى من فؤاد شـــوكت الذي لن يكون بمقدوره فعل أي شيء... ولكن متى ستأتي تلك اللحظة؟... كان نعيم يتخيل ذلك اليوم الذي سيذهب فيه إلى فؤاد شـــوكت، ويخبـــره بأنـــه هـــا هو بعد ثلاثة أعوام سيرد له الصاع صـــاعين؛ انـــتقاما له وللدكتور عبد القادر... تخيل الخوف الذي ســـيبديه فؤاد شوكت، وهو يستمع إلى الجملة التي أعدها خصيصا لكي يقولها له:

– "شر الأعمال تلحق بأصحابها عاجلا أم آجلا. أردت فقط أن أخبـــرك، وجها لوجه، بأن ما ستشهده من انهيار لأسهم شركاتك هو من صنيعتي أنا!"

أخـــذت النشوة تملأ نعيم في أثناء ما كان يتخيل علامات الأسى التـــي ســـيبديها فؤاد، وهو يرى كل شيء ينهار من حوله، دون أن يـــستطيع فعـــل شيء؛ حتى بيع أسهمه، لكي يقلل من الخسارة، لن يستطيع فعله، فالقانون الأمريكي يحتم على أعضاء مجلس الإدارة أن يعلـــنوا عن نيتهم للبيع قبل شهر من طرح أسهمهم..." معنى ذلك أن فؤاد لن يستطيع البيع إلا بعد فوات الأوان!"...

ابتسامة ماكرة أخذت تفرض نفسها على وجه نعيم الوزان، وهو يتخـيل وقع الحدث على فؤاد شوكت..." هذا ما ينبغي لي أن أركز فـيه الآن، "أخـذ يفكر..." وليس في أمر خطاب كتب منذ قرن من الزمان لم يستطع من هم أكثر مني خبرة فك طلاسمه! نعم، سأذهب بعـد غد إلى بوسطن، وفور وصولي سأذهب إلى مقر فؤاد شوكت. ستكون زيارة مفاجئة، وعلى مسمع ومرأى منه، سوف أجري اتصالا هاتفيا بشريكي أنور؛ لكي يبدأ بعملية إلقاء الأسهم إلى القاع!"

30

فـــي وسط الظلام الدامس، أخذ نعيم الوزان يشعر بالماء يغمر قدميه العاريتين... أين هو؟ وكيف جاء إلى هنا؟ أخذ يتساءل، محاولا أن يتبـــين مكانه، وقد بدأت عيناه تتأقلم على قلة الإضاءة. شيئا فشيئا أخـــذ يتنبه إلى مكان تواجده... كان هو ذاته الكهف... الماء وصل الآن إلـــى ركبتـــيه!... ســـمع صراخا آتيا من بعيد!... ما هذا الذي يـــسطع عـــن بعد؟ هل هو مخرج الكهف؟ كأن الصراخ قادم منه... جرى نحو النور المنبعث من بعيد، وما كاد يصل حتى لقي ما حاول تجاهلـــه... لقي الطوفان!... جرفه الماء كما كان يجرف العديد من النـــساء والـــرجال... عـــرف الآن سبب الصراخ!... حاول مقاومة الغرق، فالماء كان في كل مكان. حاول أن يمسك بصخرة يقاوم بها ذلـــك الـــسيل العارم، ولكن دون جدوى! كان الطوفان يسير به إلى حـــيث لا يعلـــم؛ وفجأة، وقد ملأه اليأس، انحسر الماء، ووجد نفسه خـــارج الكهف وانقلب البرد إلى حر شديد. سطوع الشمس الحارقة جعـــل العرق يتصبب من كل رقعة من جسده، وكأنه شلال منهمر. فجـــأة تنـــبه إلـــى حـــرقة شديدة منبعثة من قدميه المكشوفتين وسط الـــرمال!... مـــا الذي أتى به إلى هذه الصحراء القاحلة؟ حاول أن يتحرك لعله يجد واحة يستنجد بظلالها، ولكنه لم يستطع؛ كانت قدماه مكبلتـــين إلى الأرض! من أين أتت هذه الأغلال؟ حاول أن يتخلص مـــنها بكـــل مـــا أوتي من قوة وغضب، ولكن مع كل محاولة كانت الأغـــلال تـــزداد ضراوة، وكأنها كائن حي يستمد قوته مع كل ذرة غضب كانت تنبعث منه!... أخذ يصرخ.. ويصرخ.. ويصرخ!... لا بـــد من فك هذه الأغلال!... ومع مرور الوقت تهالك على الأرض،

وقــد خــارت قــواه، وبدأ اليأس يستبدل الغضب، فقرر الاستسلام لمصيره المحتوم...

- "مع... ع... را..."

تنبه نعيم إلى صوت قادم من بعيد، كان صوتا مألوفا سمعه من قبل... أخذ ينظر إلى الأفق البعيد، وإذا هو يرى شبح رجل قادما من بعــيد... شــيئا فــشيئا أخــذ ذلك الشعور باليأس الممزوج بقطرات الغــضب ينكشف عنه... بدا كلام الرجل أكثر وضوحا، كلما اقترب مــنه... كانــت عبارات تتكرر، بل كانت أعمق من مجرد عبارات! كانت...

- "ألــم نشرح لك صدرك.. ووضعنا عنك وزرك الذي انقض ظهرك... فإن مع العسر يسرا... إن مع العسر يسرا... فإذا فرغت فانصب... وإلى ربك فارغب.."

ســمع نعــيم الآيات يرددها صوت مألوف يقترب منه. تبين له شكل الرجل القادم، وقد حجب بجسده الممشوق ضوء الشمس الساطع الــذي كــان، من شدة وهجه يمنعه، من رؤية ما حوله... تبين لنعيم علــى الفــور صاحب الوجه المستدير الميال إلى الحمرة ذي اللحية السوداء الخفيفة.

- "دع عنك الأغلال!" قال خليل الوزان بصوت حازم.

- "ولكني... غير قادر." أجابه نعيم، وقد شعر بالخجل من جده الذي كان يراه على هذا الحال.

- "دع عنك الأغلال!"

- "كيف؟"

- "أطفئ ناره..."

استيقظ نعيم على صوت أذان الفجر المنبعث من هاتفه الجوال، وقــد شــعر بــدقات قلبه تطرق بقوة على صدره المبتل من العرق، وكأنه كان بالفعل يقاوم أمواج عاتية تلقيه ذات اليمين، وذات الشمال!

قـــام من سريره، ثم أخذ يتجه نحو الحمام... وما إن لمس الماء الدافـــئ كفيه، حتى بدأ يشعر بسكينة تملؤه. أكمل وضوءه، ثم ذهب قرب سريره، إلى السجادة المفرودة باتجاه القبلة...

– "الله أكبـــر الله أكبر، أشهد أن لا الله إلا الله، أشهد أن محمدا رسول الله، حي على الصلاة، حي على الفلاح، قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله."

رفع يديه قرب رأسه...

– "الله أكبر..."

ثم اخفضهما...

– "بسم الله الرحمن الرحيم... الحمد لله رب العالمين.. الرحمن الرحيم.. مالك يوم الدين.. إياك نعبد وإياك نستعين.. اهدنا الصراط المستقيم.. صراط الذين أنعمت عليهم.. غير المغضوب عليهم.. ولا الـــضآلين..آمين... ألم نشرح لك صدرك.. ووضعنا عنك وزرك.. الذي أنقض ظهرك.. فإن مع العسر يسرا.. إن مع العسر يسرا.. فإذا فرغت فانصب.. وإلى ربك فارغب."

رفع يديه قرب رأسه...

– "الله أكبر."

ركع...

– "سبحان ربي العظيم.. سبحان ربي العظيم.. سبحان ربي العظـــيم.. ســـبوح قدوس رب الملائكة، والروح... سمع الله لمن حمده"

وقف...

– "ربـــنا، ولـــك الحمد... يا ربنا، لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك، وعظيم سلطانك... الله أكبر."

سجد...

- "ســبحان ربـــي الأعلى، سبحان ربي الأعلى، سبحان ربي الأعلـــى.. اللهم أرنا الحق حقا، وأرزقنا اتباعه، وارنا الباطل باطلا، وارزقنا اجتنابه.. الله أكبر."

رفع رأسه...

- "رب اغفر لي، ولوالدي... الله أكبر."

سجد...

- "ســبحان ربـــي الأعلى، سبحان ربي الأعلى، سبحان ربي الأعلـــى.. رب اشرح لي صدري، ويسر لي أمري، واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي... الله أكبر."

قام...

- "بسم الله الرحمن الرحيم.. الحمد لله رب العالمين.. الرحمن الرحيم.. مالك يوم الدين.. إياك نعبد، وإياك نستعين.. اهدنا الصراط المـــستقيم.. صراط الذين أنعمت عليهم. غير المغضوب عليهم.. ولا الـــضآلين..آمين... قل أعوذ برب الناس.. ملك الناس.. إله الناس.. مـــن شر الوسواس الخناس.. الذي يوسوس في صدور الناس.. من الجنة والناس... الله أكبر"

ركع...

- "ســبحان ربـــي العظيم، سبحان ربي العظيم، سبحان ربي العظـــيم.. ســبوح قدوس رب الملائكة، والروح... سمع الله لمن حمده."

وقف...

- "ربـــنا، ولـــك الحمد... يا ربنا، لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك، وعظيم سلطانك.. الله أكبر."

سجد...

- "ســبحان ربـــي الأعلى، سبحان ربي الأعلى، سبحان ربي الأعلـــى... ربي، أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي، وعلى

والـــدي، وأن أعمـــل صـــالحا ترضاه، وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين... الله أكبر."

رفع رأسه...

- "رب اغفر لي ولوالدي... الله أكبر."

سجد...

- "ســـبحان ربـــي الأعلى، سبحان ربي الأعلى، سبحان ربي الأعلى... اللهم نور بصيرتي، وسدد خطاي، وأعني على نفسي؛ إن النفس لأمّارة بالسوء... الله أكبر."

رفع رأسه...

- "التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك يا أيها النبي ورحمة الله وبركاته، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا الله إلا الله وأشـــهد أن محمـــدا عبده ورسوله... اللهم صلي علي سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمد، كما صليت على سيدنا إبراهيم، وعلـــى آل سيدنا إبراهيم، وبارك على سيدنا محمد، وعلى آل سيدنا محمـــد، كما باركت على سيدنا إبراهيم، وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمـــين إنك حميد مجيد... ربنا، آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حـــسنة، وقنا عذاب النار... السلام عليكم ورحمة الله.. السلام عليكم ورحمة الله."

وقـــع نظـــر نعيم على مطوية ملقاة بجواره، كان قد أخذها مع تذكـــرة مغـــارة جعيتا؛ وضعها في جيبه ثم نسي أمرها إلى أن رآها الآن. لـــم تكن من عادته أن يهمل قراءة أي مطوية عن المكان الذي يـــزوره، ولكن لسبب ما نسي أمر هذه المطوية، مع استعجاله دخول مغـــارة جعيـــتا قبل أن تغلق، فلم يقرأها... مد يده نحوها بحركة لا إراديـــة ثـــم أخـــذ يقرأ ما فيها... كانت تتحدث المطوية عن مغارة جعيتا، وعن ظروف وتاريخ إكتشافها...

ما إن فرغ نعيم الوزان من القراءة، حتى ارتسمت على وجهه

ابتسامة ساكنة، ثم استنشق معها الهواء، كمن يستنشقه لأول مرة بعد الخـــروج مـــن جحر ضيق... فقد أدرك أن مثله مثل الكثير من بني البشر، أصاب المكان، ولكنه أخطأ الهدف!

31

هـل مـن الممكـن للإنسان أن تنقلب حياته رأسا على عقب؛ ليكتشف واقعا غير الذي كان يظن أنه يحياه، بين ليلة وضحاها؟ هل من الممكن للإنسان أن يرى فجأة الأشياء على غير حالها المعتاد كأن يـرى اللـيل نهـارا، والنهار ليلا؟ هل الفرق بين الحقيقة، والخيال أصـعب من أن تراه العين المجردة، المعتادة على نمطية الحياة التي ينشأ عليها الإنسان المُبَرمج منذ صغره على رؤية ما يراه الناس من حوله، دون أن يسأل عن ماهيته، ودون أن يحاول تلمس الحقيقة هو بذاتـه، وأن يكتفي بالانصياع لما يقال له؟ إن كانت الإجابة على كل هذه التساؤلات بنعم، فما الفارق إذاً بين الحقيقة والخيال؟...

كـان الـيوم يسير ببطء شديد على لينا، وهي تحاول فهم ما كان يدور من حولها... فما الذي يحدث لفؤاد شوكت؟ وكيف يمكن لشخص مـثل سـعود أن يتهم بالإرهاب؟ لأول مرة بدأت لينا تعتقد أنه ربما ما حـدث لفؤاد كان أبعد من مجرد خطأ طبي وقع فيه الدكتور بيرسون... ربما... ربما... تكون **مؤامرة!**... ولكن لصالح من؟ ولماذا؟...

اقتـربت الساعة من وقت انتهاء دوامها بالمستشفى، ولكن لينا شـعرت بأنها تريد أن تذهب لتواسي منال مرة أخرى، خاصة بعدما تدهـورت حالـة فـؤاد بشكل ملحوظ، مما استوجب نقله إلى غرفة العناية المركزة. كانت تشعر بالمسؤولية تجاهه أكثر مما اعتادت أن تـشعر تجاه باقي مرضاها، وبالأخص الآن، بعدما اكتشفت ما جرى لـه... فكـرت مرارا في الذهاب لمواجهة الدكتور بيرسون، ولكنها كانـت في كل مرة تتذكر ما حدث لسعود في أقل من أربع وعشرين سـاعة مـن مقابلته للدكتور بيرسون... هل واجهه بشأن أشعة فؤاد

التي أظهرت وجود الورم، كما هو بالرغم من العملية المزعومة؟ لقد قالـــت الممرضـــة إنهـــا رأت سعود، وهو يخرج من مكتب الدكتور بيرســـون غاضـــبا، بـــل كادت تجزم بأنها سمعت الدكتور بيرسون يطـــرده من المكتب... نعم، لا بد وأن النقاش قد احتدم بسبب ما قد اكتـــشفه سعود، ذلك الأمر الذي ربما يكون قد كلفه تهمة خطيرة من قبل مكتب التحقيقات الفدرالي!... هزت لينا رأسها في محاولة لنفض تلـــك الأفكار التآمرية عن ذهنها، فكيف يمكن لهذا أن يحدث في بلد ديموقراطي، كالولايات المتحدة، الإنسان فيه له قيمة؟ لا، لايمكن أن تكون التهمة الموجهة لسعود لها صلة، لا من قريب أو من بعيد، بما جـــرى لفـــؤاد شوكت... لا يمكن!... إنها مجرد مصادفة عبثية من مصادفات الحياة التي يواجهها الإنسان كل يوم، لا أكثر، ولا أقل!... نحـــن لـــسنا فـــي دولة من دول العالم الثالث التي لا تحترم حقوق الإنـــسان!... نحـــن فـــي أمريكا بلد الحرية، والعدالة، والأمان...بلد القانـــون...بلـــد ال... ولكـــن ماذا لو... ماذا لو أن المصادفة ليست بالمـــصادفة؟ ماذا لو أن للحقيقة وجها آخر؟ ماذا لو أن حرية سعود أقـــل قيمة من أن تصان؛ لأن هناك أمرا ما يدور خلف الكواليس، قد لا تكـــون هي على علم به؟ ثم فجأة أخذ سؤال آخر مخيف يلح عليها مـــرة تلـــو الأخرى... فما الذي قد يحدث لها هي، إذا علم الدكتور بيرسون ما توصلت إليه؟!

لأول مرة في حياتها، شعرت لينا بالعجز!

* * *

كان كمال أغلو في غاية اللطف مع منال، أو هكذا تظاهر، وهو يـــودعها بعـــدما انتهى من زيارة فؤاد الذي أصبح الآن تحت وطأة جهاز التنفس الصناعي الذي لم يمكنه من التحدث، بالرغم من وعيه إلى حد ما بما حوله.

– "لا تـــنس أن فـــؤاد أكثر من مجرد شريك عمل، فهو أيضا صـــديق عزيـــز مـــنذ سنوات طويلة، لذلك إن احتجت لأي شيء... رجاء لا تتردد..."

– "شـــكرا كمـــال... أعلم مدى إخلاصك، ووفاءك لفؤاد. تأكد بأني بخير، ولا يتقصني، سوى أن أرى فؤاد يقوم بالسلامة."

– "تأكد أنه لن يجد أفضل من الدكتور بيرسون، لكي يعتني به، أنا واثق من ذلك... بالمناسبة، أعلم أن هذا ليس أفضل وقت للتحدث فـــي مثل هذه الأمور، ولكن كان فؤاد قد أخبرني قبل أن تصيبه هذه الـــوعكة، بأنه أعد لي بعض الأوراق المهمة... هل لديك علم بها؟" سأل كمال، وهو يعلم الإجابة مسبقا؛ لأنه لم تكن هناك أية أوراق.

– "لا... مع الأسف لا علم لي بهذا الأمر، فؤاد لم يكن يطلعني أبدا على مثل هذه الأمور."

– "لا بأس... لا بأس... ما يهم الآن هو أن نطمئن على صحة فؤاد." قال كمال وقد رسم على وجهه ملامح التأثر، ثم أكمل بصوت مـــنخفض، وكأنـــه يحـــدث نفسه..." ولو أن هذه الأوراق في غاية الأهمـــية وفقـــدانها قد يتسبب لنا في خسارة مالية كبيرة... ولكن كل شيء يمكن تعويضه إلا صحة الإنسان."

– "كمـــال... أنـــا واثقة بأن فؤاد لن يرضيه أن يتعطل العمل بسببه، خاصة إذا كان هذا سيعرض أحد أصدقائه للخسارة."

– "لا تـــشغل بالـــك، ففـــؤاد هـــو الوحيد الذي يعلم مكان هذه الأوراق، ولكنه مع الأسف لا يستطيع التحدث في وضعه الراهن... لا بـــأس، عـــندما تتحسن حالته، ويرفع عنه جهاز التنفس سيستطيع إخبارنا عن مكان الأوراق."

– "ولكنك تعلم بأن هذا الأمر قد يطول، وآخر ما أتمناه هو أن يتـــضرر أحـــد بـــسبب مرض فؤاد... اسمعني، لماذا لا تذهب إلى المنـــزل وتـــبحث عن هذه الأوراق بنفسك، فأنت لست بالغريب...

صدقني لولا أن حالة فؤاد كما ترى ما زالت حرجة لذهبت أنا بنفسي من أجل البحث عنها..."

- "وأنـــا لـــن أقبل بأن تتركي فؤاد في هذه الحالة، وهو بحاجة إلـــيك... سأذهب أنا بنفسي، وأبحث عنها، فهذا أقل واجب... ولكن مهلا.." صمت كمال قليلا، ثم هز رأسه... "لا أعتقد أن هذا سيجدي، فالأوراق هذه في غاية الأهمية، وأنا واثق بأنه لن يتركها ملقاة هكذا علـــى مكتبه... فأغلب الظن أنها ستكون في خزنته الخاصة... يبدو أنـــه لا نـــصيب لي في أن أحصل على هذه الأوراق قبل أن يتعافى فؤاد."

- "لا تـــوجد أيـــة مشكلة، فهذا هو مفتاح الخزنة، وملصق به الـــرقم الـــسري... أعطانـــي إيـــاه فـــؤاد البارحة، عندما شعر بأن صحته..." صمتت منال، وقد أخذت تذرف بعض العبرات.

- "أنـــا دائما أقول بأن فؤاد رجل حكيم، يعلم كيف يحتاط لكل طـــارئ... لقـــد أحـــسن التـــصرف بإعطائك مفتاح الخزنة، والرقم السري... تأكد بأن مستقبل الكثيرين مرهون بإيجادي لتلك الأوراق."

أخذ كمال ما كان قد جاء من أجله، ثم ترك منال؛ لكي تبقى مع زوجها، وتشاركه مابقي له من أيام!

* * *

أدركـــت لينا أن قهوتها قد بردت بعد أن احتست جرعة من الفـــنجان الذي ظل على طاولة المقصف قرابة الأربعين دقيقة. لم تـــستطع تـــرك المستشفى، وقد مضى على إنتهاء الدوام أكثر من ساعتين، وظلت تفكر في الحزن الشديد الذي بدا واضحا على وجه مـــنال، وهـــي تحطـــضنها عندما ذهبت لزيارة زوجها في العناية المركزة. أخذت تلوم نفسها؛ لأن علاقتها بفؤاد شوكت، وزوجته لم تعـــد علاقـــة طبيب بمريض، بل تجاوزت ذلك، مما أشعرها بأنها

ربما أصبحت تفكر بعاطفتها، أكثر من التفكير بعقلها. فالعقل يقول إنهـــا مجـــرد طبيبة مقيمة في قسم الجراحة، أي أنها لا تزال في طـــور الـــتدريب، لمـــاذا إذاً تشكك في جراح شهير مثل الدكتور بيرســـون؟ ولمـــاذا تخاطـــر بمستقبلها الطبي من أجل مريض لا تـــربطه بها لا صلة قرابة، أو حتى صداقة؟... "دع الأمر وشأنه"، أخذت تفكر، "ففي النهاية هذا مريض الدكتور بيرسون، فما شأني أنا بما يحدث له؟"

ولكـــن علـــى الرغم من محاولات لينا الحثيثة من أجل التبرير لنفـــسها السبب الذي يجعلها تترك الأمر برمته وتلتفت لمستقبلها، إلا أنها كانت تدرك أن كل هذا لن يجدي. فهي لا تستطيع أن ترى إنسانا يغـــرق، وتقـــف ساكنة، دون أن تحاول إنقاذه، فما بالك بشخص قد وضع كل ثقته بها... لا، لا يمكن أن تتركه هكذا دون أن تفعل شيئا، حتى وإن لم تستطع إنقاذ حياة فؤاد شوكت، فلا بد وأن يدفع الدكتور بيرسون ثمن فعلته! هذا أقل ما يجب!

قامـــت لينا، ثم أخذت تتجه نحو المصعد المؤدي إلى المرآب. كانـــت أروقة المستشفى في هذا الوقت من الليل شبه خالية، فلم تكن تعج بالأطباء والعاملين والمراجعين من المرضى، كما هو حالها في ســـاعات الـــنهار. ضغطت على زر البهو، ثم أخذت تفكر في أثناء هبوط المصعد في الخطوة الآتية التي يجب أن تخطوها... هل تذهب غـــدا إلى رئيس قسم الجراحة وتخبره بكل شيء؟... ولكن لا بد من دلـــيل لا يقبل الشك، فهل تكفي صورة الأشعة... لا، سيقول الدكتور بيرســـون إنهـــا مجرد آثار ما بعد العملية أو شيء من هذا القبيل... مـــاذا لـــو ذهبت إلى منال، وأخبرتها عن شكوكها، فقد تستطيع هي بـــصفتها الـــزوجة أن تطلب رأي طبيب آخر... لا، فهذا لن يجدي، فمـــن ســـيخالف رأي أحد اشهر جراحي الصدر في العالم؟ فما بالك بالتشكيك في نواياه...

كانـــت لينا تصارع الأفكار، الواحدة تلو الأخرى، وهي تمشي مـــتجهة نحو سيارتها، وعلى الرغم من أنها قد عزمت على أن تفعل شـــيئا، إلا أنهـــا لم تكن قد توصلت إلى ماهية هذا الشيء، فما الذي يمكـــن فعله تجاه مسألة حساسة كهذه دون وجود دليل ملموس؟... لو أن عينة المختبر لم تفقد، لأخذتها لكي تعيد قراءتها مع طبيب أنسجة آخـــر تـــثق بـــه، وبذلك يتم إثبات أن الجزء الذي استأصله الدكتور بيرسون من رئة فؤاد خال من الورم، على عكس ما جاء في التقرير الملفق الموجود الآن في الملف...

وضعت لينا يدها في حقيبة اليد لكي تخرج منها مفتاح سيارتها، ولكن سرعان ما أدركت أنه لم يكن في موضعه. تذكرت على الفور أنهـــا كانـــت قد وضعته صباحا في خزانتها بقاعة الجراحين. هزت رأسها، وتمتمت غضبا من هذه الغفلة التي قد أصابتها، ثم أخذت تعيد خطـــواتها نحو المصعد مرة أخرى. ما كادت تقطع نصف الطريق، حتـــى شـــعرت بـــصوت خافت آت من خلفها. أدارت رأسها، وهي تـــسير، ولكـــنها لـــم تر شيئا، بل غن الصوت توقف. فجأة شعرت بالقلق، والذي أخذ يتزايد مع كل خطوة تخطوها في المرآب الخاوي. دون أن تـــشعر، وجدت نفسها تسرع في المشي حتى كادت تهرول نحـــو المـــصعد، وبالـــرغم من عدم تيقنها من أمر ذلك الشيء الذي ســـمعته، إلا أنها لم تشعر برغبة في اكتشاف شأنه في تلك اللحظة! كـــل ما كانت ترغب فيه الآن هو أن تحصل على مفتاح سيارتها من الخـــزانة، حتـــى تـــتمكن من ترك المستشفى التي أصبحت تمثل لها مصدر قلق وحيرة!...

فـــتحت لينا الباب، ثم دخلت القاعة التي كانت تضم مجموعة مـــن الخزانات المغلقة، مصفوفة بشكل طولي إلى الجدار الخلفي، مكـــونة بذلك عدة ممرات. لم يكن هناك أحد سواها، وهي تخطو نحـــو خزانتها الواقعة في الصف الثالث قرب دورة المياه. رفعت

مـــن حـــول رقبـــتها مفتاحا وحيدا كان معلقا في سلسلة ذهبية، ثم فـــتحت بـــه بـــاب الخزانة. تنفست الصعداء، حين وجدت مفتاح الـــسيارة كمـــا ظنت، فلوهلة انتابها هاجس بأنه ربما قد نسيته في مكـــان آخر، فعليها البحث عنه في كافة أرجاء المستشفى. لحسن الحظ لم يكن الأمر كذلك. أخذت مفتاحها، ثم استدارت متجهة نحو الـــباب، ولكن لفتة رأس دون قصد جعلتها تقف بعد بضع خطوات قرب صف الخزانات الأول. أخذت تنظر بتمعن نحو خزانة كانت تعـــرف جـــيدا هي لمن. اقتربت منها أكثر غير مصدقة ما كانت تراه، لكن لم يكن هناك مجال للشك!... فيبدو أن الدكتور بيرسون قـــد نسي مفاتيحه على باب خزانته! فجأة خطر على بالها أن تقوم بعمـــل لم تتخيل نفسها فاعلة إياه في يوم من الأيام. ترددت وهي تـــتجه نحو باب الخزانة. كان يجب عليها إما القيام بما فكرت فيه الآن، أو أن تنسى الأمر برمته، فالدكتور بيرسون قد يظهر في أية لحظـــة؛ لكـــي يستعيد مفاتيحه، بل قد يكون في هذه اللحظة على وشـــك دخـــول القاعـــة... ترددت قليلا، ولكنها لم تستطع مقاومة فـــضولها! "قـــد يكـــون هـــذا هـــو الأمل الوحيد في إيجاد الدليل الـــذي أبحـــث عـــنه." أخـــذت تفكر في أثناء ما كانت تتجه نحو الخزانة...

بدأت لينا عملية التفتيش في بعض الأوراق التي لم تجد بها شيئا ذا أهمـــية، فقـــط بعـــض التقارير الطبية التي كان عليه أن يوقعها، وصورة من بحث طبي كان قد نشر في مجلة جراحة الصدر. بدأت تعيد الأوراق إلى مكانها، عندما لمحت شريحة عينة مخبرية... على الفـــور أخذت دقات قلبها تتسارع..." لا يمكن! هل تكون هذه شريحة من شرائح فؤاد شوكت المفقودة؟"

ولكن سرعان ما جاءها الجواب عندما قرأت اسم صاحب العينة على الشريحة، فلم يكن الاسم الذي تمنت قراءته...

فـــي تلك الأثناء، دون أن تشعر لينا، كان باب القاعة قد فتح... وما كادت أن تفرغ من قراءة اسم صاحب العينة، حتى سمعت صوتا أرعبها، بل جعلها تشعر، وكأن صاعقة من السماء قد أصابت قلبها، فأردفته يتخبط على الأرض!

– "لينا، ما الذي تفعلينه!؟..."

32

كـــان على مايكل كوان أن يخبر قسم الأشعة بمستشفى بوسطن بأمر سفر صديقه المفاجئ من أجل حضور الدفن والعزاء في زوجته بالسعودية. تلقى الخبر من جمال في الصباح الباكر، وقد شعر بمدى الأسى الذي كان واضحا على صوت صديقه، وهو يحدثه على هاتفه الجـوال فـــي أثـــناء طريقه إلى المطار. تمنى مايكل لجمال العودة بالـــسلامة قـــريبا بعد تجاوز المحنة، وطمأنه بأنه سيتولى أمر تبليغ ســـكرتيرة القـــسم مـــن أجـــل إعـــداد الأوراق اللازمة لأخذ إجازة اضـــطرارية، وغيرها من الأمور الإدارية الروتينية المتعارف عليها في مثل هذه المناسبات الأليمة...

هكذا كان حال بداية اليوم الجديد لمايكل كوان الطبيب المقيم في السنة الثانية من قسم الجراحة، وباستثناء تلك المكالمة الصباحية كان حال اليوم يسير مثل سوابقه، منذ أن أتى إلى مدينة بوسطن، بعد أن قبل في برنامج الجراحة، كأحد الثلاثة الذين يقبلهم القسم كل عام من ضـــمن أكثـــر مـــن مئتي متقدم للوظيفة التدريبية التي يتهافت عليها الكثيـــرون ممـــن تخـــرجوا من كلية الطب في كافة أنحاء الولايات المـــتحدة، وبالـــرغم من هذا الإنجاز الكبير، إلا أن مايكل كان يشعر بأنـــه لا يزال في بداية الطريق من أجل تحقيق الحلم الأمريكي، ذلك الحلـــم الـــذي أتى بأبيه، وأمه من كوريا الشمالية قبل خمسة عقود، كمهاجـــرين مـــن ضـــمن مـــن هاجروا إلى أمريكا، منذ أن اكتشف كريستوفر كولومبس العالم الجديد.

كان على مايكل من أجل أن يحقق حلمه أن ينهي مدة التدريب فـــي قـــسم الجراحة، والتي تمتد من خمس إلى ثماني سنوات، على

حسب التخصص الذي سيختاره، بعد ذلك سيستطيع أن يجني من عمله الجراحي ما قد يساعده على تسديد ديونه الطلابية، والتي بلغت حوالي مئتين وخمسين ألف دولار. بعدها سيتمكن من إقحام نفسه في دين جديد من أجل شراء منزل أحلامه، وما بين الدين الأول والثاني لا بأس من شراء سيارة بالتقسيط، فواحد من جماليات النظام الرأسمالي هو استطاعة المرء أن ينفق ثلاثة أضعاف دخله عبر منظومة الاستدانة، والأقساط، وبطاقات الائتمان المتوفرة بكل يسر في العالم الجديد... فما قيمة الحياة إن لم يستمتع الإنسان بكل لحظة فيها... هكذا كان شعار مايكل هو وكثير من أقرانه ممن يرغبون في تحقيق الحلم الأمريكي الذي طالما باغت الكثيرين حول العالم، وإن كان الثمن هو سلاسل الدَيْن وأغلاله!

* * *

كان عناء يوم المناوبة كسوابقه من الأيام، حيث لم ينقطع جهاز النداء من فرض نغمته الرتيبة على مايكل الذي ظل يسعى ما بين جناح مرضى قسم الجراحة، وقسم الطوارئ، منذ أن استلم المناوبة، وإن تخللت بعض اللحظات التي استطاع من خلالها قضاء حاجته. كانت إحدى هذه اللحظات عند الساعة التاسعة مساء، عندما قرر أن يذهب إلى قاعة الأطباء من أجل تناول شطيرة "السلامي" التي أعدها لنفسه من الصباح قبل مجيئه إلى المستشفى..." نصف ساعة من الراحة، هذا كل ما أتمناه الليلة." أخذ يفكر، وهو يدخل الرقم السري الذي يفتح باب القاعة، ولكن شيئا ما جعله يشعر بالقلق، فالباب لم يفتح! حاول مرة ثانية، وثالثة، ولكن دون جدوى..." تبا! لا بد، وأن الرقم السري قد تغير اليوم!"

أخذ يطرق على الباب، فلعله يكون بالداخل غيره من الأطباء المناوبين، فيفتح له الباب... ولكن حتى هذا لم يجد... لوهلة أخذ

يشعر بإحباط شديد، وقد بدأ يلعن حظه العثر، ولكن سرعان ما رأى بصيصا من الأمل يفتح بابا في آخر الممر الطويل؛ ليدخل قاعة كان يعرفها جيدا، فشعر بأن حظه قد لا يكون بالسوء الذي توقعه، ثم بدأ يتوجه نحو تلك القاعة. فتح الباب، وبابتسامة الغريق الذي حطته الأمواج على شاطئ الأمان، قال:

– "لينا! ما الذي تفعلينه؟! ألا يوجد لديك ما هو أهم من المستشفى، حتى تبقي إلى هذه الساعة المتأخرة، أم أن الأقدار هي التي أرسلتك إلي؛ لكي تنقذيني من هذه الورطة التي وجدت نفسي واقعا فيها؟"

* * *

تنفست لينا الصعداء، بعدما تبين لها أن الشخص الذي فاجأها ليس بالدكتور بيرسون. لوهلة شعرت، وكأن قلبها قد تلاشى من شدة الخوف.

– "مايكل، أفزعتني! ماذا تريد، وعن أية ورطة تتحدث؟" بادرت هي بالهجوم، بعدما تبين لها أنه لم ينتبه إلى موضعها أمام خزانة لا تخصها.

– "الرقم السري لقاعة الأطباء يبدو أنه قد تغير، وأنا الآن لا أستطيع الدخول."

– "لو أنك راجعت بريدك الإلكتروني، ولم تهمله كعادتك، لوجدت الرقم الجديد الذي أرسلته سكرتيرة القسم."

– "لينا، ارحميني رجاء من تأنيبك المستمر." قال بعد تنهيدة عميقة أطلقها، ولكن سرعان ما حاول أن يرسم على وجهه ابتسامة تملق وهو يضيف قائلا..." هل بإمكانك أن تخبريني بالرقم الجديد؟"

– "لا بأس، هو ثلاثة، واحد، خمسة."

- "شـــكرا! لقد أنقذت حياتي البائسة، الليلة على الأقل، فكم أنا بحاجة للخلود إلى تلك القاعة الآن."

مـــا كـــاد أن ينهي جملته، حتى انطلق صوت جهاز النداء مرة أخرى، معلنا عن قدوم حالة إصابة سير جديدة إلى قسم الطوارئ!

- "ســـأقتل نفسي في يوم من الأيام! لا يوجد حل آخر من أجل التخلص من هذا الجحيم!"

لـــم تـــتمالك لينا نفسها من الضحك، وهي ترى مايكل يركض مسرعا نحو الباب، متجها إلى المصعد...

مـــرة أخـــرى هدأ المكان، وشعرت برغبة ملحة في الاستمرار بتفتيش خزانة الدكتور بيرسون، فهذه فرصة لن تتكرر، ولكن صوت داخلـــي أخذ ينبهها إلى أنها، وإن سلمت في المرة الأولى قد لا يكون كـــذلك الحـــال في المرة القادمة..." دع الأمر، وشأنه، مستقبلك على المحـــك!" أخذت تخاطب نفسها... "ولكني قد أجد الدليل الذي أبحث عـــنه!"..." صـــاحب الخزانة قد يحضر في أية لحظة، كيف سيكون موقفك، حينما يراك تعبثين بحاجاته؟!"

وهـــي فـــي هـــذه الحيرة من أمرها بين إقبال وإدبار، فجأة سمعت صوتا من خارج القاعة تعرفت عليه على الفور. كان بداية مقطـــع ســـمفونية بيتهوفن الخامسة، الرنين المميز لجوال الدكتور بيرسون...

شـــعرت لينا بالربكة، وعلى الفور أغلقت باب الخزانة. أرادت أن تـــذهب بعـــيدا عن هذا الصف من الخزانات إلى صف خزانتها؛ حتـــى لا يشك في أمرها الدكتور بيرسون، عندما يدخل إلى القاعة، ولكـــنها تأخـــرت! فقد فتح الباب، وكان من المستحيل أن تتجه إلى الناحـــية التـــي تـــرغب بالاتجاه إليها دون أن يراها. نظرت حولها، فلعلها تجد مكانا آخر تتجه نحوه قبل أن يأتي الدكتور بيرسون، الذي كان قد تباطأ في القدوم؛ لكي يرد على جواله.

– "نعـم، نعـم كمال أنا قادم في الحال، لن أتأخر. تستطيع أن تنتظرني في المكتب..."

استغلت لينا تلك اللحظات، فذهبت إلى الجهة المقابلة من صف الخزانات، حيث كانت هناك فجوة بسيطة استطاعت أن تحشر جسدها النحيل فيها؛ حتى لا يراها الدكتور بيرسون.

– "أعلـم بـأن جورج وفرانك في الطريق، قلت لك لن أتأخر! تذكرت أني نسيت سلسلة مفاتيحي، سآخذها، وآتي في الحال."

كـان القلـق والاضطراب قد بدا واضحا على صوت الدكتور بيرسـون فـي أثناء محادثته؛ حتى إنه فور إنهائه للمكالمة ذهب إلى خـزانته، وأخذ المفاتيح من على بابها، ثم بخطوات متسارعة خرج من القاعة، دون أن يلتفت...

مـرة أخرى تنفست لينا الصعداء، وقد شعرت، وكأنها استفذت كل ما لديها من مخزون حسن الحظ...

تـوجهت نحو باب القاعة، بعد برهة من الزمن كان فيها الدكتور بيرسون قد ابتعد. وضعت يدها بشكل تلقائي في جيبها للتأكد من أنها لم تـنس مجددا مفتاح سيارتها. اطمأنت عندما شعرت به، ولكنها شعرت بـشيء آخـر يلامـس أطراف أصابعها، شيء ما له ملمس زجاجي. مـسكت به وأخرجته... كانت الشريحة التي أخذتها من خزانة الدكتور بيرسون، فمع سرعة الأحداث، نسيت أن تضعها في مكانها!

"لا بـأس سـألقي بهـا في أي مكان، وشخص غيري سيجدها ويأخـذها إليه." أخذت تفكر، وما إن كادت تلقي بالشريحة في ركن من أركان القاعة، حتى تنبهت إلى أمر ما. فقد شد انتباهها تاريخ أخذ العينة، المكتوب على جانب الشريحة...

31 أكتوبـر 2009. هـو ذاته التاريخ الذي أجريت فيه عملية فـؤاد شوكت؛ ليس هذا فقط، ولكنها انتبهت أيضا إلى نوعية أنسجة عينة الشريحة... كانت مأخوذة من الرئة!

نظـــرت مرة أخرى إلى اسم صاحب العينة... "ستيفن كونلي." ســـرحت ليـــنا قليلا، ثم أخذت تتساءل..." هل من الممكن أن يكون الدكتور بيرسون قد..."

لـــم تكمـــل السؤال. خطر أمر على بالها، فأرادت أن تتأكد؛ وســـرعان مـــا أخـــذت تتوجه نحو أقرب حاسب آلي، نحو قاعة الأطباء.

* * *

أكثـــر مـــن نـــصف ســـاعة قد مضت، ولينا تنظر عبر شاشة الحاسوب إلى التقارير الطبية الخاصة بستيفن كونلي؛ تراجعها المرة تلـــو الأخـــرى للتأكد من أنها قرأت بالفعل ما تظن أنها قرأته. كان الرجل يعاني مثل فؤاد شوكت من ورم خبيث بالرئة، بل وأجريت له عملـــية في ذات اليوم. إلى الآن الخبر ليس بذلك الغريب، ففي العادة كان يجري الدكتور بيرسون أكثر من عملية استئصال للرئة في يوم عملـــياته، وذلك لكثرة ما تحول إليه من حالات؛ ولكن ما شد انتباهها وأثـــار دهشتها أن تقرير المختبر للعينة التي استؤصلت أظهر أنه لا يوجد هناك أثرا للورم، فالعينة كانت سليمة!

فـــي تلـــك الأثناء دخل إلى القاعة مايكل الذي سرعان ما ألقى بجسده على أقرب أريكة من الباب.

– "يا إلهي! لكم وددت أن ألقي بجهاز النداء هذا في المرحاض! لا يريد أن ينقطع رنينه، لقد أصبح يشكل لي كابوسا... أشعر وكأني لن أصحو من هذا الكابوس أبدا!"

– "كفاك شكوى، كالأطفال."

– "مـــا لا أفهمه، كيف تستطيع امرأة مثلك أن تتحمل مثل هذه المـــناوبات، وأنا الرجل بالكاد أتحملها!" قال مايكل ممازحا، وقد كان يدرك أن مثل هذه العبارات تثير غضب لينا.

– "دعك من هذه الغطرسة الرجولية، وأجبني... هل تذكر حالة مـــريض يدعـــى ستيفن كونلي كان يعاني من ورم خبيث بالرئة قام الدكتور بيرسون باستئصاله منذ عدة أسابيع؟"

– "هـــل أذكـــر الحالـــة! وكيف أنسى حالة كهذه؟ وقد أمضيت ســـاعات في كتابة ورقة علمية عنها على أمل أن أنشرها في إحدى الدوريات الجراحية المرموقة، وبعد كل هذا التعب، صدمني الدكتور بيرسون برفضه أن أنشر الورقة... يا له من وغد!"

– "ولمـــاذا يرفض أمرا كهذا؟" سألت لينا، وقد كانت تبحث عن إجابة تؤكد شكوكها.

– "حجـــته أن هـــذه ليست أول مرة يختفي فيها ورم خبيث من تلقـــاء نفـــسه، هـــناك حـــالات مماثلة، وقد كُتب عنها في الدوريات الجراحية... قال لي إن مثل هذا التكرار لا يليق بسمعته، وبحكم أنه الاستشاري المسؤول عن الحالة، فلن يسمح لي بنشر ما كتبته."

– "هل تذكر من هو الشخص الذي أخذ العينة إلى المختبر بعد استئصالها؟"

– "هـــو الذي أخذها بنفسه... أمر بأن تحفظ في الفورمالين، ثم أخـــذها، بعـــدما فـــرغ من العملية هي، والعينة الأخرى من العملية السابقة."

أخـــذت دقات قلب لينا تتسارع، وكأنها كانت تجري في إحدى الماراثونات، وهي تفكر فيما قد سمعته للتو..." **هي، والعينة الأخرى من العملية السابقة**"... هذا ما قاله مايكل... عينة فؤاد شوكت!

– "مـــن حسن الحظ أني احتفظت بإحدى الشرائح معي بغرض تـــصويرها، ووضـــع الصورة في الورقة العلمية، التي لم يسمح لي بنشرها، لولا ذلك لضاعت مع باقي العينات الخاصة بالعملية."

– "ولكن الدكتور بيرسون أخذها منك."

– "صحيح... ولكن كيف عرفت ذلك؟" سأل مايكل، مندهشا.

– "خمّـنت ذلـك." ردت لينا، وقد لمعت عيناها، وهي تمسك بالشريحة داخل جيبها، بعدما أدركت أنها قد وجدت الدليل الذي كانت تبحث عنه!

* * *

لم يكن يعتقد تيري بيرسون أن الأمر سيصل به إلى هذا الحد، ليصبح أداة قتل في يد المتنورين. لم يكن ليتصور قبل خمسة وثلاثين عاما عندما تم إبلاغه بأنه قد اختير للانضمام إلى نادي الجماجم، بعد سـنة من قدومه إلى جامعة برينستون بأن قبوله كان سيغير مجرى حياته إلى الأبد، وأنه سيدخل عالما لا يمكن الخروج منه، عالما جذابا بقدر ما هو فتاك، عالما يتحكم فيه القلة بمصائر الكثرة، عالما يكمن سـر قوته في خفائه عن أنظار الآخرين..." إن أكبر عملية خداع قام بها الشيطان هو إقناعه للكثيرين بألاّ وجود له!"... لطالما ظل يتذكر تلـك المقولة التي كانت بمنزلة شعار له، ولأقرانه، بعدما ارتقى في هرمية الجماجم؛ ليصبح عضوا فعالا في جماعة المتنورين، الجماعة الأم لنادي الجماجم.

كم من الأبواب المغلقة فتحت له، وكم من المصاعب والعراقيل قد أزيحت من دروب حياته؛ ليصل إلى ما لم يكن يتخيل أنه سيصل إليه من مجد وجاه ومال وفير، فما من حلم حلمه، إلا وأصبح واقعا، وما من شيء دار في مخيلته، إلا وتحقق. كل هذا بفضل المتنورين، ولكـنه أخذ يدرك أن الحياة لا يوجد فيها غداء بلا ثمن، وأن كل حلم جمـيل لا بد، وأن يتبعه كابوس ليفيق النائم من غفوته، فيتجرع من مرارة الحياة...

– "انتظـرناك كثيرا، كدنا نمشي." قال جورج روكفلر فور ما دخـل تيـري بيرسون إلى مكتبه الذي كان قد سبقه إليه هو مع ابنه فرانك، وكمال أغلو الذي حضر قبلهم جميعا.

– "عفــوا، ولكنـــي نـــسيت مفاتيحي على باب الخزانة، ولذلك اضطررت للرجوع من أجل..."

– "لا بأس، لا بأس، فليس لدينا وقت لسماع قصتك مع المفاتيح الآن..."

قهقه كمال، ناظرا إلى فرانك الذي اكتفى بالابتسام.

– "أخبرني، كم تبقى من الوقت؟"

– "مـــاذا تقـــصد؟" تساءل تيري، حيث لم يدرك المعنى وراء سؤال جورج.

– "فؤاد شوكت، كم تبقى له من الوقت؟"

– "آه، فهمـــت... مـــن الصعب أن أحدد، ولكن ربما أيام، وقد يصل الأمر إلى أسبوع أو أسبوعين."

– "لماذا لا ترفع عنه جهازالتنفس وتنهي الأمر الآن؟!" سأل كمـــال، وقـــد أزعجه احتمال أن يطول الأمر أكثر من مجرد أيام قليلة.

– "المـــسألة ليـــست بهـــذه السهولة، عليك أن تدرك أنني لست الوحيد المعني بحالة فؤاد، خاصة بعدما تدخل سعود في الأمر." قال تيري، وقد بدا عليه الارتباك.

– "لا أعـــتقد بـــأن ســـعود سيزعجك بعد الآن." طمأن جورج تيـــري، ثم إلتفت إلى كمال..." لا تقلق بشأن فؤاد، أنت رأيت كيف أصـــبحت حالته الآن، فالرجل ينازع الموت، ولذلك لن يشكل لك، أو لنا أي تهديد. إنس أمره، ودعنا نلتفت إلى ما هو أهم."

– "ثـــم إنـــه لـــو أراد التحدث لكان قد فعل منذ أن تركنا. فؤاد يـــدرك جيدا أننا نستطيع النيل من زوجته وباقي أسرته، لذلك هو لم، ولـــن يتحدث." أضاف فرانك روكفلر بثقة، داعما قول أبيه، في حين اكتفـــى كمال بتمتمة عدم رضاه عن هذه الثقة التي شعر بأنها كانت أكثر مما ينبغي، ثم قام من مجلسه، وهمَّ بالانصراف.

– "طب مساء تيري، لقد أبليت بلاء حسنا." قال جورج، بعدما خـرج كمال، وقد همّا هو، وفرانك بالذهاب عندما أمسك تيري بيده قبل أن يغادر.

– "رجـاء جورج... لا تطلبوا مني أمرا كهذا في المستقبل... رجاء!..."

ابتسم جورج، قابضا كتف صديقه الأيسر، ثم انصرف.

ذهب تيري بيرسون إلى كرسي مكتبه فاستلقى عليه. فتح درج المكتب السفلي، ثم مد يده إلى داخله؛ ليخرج منه قنينة ويسكي كانت نـصف فارغة. نظر إليها، وقد حاول أن يمسح من ذاكرته الأسابيع الأخيـرة من حياته، ولكنه لم يستطع... أخذ نفسا عميقا، وكأنه كان يريد ملأ رئتيه بكل ما في مكتبه من هواء، ثم أغمض عينيه، وتجرع ما تبقى من السائل الأصفر.

* * *

ظـل جـورج روكفلر صامتا لا ينطق بكلمة بعد خروجه من مكتب الدكتور بيرسون، حتى دخل إلى المصعد المؤدي إلى المرآب، ثم فجأة دون سابق إنذار أدار وجهه إلى فرانك، وقال:

– "نحن الآن في مرحلة، الخطأ فيها غير قابل للتصويب، أرجو أن تكون مدركا لذلك."

استغرب فرانك من هذه النبرة الحادة التي خوطب بها.

– "موضوع فؤاد شوكت تحت السيطرة، فلا داعي لهذا..."

– "أنا لا أتحدث عن أمر فؤاد." قاطع جورج..." ولكني أتحدث عن الذي جرى في منزلك البارحة."

– "الـبارحة.." لم يتوقع فرانك أن يكون أبوه قد علم بما جرى، وأن يفاتحـه فـي هذا الموضوع الآن، وفي هذا التوقيت. من حسن حظه أن المصعد قد وصل إلى المرآب، وأخذ الباب يفتح، مما أعطاه

فرصة للتفكير فيما يجب أن يكون رده، ولكن لسوء حظه، الحيلة لم تنطلِ على جورج.

– "متـــى كنت تنوي إخباري بزيارة جمال لك، أم أنك حسبت أني لن أعلم بالأمر؟"

– "أنت تعطي الموضوع أكبر من حجمه..."

– "بـــل أنت الذي لا تريد أن تفهم! نصحتك منذ ثلاث سنوات، ولكـــنك لـــم تـــستمع إلي، بل ذهبت أنت وصديقك الآخر من وراء ظهـــري، وأقنعـــتما كمال بخطتكما. عرضتنا جميعا للخطر من أجل نزوة من نزواتك!"

– "دولي ليست بنزوة."

– "حقـــا!... إذاً أخبرنـــي كـــيف تفسر لورا، ودنيس، وكايت، وباقـــي عشيقاتك اللواتي كنت تبدلهن، كما يبدل الرجل جواربه، بعد أقل من عام من زواجك من دولي!"

– "الأمر ليس كما يبدو..."

– "اسمعني جيدا!... لقد بذلت الكثير من الجهد من أجل جعلك تحـــصل علـــى ثقة المتنورين؛ حتى يرشحوك إلى تحالف بولدربرج لكـــي تحصل على دعمهم من أجل المرحلة المقبلة. أمضيت سنوات حياتـــي مـــنذ أن ولـــدت، وأنا أهيئك لكي تصل إلى أعلى الهرم في الـــسلطة التنفيذية الأمريكية. سنوات قليلة فقط هي التي تفصلك عن الرئاسة... يجب أن تسيطر على نزواتك! وإلا..."

– "لا داعي للتهديد والوعيد، فأنا أعلم جيدا دوري. قلت لك إن أمـــر جمـــال قد انتهى... قابل دولي وأدرك أنها ليست زوجته، أما علاقاتـــي، فهـــذا أمر لا يخصك. الشعب الأمريكي لم يعد يهتم بهذه الأمور، كما كان في السابق، اسأل بيل كلينتون."

أراد جـــورج أن يـــرد، ولكن سيارة عابرة تخرج من المرآب جعلته يصمت...

واصل سيره باتجاه سيارته البينز السوداء، وبجانبه فرانك الذي آثـر الـصمت هو الآخر. كان المكان خاليا باستثناء بضع سيارات متناثـرة هنا وهناك، مما جعل حديثهما بمنأى عن أسماع الآخرين، بمن فيهم كمال الذي كان قد سبقهما بالمغادرة.

– "كمـا قلت لك، الخطأ الآن لن يغفر... أرجو أن تكون على يقين بهذا."

لـم ينتـبه فرانك إلى جملة أبيه الأخيرة، حيث كان قد تلقى رسـالة علـى جـواله في تلك اللحظة سببت له شيئا من الربكة. أرسـلت الرسالة من شخص مجهول. سرعان ما حاول الاتصال علـى رقـم الجـوال الذي ظهر له، ولكن دون جدوى؛ فقد أغلقه صاحبه...

قـرأ فـرانك الرسـالة مرة أخرى، ثم وضع هاتفه الجوال في جيـبه. لم يهتم كثيرا بما قاله جورج روكفلر، ففي تلك اللحظة كان جل اهتمامه هو التحقق مما جاء في الرسالة!

33

أدرك نعـيم الـوزان لمـاذا وصـف نجم الدين غول المغارة بالغـريبة؛ فالذي تنبه إليه أخيرا، بعدما قرأ المطوية التي أهملها في بـادئ الامـر، هـو أن مغارة جعيتا قد اكتشفت على مرحلتين. في المرحلة الأولى تم اكتشاف الجزء السفلي من المغارة من قبل المبشر الأمريكـي ويلـيام طومسون في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر. ولكن الجزء العلوي لم يكتشف حتى الخمسينيات من القرن العشرين، أي بعـد وفاة نجم الدين بنحو نصف قرن!... لا شك إذاً أن المغارة المقصودة هي العلوية التي لم تكن في ذلك الوقت معلومة لدى عامة الناس. مكان يصلح لجماعة تريد أن تلتقي في سرية تامة، ودون علم الآخرين...

كانت المغارة العلوية شبه خالية في الصباح الباكر، لولا وجود نعـيم وسـائحان غـربيان، لـبدا، وكأن المكان مغلق. بل إن أحد المرشـدين استغرب وجود سائح عربي في هذا الوقت المبكر، وكان استغرابه أعظم، عندما سأل نعيم عن جنسيته، فعلم منه بأنه سعودي؛ فقـد جرت العادة على أن تكون بيروت وضواحيها ملكا للعرب في الليل، وأن يتركوا نهارها للأجانب؛ لكي يستمتعوا باكتشاف تاريخها، وآثارهـا..." لكن لسبب ما، "أخذ يفكر المرشد، مستغربا..." يبدو أن هذا الشاب السعودي قد أخل بالمتعارف عليه!"

ظل نعيم يتأمل الصواعد والنوازل الكلسية، وكانها كانت تشير إلـى تـاريخ مفقود قد صادف هذه الرقعة من الأرض. شيء ما في داخله أخبره بأنه يسير على الدرب الصحيح، فقد انتابه شعور لم يكن موجـودا البارحة، في أثناء ما كان يتفقد المغارة السفلية. لم يكن فقط

الاخـــتلاف فـــي عدم وجود نهر يشق طريقه، وفي مياهه المراكب الصغيرة التي تقل السائحين، بل كان هناك شيء آخر غير ملموس، لا يراه إلا الباحث عنه؛ شيء يستمد بقاءه من الماضي وخباياه؛ شيء كان ينادي نعيم، وكأنه يعلم بوجوده ويشعر بخطواته...

"يـــا تـــرى كـــيف كان شعور نجم الدين غول، وهو يدخل هذا المكان لأول مرة،" أخذ يتأمل.. "هل كان في مخيلته أن الأقدار كانت تـــسوقه إلى اكتشاف سيغير مجرى حياته، وحياة كل من يأتي بعده؟ هل خطر على باله أن هذا الاكتشاف سيقوده إلى قدره المحتوم؟" ظل ينظر نعيم حوله، ومع كل خطوة كان يخطوها، كانت الصورة تتضح لـــه أكثـــر فأكثر، وكأنه كان متواجدا هنا منذ قرن من الزمان، يرى الأحـــداث، وهـــي تقع، يتتبع خطوات نجم الدين، وهو يكتشف عالما غريبا، قل من رآه!

ظـــل نعيم يمشي، ويتأمل، حتى وصل إلى سياج حديدي ينتهي عنده الجزء المسموح به للزيارة.

– "لماذا هذا السياج؟" سأل نعيم أحد المرشدين.

– "باقي المغارة غير مهيأ بعد." أجابه باقتضاب.

– "غير مهيأ لماذا؟ كأني أرى ممرا عبر السياج." أصر نعيم.

– "طـــول المغـــارة مـــئات الأمتار، فمن الصعب تهيئتها كلها للسواح، ثم إنه ما يوجد بالداخل لا يختلف كثيرا عما رأيته إلى الآن."

أخـــذ نعـــيم يطل عبر السياج، وكأنه يبحث عن شيء بعينه لم يجده في الجزء الأول من المغارة.

– "هـــل تعلم إن كان قد تم العثور على أي أثر في هذا الجزء العلوي، مما قد يدل ربما على اكتشاف بعض الناس لهذه المغارة قبل التاريخ المذكور في المطوية؟"

اندهش المرشد من هذا السؤال الذي لم يتلق مثله من قبل!

– "ناس مثل من؟ حضارات قديمة مثلا، أم تقصد شيئا آخر؟"

– "لقد لفت انتباهي، عندما زرت الجزء السفلي، وجود صواعد تسمى بركن الآلهة..."

– "نعم هذا صحيح. يبدو أنك من المغرمين بالكهوف، فقليل من الناس على دراية بهذه المعلومة." قاطع المرشد نعيم، وقد أعجب باهتمامه بمثل هذه التفاصيل.

– "ولكن أليس من الغريب ألاّ أحد يعلم لماذا سميت تلك الصواعد بهذا الاسم؟" استطرد نعيم.

– "الحقيقة لم أفكر في الأمر كثيرا، فهو مجرد اسم على ما يبدو."

– "أعتقد أن الأمر أبعد من أن يكون مجرد اسم. تلك الصواعد، كأنها تشير إلى المغارة العلوية."

– "ولكن جميع الصواعد تشير إلى الأعلى، لهذا سميت صواعد؛ لأنها تصعد من أرض المغارة على عكس النوازل التي تنزل من الأسقف."

– "صحيح." صمت نعيم قليلا، وهو يحاول تخيل موقع تلك الصواعد بالتحديد، ثم استطرد.." إذاً السؤال إلى ماذا صواعد ركن الآلهة تشير؟... المغارة السفلية تقع مباشرة تحت هذا الجزء العلوي أليس كذلك؟"

– "هذا صحيح، ولكن فيمَ تفكر؟ هل تعتقد أن تلك الصواعد تشير إلى مكان ما هنا؟" تساءل المرشد بنبرة استعجاب تخللها شيء من التهكم المبطون..." لماذا، وما الهدف من ذلك؟ هل هي إشارات سرية لجماعة ما؟! يبدو، وكأنك تأثرت برواية شفرة دافنشي!" صمت المرشد قليلا، وكأنه كان يحاول تذكر أمر ما ثم إستطرد..." مهلا، مهلا، الآن فهمت. أنت من طرف زكريا شاهين أليس كذلك؟"

– "زكريا شاهين؟"

– "ركن الآلهة، والإشارات المختلفة في مغارة جعيتا، وغيرها مـــن الخزعبلات التي يطلقها ذلك الرجل المعتوه عن أقوام أتوا إلى هنا من أجل العبادة منذ القدم، وغيرها من الآراء الغريبة التي كلفته وظيفته في الجامعة الأمريكية... أنت من طرفه إذاً."

– "عـــم تـــتحدث؟ أنا لا أعرف هذا الرجل، بل لم أسمع به من قبل." رد نعيم بنبرة حادة جعلت المرشد يشعر بأنه ربما قد تسرع في ظنه.

– "المعذرة... ولكن أسئلتك هي التي جعلتني أعتقد..."

– "إذاً، أفهـــم من كلامك أني لست أول شخص يبدي مثل هذه الملاحظات."

– "ســـيدي، صدقني لا يوجد في مغارة جعيتا أي أثر يدل على تواجد أي جماعة في يوم من الأيام."

– "ولا حتى في الداخل، بعد هذا السياج؟"

لـــم يعجـــبه المرشـــد هـــذا السؤال، وما كان يلمح إليه نعيم الوزان.

– "كأنك بسؤالك هذا تريد أن تقول إننا وجدنا أمرا ما، وقررنا إخفاءه عن عامة الناس!"

– "المعذرة أنا لم أقصد هذا... دعك من هذا الأمر، أخبرني من يكون هذا الرجل الذي ذكرته، زكريا شاهين؟"

– "عالم آثار، كان يُدرِّس في الجامعة الأمريكية قبل أن يفصل، منذ حوالي ثلاث سنوات، بسبب أرائه الشاذة، وقد جلب لنا الكثير من المـــتاعب، بـــسبب إصراره على التنقيب في الداخل حيث، على حد زعمه، تشير صواعد ركن الآلهة. الرجل مع الأسف أصبح لا يحمل أية مصداقية في الحقل الأكاديمي. الكل يعتبره أضحوكة."

– "وأين هو الآن؟"

– "عفوا؟!... وماذا تريد منه؟"

– "لــم أضحك منذ زمن، وبما أنه قد أصبح أضحوكة على حد زعمك، فقد أجد عنده الخلاص!"

لم يستسغ المرشد جملة نعيم الساخرة، بل أخذ يشعر بشيء من عــدم الــراحة مــنه، فقــرر أن يجيبه على ما سأل عنه، فلعل هذا يصرفه.

– "سمعت أن لديه متجرا لبيع التحف والآثار المقلدة في شارع الحمراء بجوار مكتبة الشرق."

شكر نعيم المرشد، ثم انصرف بعد أن شعر بأنه قد حصل على أقــصى ما يمكن الحصول عليه من زيارته للمكان الذي عاد به مئة عام إلى الماضي. كما أدرك أن عليه القيام بزيارة أخيرة، قبل مغادرة لبنان إلى بوسطن...

34

خرج نعيم من السيارة التي أقلته إلى شارع الحمراء، وبدأ على الفـور يبحث عن متجر التحف الذي يخص زكريا شاهين. في أثناء بحـثه رن الهاتـف الجـوال، لم ينتبه له في بادئ الأمر، ولكن مع إصـرار المتـصل تنبه نعيم إلى الهزات المنبعثة من جيب معطفه، المصاحبة لرنين خافت.

- "السلام عليكم."

- "وعلـيكم الـسلام يـا نعيم، أين إختفيت؟ قلت بأنك ستعاود الاتـصال بـي، ولكـنك لـم تفعل." انبعث صوت أنور من سماعة الجوال، وقد بدا عليه شيء من القلق.

- "انا آسف... نسيت الأمر مع كثرة الانشغال."

- "الجماعـة هنا في كوالالمبور قلقون، هناك شائعات قوية بـأن بـنك الاحتـياط الفيدرالـي الأمريكي ينوي رفع الفائدة في اجـتماعه القـادم. أنـت تعلـم مـاذا يعني هذا... أسعار الأسهم ستنخفض."

- "لا تقلق، نحن في مأمن."

- "متـى تنوي إلقاء ما تبقى من أسهم شركات فؤاد شوكت في السوق؟"

لم يجب نعيم على هذا السؤال، بل ظل صامتا.

- "نعيم، هل تسمعني. لقد سألتك متى تنوي..."

- "سمعتك... ولكن لا توجد عندي إجابة."

- "مـاذا تقـصد؟ ألم تكن هذه هي خطتك منذ البداية؟ الآن هو أفضل وقت، خاصة مع تنامي شائعة رفع الفائدة."

– "أنــور، اســمعني جيدا، وافهمني... فؤاد شوكت... لم يعد يعنينــي، فلــدي مــا هــو أهم. أما بخصوص أسهمنا، وأسهم باقي المــستثمرين، فهي في مأمن، ولدينا كما تعلم سيولة كبيرة، فلا تخف من أي انخفاض قد يطرأ على السوق."

– "كلــنا علــى ثقــة كبيــرة بك، وبقراراتك، أنت تعلم ذلك جيدا... بالمناسبة هل بحثت أمر الطلب المتزايد على البيع الآجل لأســهم شركات العقار اللبنانية، والتي أخبرتك عنها في المكالمة السابقة؟"

– "مــاذا؟... تصور أني نسيت الأمر... فعلا، الأمر يدعو إلى الاستغراب. كأن أحدا يتوقع هبوط أسعار تلك الأسهم بشكل كبير، مع العلــم بأن جميع التحاليل الاقتصادية تشير إلى العكس، وخاصة بعد المصالحة الوطنية." صمت نعيم قليلا، وقد أخذ يفكر فِي مسألة ما قد طــرأت على باله، ثم استطرد..." تذكرت للتو أمرا مشابها قد جرى منذ ثماني سنوات... أنور، دعني أفكر في االمسألة أكثر، ثم سأعاود الاتصال بك. أعدك بأني لن أنسى هذه المرة."

أنهــى نعــيم الــوزان المكالمة على عجل، بعد أن وجد متجر التحف والآثار المقلدة الذي كان يبحث عنه بجوار مكتبة الشرق.

دقــت أجراس فوق الباب إثر فتحه، مما أثار انتباه رجل قصير القامة يملأ الشيب شعر رأسه، بدا عليه آثار ما لا يقل عن ستة عقود من الزمان. لم يكن في المتجر سواه، وعدد قليل من المتسوقين، كلهم من الأجانب الباحثين عن قطعة تذكارية زهيدة الثمن، يحملونها معهم إلــى أوطــانهم. دخــل نعيم، وأخذ يتفحص المكان الذي كان ممتلئا بمنحوتات ومقتنيات من مختلف الأحجام من مختلف بقاع الأرض، أو هكذا كان يبدو عليها. في إحدى أركان المتجر، خلف خزانة زجاجية، كانت توجد بعض أوراق البردي، والتماثيل الصغيرة التي كانت تعود إلى عصور قديمة مع بعض النقود المعدنية، كلها كانت مقتنيات أثرية

غيـر مقلـدة، فقـط للعرض، وليست للبيع، على عكس باقي ما هو موجود في المتجر. ظل نعيم يتأمل هذه الآثار القديمة، ولكن أكثر ما لفت نظره كانت مقطوعة من ورق البردي عليها رموز هيروغليفية. أخذ يتأمل جيدا إحدى تلك الرموز التي كانت على شكل دائرة مفرغة تتوسطها نقطة. هو ذاته الرمز الذي احتواه خطاب نجم الدين غول! الرمز ذاته الذي يستخدم الآن في إشارات المرور للدلالة على وسط المديـنة... بـل الرمـز ذاتـه الذي رآه في دبي، أخذ يتذكر... في المصعد... فندق جميرا...

فجأة أدار نعيم رأسه نحو الواجهة الزجاجية للمتجر المطلة على الخارج، كأنه لمح طيف إنسان كان يراقبه، ثم اختفى، وانصهر وسط المارة في اللحظة التي أخذ يدير فيها رأسه.

– "هـل بالإمكـان أن أسـاعدك في أي شيء؟" اقترب الرجل القـصير القامة من نعيم، بعدما غادر أغلب زبائن المتجر، وقد قرر أن يلتفت إلى الزبون المتبقي.

– "شـكرا..." ابتـسم نعيم نحو الرجل الذي لاحظ صوره، في عـدة أمـاكن أثـرية حـول العالم، معلقة على إحدى الحيطان، ثم استطرد..." هل أنت صاحب المتجر؟"

– "نعم، تحت أمرك."

– "أنت إذاً الأستاذ زكريا شاهين؟"

اسـتغرب الـرجل من هذا الزبون الذي لم يره من قبل، وكان يعرف اسمه.

– "سـمعت عنك من أحد المرشدين في مغارة جعيتا." استطرد نعيم بعد أن لاحظ الدهشة التي بدت واضحة على الرجل.

– "آه... مغـارة جعيتا، الكل هناك يعرفني جيدا، ولكن لم أكن أدرك أنهـم أصـبحوا يدلـون الزبائن على متجري المتواضع." قال زكريا بنبرة ساخرة.

ابتـــسم نعيم، ثم أدار رأسه نحو ورقة البردي القديمة التي لفتت انتباهه.

– "هل لديك فكرة إلى ماذا تشير هذه العلامة؟"

وضـــع زكـــريا نظارته، ثم نظر إلى ما كان يشير إليه زبونه الجديد.

– "آه... بالطـــبع، هذا رمز رع... إله الشمس لدى الفراعنة... على الأقل هذا ما تشير إليه العلامة في هذا الموضع."

استغرب نعيم من كون العلامة التي رسمها نجم الدين غول في خطابه تشير إلى إله فرعوني!..." فما علاقة هذا بجماعة تتحدث بلغة آرامية؟"

– "ماذا قصدت بأن هذا هو ما تشير إليه في هذا الموضع؟ هل لهذه العلامة معاني أخرى؟"

ابتـــسم زكـــريا مـــن هذا السؤال، وكأستاذ جامعي يشرح لأحد تلاميذه، أخذ يتحدث:

– "الدائرة التي تتوسطها نقطة هي من أقدم الرموز التي عرفتها البـــشرية، وأكثرها استخداما إلى اليوم. حتما أنت لمحتها في إشارات المـــرور لعديـــد من الدول كإشارة لوسط المدينة، على سبيل المثال، ولذلك لفتت انتباهك، أليس كذلك؟"

هز نعيم رأسه، ولكن سرعان ما واصل زكريا حديثه:

– "هذه العلامة استخدمت أيضا للرمز إلى الشمس عند المنجمين، منذ أن بدأ الإنسان يهتم بالسماء، وما تحويه من أجرام قبل آلاف السنين في منطقة ما بين النهرين، دجلة والفرات... بل أنا شخصيا أرى أن من هذا الرمز تولدت رموز عديدة تشير إلى الأمر ذاته."

– "الشمس؟" قاطع نعيم.

– "بل الإله الشمس... أقدم من عبد الإنسان من دون الله... هل تذكر شكل العلم الياباني؟"

لم ينتظر زكريا إجابة نعيم.

– "علـم أبـيض تتوسـطه دائرة حمراء، الشمس! في التراث الياباني الإمبراطور هو ابن إله الشمس. في جميع الحضارات تقريبا كانـت الـشمس تلعب دورا محوريا، بل كان الاعتقاد السائد أن إله الـشمس هـو أقـوى الآلهـة على الإطلاق. هذا تراه في الحضارة الـسومرية، والبابلية، والفرعونية بل وفي حضارات أمريكا الجنوبية القديمة، كحضارتي الأزتك والمايا."

– "ولكـن هـذه الحضارات التي ذكرتها قد بادت، ولم يعد لها وجود."

– "الحضارات يا أستاذ... عفوا لم أتعرف شخصك الكريم."

– "اسمي نعيم، نعيم الوزان."

– "تـشرفنا يا أستاذ نعيم... وكما كنت أقول، الحضارات تولد وتموت، ولكن المعتقد يبقى، طالما أن هناك فردا واحدا متمسكا به."

شـعر نعيم برغبة في سماع المزيد من آراء زكريا، وإن بدت غـريبة بعـض الـشيء، خاصة فيما كان يلمح إليه من تأثير عبادة الشمس على مختلف الحضارات.

– "ولكن لا يكاد أحد يعبد الشمس اليوم، فهذا المعتقد قد اندثر." قال نعيم، بالرغم من شكه في أن لزكريا رأيا آخر.

– "إحدى الحقائق التي تعلمتها من تجوالي حول العالم يا أستاذ نعـيم، هـي أن المعتقد لا يندثر، وإن بدا كذلك، ولكنه يظهر بشكل مغاير، عما ألفه المعادون له."

– "كيف؟"

ابتسم زكريا، ثم صمت قليلا قبل أن يجيب على السؤال، وكأنه كان راغبا في إضافة عنصر التشويق لحديثه.

– "أخبرنـي أولا... هل تؤمن بأن الحياة قد قامت على صراع بين الخير والشر، بين آدم وإبليس؟"

- "نعم، ولكن ما علاقة هذا..."

- "صبرا، سيتضح لك كل شيء، ولكن أجبني أولا على سؤالي الثاني... هل تعتقد بأن ما يجري لك اليوم هو بمعزل تام عما جرى لـك بـالأمس، أو بمعنـى آخر، القرارات التي ستتخذها اليوم، وما سيترتب عنها من أفعال، هل ستؤثر على مستقبلك، ومسار حياتك، أم أن الحياة لا يوجد بها ترابط؟"

- "بالتأكيد لكل فعل ردة فعل، ولكل قرار نتيجة."

- "إذاً لكـي تفهم الحاضر، لابد وأن تنبش في الماضي، وكلما رجعـت إلى الوراء، كلما إتضحت لك الصورة أكثر. هل تعلم لماذا؟ لأن فهم الإنسان لمجريات الحياة تتعقد مع مرور الزمن، ومع تراكم الأحـداث. لهـذا أنـا أخـذتك إلى بداية التاريخ البشري... إلى آدم وصراعه مع إبليس، إلى بداية الصراع بين الخير والشر، بين الرغبة فـي الحـياة والرغبة في تدميرها، بين الحقيقة والوهم، بين المعتقد والخرافة... بين عبادة الخالق وعبادة المخلوق."

- "هل تريد القول بأن هناك طائفة قديمة ذات معتقد قديم يرجع نسبها إلى إبليس وصراعه مع آدم؟!"

- "الـصراع يـا أسـتاذ نعـيم في نهاية الأمر هو صراع بين المعـتقدات، على هذا قامت أغلب حروب الإنسان، والمنتصر فيها هو الـذي يـستطيع أن يتـرك الأثر الأقوى، فتبقى أفكاره حية تنبض في شرايين المجتمع، وليس الذي يحتل الأراضي، كما يعتقد العامة... دعني أريك شيئا."

ذهب زكريا إلى خزانة في طرف المتجر، وأخرج منها شمعدانا قديما ذا سبعة أطراف للشموع.

- "هل تعلم ما هذا؟"

- "نعـم، هـذه المينورة... الشمعدان الذي يستخدمه اليهود في أعيادهم."

– "معلـومـاتك صـ حيحة، لقد أهداني إياه صديق يهودي كندي توفى منذ عدة أعوام... هل تعلم ما هو الاسم الذي يطلق على جزع الشمعدان الذي يحمل الأطراف السبعة؟"

– "لا."

– "يطلق عليه الشمش."

– "الشمش؟"

– "نعم الشمش... كلمة قديمة في اللغة العقّادية التي كان يتحدث بهـا أهـل بابل بالعراق منذ آلاف السنين، وهي تعني إله الشمس... لـيس هـذا فقط، بل إن عدد أطراف الشمعدان هو سبعة، نفس عدد الأجرام السماوية التي كانت تعبد عند الكثير من الحضارات القديمة، بما فيها الحضارة البابلية... دعك من هذا، هل تعلم ما هو أقدس يوم عـند عـبدة الشمس؟... هو اليوم الموافق لما كان يعتقد بأنه ولادة الشمس، حيث تبدأ ساعات النهار في الازدياد."

– "الخامس والعشرون من ديسمبر!"

– "يـوم الكريستماس، اليوم الذي هو من المفترض يوم ولادة المـسيح عليه السلام، مع العلم بأنه لا يوجد دليل واحد من الإنجيل يفيد بأن هذا هو يوم مولده؛ بل أن الطائفة الأرثوذكسية التي انتمي انا إليها، لا تؤمن بهذا التاريخ، كيوم مولد المسيح عليه السلام."

– "التـسلل إلـى المعتقدات، وتحويلها من الداخل، هل هذا ما تشير إليه؟"

ابتـسم زكـريا، هازاً رأسه بالموافقة، وهو ينظر إلى نعيم، ثم قال:

– "ولك أن تتخيل الباقي."

صـمت نعـيم قليلا متأملا ما قد سمعه للتو، ثم أخذ يفكر مرة أخرى في علاقة رمز الشمس مع ما جاء في خطاب نجم الدين غول الـذي كـان قد حفظه عن ظهر قلب، ومرة اخرى بدات تتوافد على

ذهـــنه ذات الأسئلة المحيرة التي شرع يجيب عليها... أين هي مدينة حَـــدَاد؟ مـــا هـــو ذلك الأمر الذي سيحدث بها ويعيد الغائب؟ ومتى سيكون الحدث؟... حدَاد... فجأة خطر على بال نعيم أمر!

– "إله الشمس كان له أسماء مختلفة عند مختلف الأقوام، أليس كذلك؟"

– "نعم هذا صحيح."

– "هل مر عليك اسم حَدَاد؟"

ما إن نطق نعيم بهذا الاسم، حتى تجهمت ملامح زكريا شاهين، واخـــتفت الابتـــسامة التي كان قد رسمها على وجهه، وكأنه قد رأى فجأة موجة تسونامي تسلك طريقا متجها إليه!

– "أين... أين سمعت بهذا الاسم؟"

استغرب نعيم من هذا القلق الذي بدا واضحا على زكريا بمجرد ســـؤاله عـــن حَـــدَاد، ولكن سرعان ما تحول الاستغراب إلى شعور بالإثـــارة، مع إدراكه بأنه قد أصبح قاب قوسين أو أدنى من معرفة شيء عن أمر هذا الاسم المبهم!

– "أرجو ألاّ أكون قد ضايقتك بكثرة أسئلتي."

– "ســـؤالك عن ذلك الرمز لم يكن فقط من باب الفضول، أليس كـــذلك؟ أنت تبحث عن شيء ما..." نظر زكريا إلى نعيم بتمعن، ثم أكمـــل..." أنصحك بالابتعاد عن هذا الطريق الذي تسير فيه، هذا إن كانت لديك أسرة، لا تريد لها الحسرة على ما قد يجري لك، أو حياة مستقرة لا تريد لها أن تنقلب رأسا على عقب."

ابتسم نعيم، ثم قال:

– "الحمد لله، فليس لي لا هذا ولا ذاك؛ ومع ذلك أشكرك على النصيحة، ولكنك لم تجب على سؤالي."

ظـــل زكريا صامتا لبضع ثوان، ثم اتجه نحو صورة له قديمة بعـــض الشيء تجمعه مع شاب وسيم في سن نعيم الذي لفت إنتباهه

كـــون بـــرواز هذه الصورة هو الأكبر من بين باقي الصور المعلقة على الحائط...

– "كان إلياس ابني من الشباب الرافضين للمشاركة في الحرب الأهلـــية، وفي الوقت ذاته لم يرغب في ترك لبنان، والهجرة مع من هاجـــر مـــن رفقائه، والكثيرين غيرهم. ظل هنا معي في بيروت... كان شابا شجاعا؛ ورث مني حب المغامرة والبحث، كما كان مغرما بإستكـــشاف بلاده والكشف عن مناقبها وآثارها..." تنهد زكريا تنهيدة مليئة بالذكريات، ثم استطرد حديثه..." في مساء ذات ليلة، قبل انتهاء الحـــرب الأهلـــية بنحو سنة، رن جرس باب المنزل. عندما فتحته، وجـــدت إلياس، وقد بدت عليه دهشة لم أر مثلها من قبل. علمت منه أنـــه كان في رحلة استكشافية في مغارة جعيتا؛ وقتها كانت المغارة مغلقـــة أمـــام الزوار بسبب الحرب، ولم تأبه لها كثيرا الدولة... في أثـــناء استكشافه للمغارة السفلية، وجد إلياس في منطقة تسمى بركن الآلهة قطعة كلسية كان محفورا عليها نقش غريب من صنع إنسان، كانـــت عـــبارة عن حروف ظن عند رؤيته لها بأنها باللغة العبرية، فتـــضايق جـــدا لاعـــتقاده بـــأن هـــذا النقش كان ربما لأحد الجنود الإسرائليين الذين اجتاحوا لبنان في سنة اثنتين وثمانين، فأراد وضع اسمه على سبيل الذكرى. كان إلياس يكره إسرائيل، ويعتبرها السبب الحقيقـــي وراء مـــا أحاط بلبنان من حروب ودمار، لذلك لم يستطع تحمـــل رؤيـــة تلك الحروف، فأخذ يزيحها بالمعول الذي كان معه؛ ولكـــن ســـرعان ما اكتشف أن الأمر لم يكن مجرد نقشة نقشها أحد جـــنود الجـــيش الإســـرائيلي، بل كان الأمر أبعد من ذلك، فقرر الاستعانة بي."

– "ماذا وجد؟" سأل نعيم، وقد شده الحديث.

– "وجـــد مزيدا من تلك النقوش محفورة تحت طبقة كلسية، مما كان يعني بأنها قديمة جدا. ليس هذا فقط، ولكن الحروف التي

ظـنها إلـياس هي باللغة العبرية لم تكن كذلك، بل كانت حروفا آرامية."

– "آرامـية؟" أخذت نبضات قلب نعيم تزداد، وقد شعر بالرابط يقوى بين ما كان يقصه زكريا، وما بين رسالة نجم الدين غول!

– "نعم، فلم يكن إلياس على دراية باللغات القديمة مثلي، ولذلك تشابهت عليه الحروف."

– "لم أفهم قصدك."

– "اللغـة الآرامـية هي أم اللغات الشرقية، منها أتت العربية والفارسـية، وحتـى اللغـات الهندية. كل هذه اللغات تطورت، هي وحروفها عن الآرامية، ولكن بقيت لغة واحدة لم تتغير حروفها كثيرا عن الحروف الآرامية وظلت شديدة الشبه بها."

– "العبرية!"

– "بالضبط، ولذلك وقع إلياس في الخطأ."

– "وماذا عنك، هل استطعت قراءة تلك الحروف؟"

– "كانت الحروف مهترئة مع مرور السنين، وما أصابها من ترسبات كلسية، ولكني استطعت أن أتهجى كلمتين... **أبناء حَدَاد**."

– "أبناء حَدَاد!... ولكني لم أر تلك المنقوشات التي تتحدث عنها في مغارة جعيتا."

– "أنت لم ترها، لأنها لم تعد هناك. إلياس لم يكن بمفرده عندما اكتشف المنقوشات الحجرية. كان معه رفيق... يبدو أن الطمع تسلل إلـى قلـبه، عـندما علم بقيمة الكشف الأثري... قام بقص القطعة الحجرية، ثم هرب بها إلى خارج لبنان."

– "وماذا فعل إلياس؟"

– "لا شـيء... أصيب بالإحباط من جراء خيانة رفيقه. شعر بأنـه المـسؤول عما حدث؛ لأنه دل كمال على الموقع، واصطحبه معه."

- "كمال؟"

- "كمـــال أغلـــو... قرأت عنه بعد تلك الحادثة بسنوات، وقد أصبح من كبار رجال الأعمال، يبدو أنه استثمر الأموال التي جناها من سرقته جيدا."

- "كمال أغلو البليونير التركي! يا لها من دنيا صغيرة... لا بد وأن إلياس يشعر بالغصة، كلما قرأ خبرا عن كمال أغلو."

- "لو كان على قيد الحياة لشعر بالغصة." غرغرت عينا زكريا الـــذي حاول منع دموعه من أن تذرف، ولكنه في النهاية لم يستطع، فأطلق لها العنان.

- "أعـــتذر مـــنك إن كـــنت تـــسببت في استعادتك لذكريات حزينة."

- "أنا لم أنس إلياس أبدا، فهو دائما في بالي."

- "إن كنت لا ترغب في تكملة الحديث، فأنا متفهم."

- "علـــى العكس، أريدك أن تعرف ماذا حصل بعد ذلك، حتى تفهـــم قصدي، عندما حذرتك من مغبة ما أنت بصدده... فبعد حادث السرقة، ذهب إلياس إلى السلطات من أجل إخبارهم بما حدث، وطبعا لـــم يصدقه أحد لعدم وجود دليل على كلامه. طلب منهم على الأقل تـــشديد الحراســـة علـــى مغـــارة جعيتا، خوفا من أن يتسرب خبر الاكتشاف، فيأتي المزيد من المستكشفين من أجل التنقيب عن المزيد مـــن الآثار وسرقتها، ولكن لا حياة لمن تنادي، فقد ظن المسؤولون بأنـــه مجـــرد شاب يحاول لفت الأنظار إليه. بعدها قرر إلياس بأن يكـــرس حـــياته من أجل التنقيب عن آثار أخرى بمغارة جعيتا، دون علم المسؤولين، بل إنه تعلم مني اللغة الآرامية؛ حتى يستطيع فهم أية منقوشات أخرى قد يجدها، وفي ذات الوقت أخذ يبحث عن المقصود بكلمتي أبناء حَدَاد."

- "وهل استطاع أن يصل إلى شيء؟"

– "بالنسبة لمغارة جعيتا، لم يجد في الجزء السفلي بعد بحث حثيث أي أثـــر مشابه، وعندما همَّ باستكشاف الجزء العلوي كانت السلطات قد علمت بما كان يقوم به، فمنعته لعدم حصوله على التراخيص المناسبة، بل كادت تقاضيه لولا تدخل بعض الأصدقاء النافذين. أما بالنسبة لأبناء حَـدَاد، فقـد ساعدته أنا في البحث؛ واستطعنا، بعد مراجعة العديد من المراجع القديمة، الوصول إلى أمر ذكر، وكان محطة استفهام كبير لدى بعض المؤرخين وعلماء الآثار."

– "وما هو ذلك الأمر؟" سأل نعيم بشغف بدا واضحا.

– "فـــي سهل البقاع، تم العثور منذ زمن على مخطوطة قديمة باللغـــة الآرامـــية كانـــت مدفـــونة في معبد أثري. الغريب في هذه المخطـــوطة هو أنها كانت عبارة عن مجموعة من الابتهالات دونها كهنة المعبد لإله الشمس... **حَدَاد**."

– "مهلا، مهلا... ماذا قلت، إله الشمس حَدَاد؟"

– "حتى أنا وإلياس استغربنا من هذا الأمر، فنحن لم نسمع من قـــبل أنه كان هناك إله للشمس يدعى حَدَاد، وما زاد من حيرتنا أكثر هـــو أن ذلـــك المعـــبد الذي اكتشفت فيه المخطوطة كان من المعابد المعروفة لبعل."

– "بعل؟ الذي ورد في القرآن؟"

– "نعـــم، ومن المعروف أن بعلا كان يُعبد من قبل الكنعانيين في الشام والعسيريين في العراق، بل كان هو المعروف بإله الشمس... إذاً، مـــا معنى وجود مخطوطة تتحدث عن إله آخر للشمس يدعى حَدَاد في معبد يخص بعلا؟ كان هذا هو السؤال الذي ظللنا أنا وإلياس نبحث عن إجابـــة لـــه. وبعـــد مـــراجعة كل ما كتب، وكل ما تم العثور عليه من مخطـــوطات تتحدث عن معتقدات الحضارات الغابرة استطعنا الوصول إلى تصور اعتقدنا بأنه هو الأقرب إلى الحقيقة، وقد أثبتت لنا الأيام بعد ذلك صحة ما وصلنا إليه، وإن كان الثمن باهظا."

صـــمت زكريا قليلا، مستجمعا قواه لمواصلة الحديث الذي كان مؤلما بالنسبة له، ثم استطرد:

– "علـــيك أن تـــدرك يا أستاذ نعيم بأن عالمنا هذا متصل مهما ابتعدت الأقطار، ومهما طالت الأزمان، ومن الأخطاء الجسيمة التي يقـــع فـــيها الكثير من الناس، أنهم ينظرون إلى الشجرة الواحدة، ولا يـــرون الغابـــة بأكملهـــا... بعل، رع، آتون، حورس، كوازيلكوت، جوبتر، وغيرهم كثير عُبدوا من دون الله من قِبَل مختلف الحضارات عبر أزمنة متفاوتة، كان يجمعهم جميعا أنهم اعتُبروا من قبل أتباعهم آلهـــة للـــشمس. وفـــي جميع تلك الحضارات كان إله الشمس يمثل الـــسلطة الإلهـــية العليا فوق باقي الآلهة. تستطيع القول بأن كل تلك الأســـماء المختلفة التي ذكرتها هي في نهاية الأمر لشيء واحد اسمه حَدَاد... لا تستغرب، فمنذ القدم وكانت هناك فئة من المجتمع تسعى إلـــى الـــسيطرة على الجماهير، ولكن من وراء الكواليس، فئة ظلت تصارع الأنبياء، من خلال تشويه ما كانوا يدعون إليه، وتحويره إلى مـــا يناسب رغبتهم في السلطة، وإخضاع الجماهير عبر التحكم في المعتقد، ووضع حاجزا بين الإنسان وربه، بحيث يمثل السلطة الدينية التي تعطي الشرعية لسلطة الحاكم الذي نصب نفسه إله الأرض ابن إله الشمس... لا تستغرب يا أستاذ نعيم، فمنذ القدم وطبقة الكهنة في مخـــتلف الحضارات كانت تمثل سلطة يستعين بها الملك أو الفرعون مـــن أجل إضفاء الشرعية على حكمه المطلق لشعبه، وطبقة الكهنة هذه كانت طبقة في غاية من السرية، لديها طقوسها الخاصة التي لا يعـــرفها إلا المنـــتمون إليها، وعلى رأس هذه المجموعة كان الحاكم الذي نصبوه ابنا للإله، الحاكم بأمره الذي لا يُرد له طلب ولا يُناقش لـــه أمر. وعلى اختلاف أسماء الآلهة عبر الأزمنة والأماكن، كان لا بـــد وأن يكون هناك اسم واحد لا يعلمه إلا النخبة، ولا تعلمه العامة. اســـم شـــكل بؤرة لأتباعه منذ القدم، منذ أن قرر نفر من الناس أن

يتـبعوا خطـوات الـشيطان. ومن هنا تولدت أقدم جماعة سرية في تاريخ البشرية، جماعة استطاعت أن تسيطر على الكثير من الشعوب عبـر تحـريف معتقداتهم، بما يتناسب مع مصلحتها.. جماعة **أبناء حَدَاد!**"

– "حكـومة الظـل..." همـس نعـيم، متأملا ما قاله زكريا شاهين.

– "أسـتاذ نعـيم، لا تـرتكب الحماقة التي ارتكبتها أنا، والتي كلفتنـي سمعتي العلمية، ووظيفتي، وأعز الناس إلى قلبي... إلياس. الـنفوذ الـذي استطاعت أن تصل إليه هذه الجماعة اليوم يفوق كل تـصور؛ يفوق نفوذ الماسونيين، والإلوماناتي المتنورين، والسبئيين، ويهـود الدونمـة مجتمعين. لذلك أنصحك بألاّ تسأل أحدا غيري عن حَدَاد وألاّ تظهر أي معرفة بما قلته لك الآن، وإلا فتحت على نفسك أبـواب جهـنم! صدقني، ساعتها ستكون أنت أول المحترقين، ولن تكون آخرهم!"

– "مديـنة حَدَاد... الحدث الأكبر... يا إلهي! بالطبع هو ذاك!" ردد نعـيم، مخاطـبا نفسه، دون أن يلتفت إلى نصائح زكريا، وهو يخـرج مـن جيـبه هاتفه الجوال؛ ليكتب نص رسالة عاجلة لجعفر الأشعري.

– "أشـكرك يا أستاذ زكريا جزيل الشكر! ما قلته لي كان في غاية الأهمية!"

مـا إن أنهـى نعيم جملته، حتى ضغط على زر الإرسال. كان نص الرسالة:

انفكت الطلاسم. وجب اللقاء.

تـوجه نعيم مسرعا نحو باب المتجر أمام دهشة زكريا الذي لم يـتوقع مـثل ردة الفعـل هذه! ما إن خرج إلى الهواء الطلق، حتى استنـشقه بعمـق، وكأنه مولود قد خرج للتو من ضيق الأرحام إلى

ســـعة الحـــياة، بعدها بثوان أصدر الهاتف الجوال رنة منبهة بقدوم رسالة من جعفر الأشعري، كان نصها:

لقد وصلت اليوم إلى مدينة بوسطن. أنا في انتظارك مع رجل آخر، يرغب في محادثتك.

35

تـــوقفت ســـيارة لكـــزس زرقاء أمام المبنى رقم 150 بشارع هنتنجـــتون فـــي مدينة بوسطن؛ خرج منها جعفر الأشعري، ثم أخذ يـــتوجه إلـــى داخل المبنى الذي أدرك من واجهته أنه عمارة سكنية فاخرة؛ وعلى الرغم من يقينه بأنه في الغالب لن يحصل على معلومة ذات فائدة من هذه الزيارة، إلا أن جعفر قرر المحاولة، ومن يدري، فلعـــل الحـــظ يسعفه اليوم كما أسعفه مرارا من قبل. كان يدرك بأن ليس لديه القدرة التحليلية ولا المعرفة الموسوعية التي كان يتمتع بها حليفه الجديد نعيم الوزان، ولكن ما كان دوما يعوضه هذا النقص هو تواجده في المكان المناسب في الوقت المناسب... البعض يسمي هذا الحـــظ، والـــبعض الآخـــر ينعته بالقدر، ولكن مما لا شك فيه أنه لا يتـــسنى لجمـــيع البـــشر. تذكر كيف كان الدكتور عبد القادر يصفه بالبراجماتي الواقعي الذي يجيد استخدام أبسط الفرص من أجل تدعيم قـــضاياه، على خلاف نظرة غالبية قادة العروة الوثقى له بأنه إنسان انتهازي همه الأول هو الوصول إلى أعلى هرم السلطة...

– "ومنذ متى كان الطموح عيبا أو جرما، فعلى الأقل أنا أسعى فـــي الضوء، في حين أن غيري يسعى في الظلام، ويدعي كذبا ألاّ رغبة له في العلو."

كانت تلك الجملة التي قالها ذات مرة أمام أحد قيادي الجماعة، والتـــي نقلـــت إلـــى مجلـــس القادة، هي الكفيلة بفصله، بالرغم من اعتـــراض الدكتور عبد القادر، وبالرغم من اعتراض الرجل الآخر الذي كان على مر السنين يزداد اقتناعا بأن العروة الوثقى قد أصابها الـــوهن؛ ذلك الرجل الذي قرر التعاون معه، بعد فناء غالبية أعضاء

جماعـــة الحـــسيني، مـــن أجل اكتشاف شخصية الخائن الذي وشى بالدكتور عبد القادر بنوَزّاني، ورفاقه!

* * *

– "مساء الخير، أبحث عن ساكن اسمه طلعت نجاتي." سأل جعفر موظف الاستقبال الذي بادره فور دخوله إلى المبنى بابتسامة ودودة.

– "طلعـــت نجاتـــي؟ لا أظن أنه يوجد ساكن بهذا الاسم، ولكن دعني أتأكد."

راجع موظف الإستقبال الحاسب الآلي الذي كان أمامه، ثم بعد فـــراغه، أكـــد لجاســـم عـــدم وجـــود اسم طلعت نجاتي بين أسماء المستأجرين، وذويهم.

– "ربما يكون قد ترك المكان، فأذكر أني أرسلت له طردا إلى هذا العنوان، منذ نحو ثلاث سنوات."

– "لـــدي في قاعدة البيانات أسماء كل من استأجر هنا منذ أكثر مـــن عشرين عاما، ولا يوجد اسم طلعت نجاتي... آسف... هل أنت متأكد من العنوان؟"

– "نعم، مئة وخمسون شارع هنتجتون بمدينة بوسطن."

– "آسف، ولكن هذا كل ما لدي."

خرج جعفر من المبنى، وعلى الرغم من أن الحظ لم يسعفه هذه المرة، إلا أنه على الأقل تأكد مما قاله له نعيم من أن طلعت نجاتي لم يكـــن هـــو المقصود بذلك الطرد الذي أرسله موشي جولد منذ ثلاث سنوات...

36

للمـــرة الرابعة طرقت لينا أبواب مختبر الحمض النووي، ولكن على خلاف المرات السابقة في الأربع وعشرين ساعة الماضية، كان سام قد أعد التقرير الذي ظلت تنتظره على شغف.

– "فـــي العـــادة مثل هذه التقارير تأخذ أكثر من ثمانٍ وأربعين ساعة. تذكري أني أنجزتها لك في نصف المدة، مما يعني أنك مدينة لي بالعشاء."

تلقفـــت ليـــنا التقرير من يد سام، ثم أخذت تلتهمه قراءة، وما ان فرغت من آخر سطر فيه، حتى انطلقت نحو المصعد المؤدي إلى وحدة العناية المركزة، في وسط دهشة سام الذي كان يتأمل ردة فعل مختلفة!

* * *

– "منال... يجب أن نتحدث!"

– "مـــساء الخير لينا، أكل شيء على ما يرام؟" تساءلت منال، وقد فوجئت بطلب لينا التي بدت في شدة الاضطراب.

– "لا، كـــل شـــيء ليس على ما يرام. يجب أن تعلمي بما قد توصـــلت إلـــيه، فالأمر لا يحتمل أي تأجيل!... قاعة الاجتماعات لا يوجد بها أحد، لنتحدث هناك على انفراد."

قادت لينا منال إلى قاعة صغيرة بالقرب من مدخل وحدة العناية المركزة، وما إن دخلتا، حتى أغلقت لينا الباب بالترباس.

– "فكرت كثيرا قبل أن أفاتحك في هذا الموضوع... لكن لا بد، وأن تعلمـــي الحقيقة، مهما كانت مفزعة، وخاصة الآن بعد حصولي على الدليل القاطع!"

– "الدليل القاطع على ماذا؟ لينا ما خطبك، لم أرك من قبل في مـــثل هـــذه الحالة... أرجوك أنا أعصابي لا تتحمل!... كفاني ما أنا فيه!"

– "أعلم حبيبتي، صدقيني أعلم حجم المعاناة التي تمرين بها... يا ليتني لم أكتشف ما أكتشفته، فلربما جهلي كان سيريحني، وما كنت لأضطر اخبارك، فأزيد من عنائك... ولكن... ولكن حبي وإحترامي لك ولفؤاد هما اللذان يضطراني للحديث معك الآن، لا بد للمجرم أن ينال جزاءه، لا بد!"

– "مجرم؟! من تقصدين؟"

بدأت لينا تحكي لمنال ما جرى منذ عدت أيام، عندما قرأت مع سعود وجمال أشعة فؤاد في الليلة التي دخل فيها المستشفى، وما تبع ذلـــك من أحداث وشكوك إلى أن وصل حديثها لليلة الماضية، عندما عثـــرت على شريحة مختبر المريض الذي أجريت له عملية مشابة للتي أجريت لفؤاد.

– "وهذا تقرير الحمض النووي الخاص بتلك الشريحة، حصلت عليه للتو."

ناولـــت لينا التقرير لمنال، فتلقفته، ثم أخذت تقرؤه على مهل، ومـــا إن فرغت من قراءته، حتى رفعت رأسها، ناظرة إلى لينا، وقد تحولت معالم وجهها إلى علامتي استفهام وتعجب.

– "ولكـــن التقريـــر يقـــول إن العيـــنة هي لفؤاد، وليست لذلك المريض الآخر!"

– "بالـــضبط! وهـــذا هـــو الدلـــيل القاطع على جرم الدكتور بيرسون!"

– "ولكني لا أفهم... كيف؟"

– "الدكـــتور بيرســـون أجـــرى استئصال ورم من رئة هذا المـــريض، ولكنه لم يرسل العينة فورا إلى المختبر مع الممرضة،

كمـــا هـــي العادة، بل احتفظ بها حتى فرغ من عملية فؤاد، ثم قام باســـتبدال العينتين ببعضهما. عينة الورم الخاصة بالمريض الآخر ذهـــبت إلـــى المختبـــر على أنها عينة فؤاد، وعينة الرئة السليمة الخاصة بفؤاد ذهبت إلى المختبر تحت اسم المريض الآخر. وبذلك يتوافر دليل لدى الدكتور بيرسون على أنه استأصل ورم فؤاد، في حـــين أنـــه فـــي الواقع لم يستأصل سوى الجزء السليم من الرئة، وتـــرك الـــورم كما هو... إنها جريمة قتل جراحية، جريمة ظن الدكتور بيرسون أن أحدا لن يستطيع كشفها، بشرط أن يقوم بإخفاء جميع الشرائح الخاصة بالمريضين، بعد إصدار التقارير المخبرية، ولولا إحتفاظ أحد الأطباء المقيمين بإحدى تلك الشرائح، وتواجدي أنا في المكان المناسب في الوقت المناسب، لفلت الدكتور بيرسون بعملته!"

شـــعرت مـــنال برغبة ملحة في التقيؤ، مما اضطرها أن تهرع إلى المرحاض الخاص بقاعة الاجتماعات؛ ما إن توقفت من إفراغ ما كـــان في جوفها، حتى انتابها بكاء هستيري، من شدته أخذ كل جزء من جسدها النحيل في الانتفاض.

– "كيف... لما... لماذ... لماذا؟... ماذا... ف.. فعل... فؤاد.. للد.. دكتور بيرسون... لكي... لكي يستحق هذا؟"

تلقفـــت لينا منال بين أحضانها، في محاولة للتهدئة من روعها. ظلتا هكذا على أرض المرحاض، ولينا تُمَسِد على شعرها، الذي كان قد انكشف من تحت خماره، وتقبل رأسها.

– "لا أدري لماذا فعل ما فعل. هذا ما يكاد يقتلني من الحيرة... ولكن مهما كانت الأسباب، فيجب أن ينال بيرسون جزاءه!"

– "ليـــنا... خذي... خذي... جوالي... كلمي... كلمي كمال... أخبريه بما جرى."

– "كمال؟"

– "نعـــم... كمال أغلو... صديق فؤاد وشريكه... يجب أن... يعلـــم. أنـــا واثقـــة... أنـــا واثقة بأنه... بأنه سيتخذ... الإجراءات المناسبة."

أخرجت لينا جوال منال من حقيبتها، ثم بعد إيجادها لاسم كمال أغلـــو فـــي قائمة المعرفين، ضغطت على زر الاتصال. بعد ثلاث رنات، جاء صوت كمال عبر السماعة من الخط المقابل.

* * *

أنهـــى كمال محادثته مع لينا، وكان قد ملأه الغضب مما سمع، فالأمـــر قـــد أخـــذ منحا غير الذي كان متوقعا له. رمى جواله على الأريكة المجاورة وظل يسب ويلعن..." بيرسون لا بد، وأن يدفع ثمن غـــبائه واستهتاره." أخذ يفكر، ولكنه كان مدركا أنه لن يستطيع فعل شـــيء في بوسطن، فهي ليست ضمن منطقة نفوذه. الوحيد صاحب السلطة هنا هو جورج روكفلر، وحسب ميثاق بولدربرج، فمن يتعدى على سلطات معلم أكبر في منطقة نفوذه يعرض نفسه لحساب عسير، قد يكلفه الكثير!...

انتـــزع كمـــال جواله من فوق الأريكة، ثم قام بالإتصال على مضض!

– "مساء الخير جورج، لدينا مشكلة!"

37

أيام معدودات هي التي تبقت على الحدث الأكبر الذي أعدت له جماعة أبناء حَدَاد، هكذا أدرك نعيم، والأيام كانت تمر مسرعة، كجواد يعدو في حلبة سباق يريد الوصول إلى خط النهاية...

"لا بد وأن تصل المعلومة، ولكن لمن؟" لم يكن أمامه سوى جعفر الأشعري، وصديقه الذي يمده بالمعلومات من داخل العروة الوثقى؛ "ذلك الرجل، من يكون؟" شيء ما في داخله مده بالإجابة، ولكن كان عليه أن يتأكد... إن كان هو من يظن، فسيستطيع فعل شيء؛ هكذا تأمل نعيم وهو يقود السيارة المستأجرة إلى فندق الكوبلي بمنطقة باكباي، حيث الموعد بعد نصف ساعة، كما جاء في الرسالة التي وجدها على جواله فور وصول الطائرة إلى مطار بوسطن الدولي. المعلومة، التي بحث نعيم عنها، فوجدها ثم حللها، كان ينقصها شيء؛ لكي تكمل له الصورة، صورة ما سيحدث، تلك الصورة التي رسمها منذ قرن من الزمان أبناء حَدَاد! كان ينقصها تلك القفزة التي برع فيها نعيم الوزان، وأتقنها... قفزة الخيال التي بها استطاع أن يجتاز بحر الجمود، وعراقيل الهون، فأصبح يرى ما لم يره الآخرون، والتي بها استطاع أن يصل إلى ما لم تصل إليه العروة الوثقى بكل ما لديها من رجال، ونفوذ... والتي بها استطاع نعيم الوزان أن ينزع عنه الأغلال!

* * *

صف السيارة أمام الفندق، ثم توجه إلى الداخل. كان رواق الاستقبال يعج بالناس كعادته في وقت الإجازات والأعياد. نظر نعيم

إلى ساعته، أدرك أنه لم يتبق سوى ثلاث دقائق كان عليه خلالها أن يذهب إلى الطابق الأول، جناح 114. توجه إلى المصعد بعد أن نظر حوله؛ لكي يمسح المكان ويتأكد أن أحدا لا يتتبعه. كان يراوده شك، خاصة بعدما أخذ يربط بين أمور كثيرة قد جرت في الآونة الأخيرة منذ، أن غادر ماليزيا؛ لكي يبدأ هذه الرحلة. كان الأمر يتطلب الحذر...

دخـــل المصعد، وما كاد يقفل بابه، حتى امتد ذراع من الخارج مـــا بـــين مصراعيه، مانعا إياه من الانغلاق، ليدخل بعدها رجل ذو ملامـــح قاتمة، قوي البنيان. نظر إلى نعيم بعينين ساكنتين، وكأنهما مـــصنوعتان من زجاج داكن، لا يستطيع المرء أن يرى روحا قابعة مـــن ورائهمـــا، لكن أكثر ما لفت انتباه نعيم كانت تلك الوشمة التي ظهـــرت فـــوق بـــاطن معصمه لحظة ما مد ذراعه؛ لكي يفتح باب المصعد. تذكر على الفور أين رأى صاحبها من قبل!

مـــد نعـــيم يـــده نحو زر الطابق الأول، ولكن سرعان ما غير الاتجـــاه نحو الطابق الخامس. حاول ألاّ يبدي أية علامات للقلق، بل رسم على وجهه ابتسامة، وهو يسأل الرجل عن الطابق الذي يرغب في الصعود إليه، حتى يضغط له على زره.

– "الطابـــق الـــسادس." قال بصوت، لا يقل سكوناً عن عينيه، يملؤه الجمود.

أخـــذ نعـــيم نفـــسا عميقا، محاولا بكل ما أوتي من قدرة على التظاهـــر كما وكأن كل شيء على ما يرام، وكأنه لم يكتشف للتو أن هذا الرجل كان يتتبعه، منذ أن كان في دبي... فتح باب المصعد في الطابق الخامس. خرج منه نعيم، بعد أن سلم على الرجل. ظل يمشي بثـــبات، مقاوما رغبته في الالتفات خلفه إلى ناحية المصعد، حتى لا يشك الرجل في أنه قد اكتشف أمره. ما إن سمع صوت باب المصعد يغلـــق، حتـــى اختلس نظرة إلى الوراء، فقط لكي يتأكد بأنه لا أحد وراءه، وعندما تأكد، ركض بكل ما أوتي من قوة نحو السلالم، وأخذ

يـــتجه نزولا نحو الطابق الأول. كان على يقين بأن الرجل سيستخدم هـــو الآخـــر السلم لكي ينزل إلى الطابق الخامس، ليحاول تتبعه خلـــسة. وبالفعل، ما كاد نعيم يصل إلى الطابق الرابع، حتى سمع أصوات أقدام تقفز قفزا على عتبات السلم من فوقه، مما اضطره إلى التوقف والتواري جانبا؛ حتى لا يفتضح أمره. بعدما دخل الرجل إلى الطابق الخامس، عاود نعيم نزوله مسرعا قبل أن يكتشف الرجل أنه لـــيس فـــي ذلـــك الطابق الذي دخله للتو. أخذ يقفز هو الآخر فوق العتبات حتى وصل إلى الطابق الأول. نظر خلفه مرة أخيرة، وعندما اطمـــأن بألاّ أحد وراءه، فتح الباب المؤدي إلى الردهة، ثم اتجه إلى الجناح رقم 114.

* * *

في اللحظة ذاتها في الطابق الخامس، أخرج رحيم هاتفه الجوال مـــن جـــيب معطفه، ثم ضغط على زر الرقم واحد. بعد رنتين جاء صوت كمال:

– "ماذا تريد؟... اختصر."

– "نعيم كشف أمري." قال بصوت هادئ.

– "تبا!.. كيف حدث هذا؟!"

– "لا أدري، ولكـــنه حاول جاهدا أن يخفي تعرفه علي، عندما دخلـــت معـــه في مصعد الفندق، ولكن ما أقلقني أكثر هو ردة الفعل التي لاحظتها عليه، عندما وقعت عيناه على الوشمة."

– "ما الذي تريد قوله؟!"

– "نعيم توصل إلى شيء."

– "لقـــد اســـتهنا كثيرا بذلك الوغد!" قال كمال وقد بدا الغضب واضـــحا على صوته... "كان يجب التخلص منه منذ سنين!... لا بد من تصحيح الخطأ، اعثر عليه، ثم بلغه تحياتي!"

38

بادر نعيم بإغلاق باب الجناح رقم 114 فور دخوله، أمام دهشة جعفر الذي أخذ يشعر بالقلق تجاه العجلة التي بدت واضحة على ضيفه المنتظر، وكأن شخصا كان يلاحقه.

– "حمدا لله على سلامة الوصول أولا. أكل شيء على ما يرام؟" سأل جعفر بارتياب.

– "لا أدري... لقد اكتشفت للتو أني مراقب، منذ أن كنت في دبي على الأقل."

– "ماذا!... من قبل من؟ العروة الوثقى؟"

– "لا، بل من قبل أبناء حَدَاد!"

– "أبناء حَدَاد؟!"

– "لا أدري كيف، ولكنهم كانوا على دراية بكل تحركاتي منذ البداية."

– "مستحيل! كيف استطاعوا بهذه السرعة... هل أنت واثق مما تقول؟ ربما يكون في الأمر لبس ما، وقد هُيِّء لك بأنك..."

لم يمهل نعيم جعفر، لكي يكمل جملته، حيث قاطعه، مؤكدا بعد أن التقت عيناه بعيني مضيفه:

– "أقول لك أنا مراقب! لا يوجد لبس في الموضوع... علينا التصرف بأسرع ما يمكن، فلا أدري إن كانوا قد علموا بما توصلت إليه أم لا. اسمعني جعفر، الأمر الآن لا يحتمل أية مراوغات، عليك أن تخبرني بكل شيء... كل شيء!"

– "بالطبع، فنحن فريق واحد الآن."

– "إذاً أخبرنـــي، من الذي يمدك بالمعلومات من داخل العروة الوثقى، وهل لازلت على اتصال به؟"

– "نعيم، لقد وعدتك في الرسالة التي أرسلتها لك البارحة بأني لـــن أكون الشخص الوحيد في انتظارك، وأنا عند وعدي... الإجابة على جميع تساؤلاتك ستجدها بالداخل."

قاد جعفر نعيم على الفور إلى صالة الاستقبال الخاصة بالجناح، حـــيث كان ينتظرهما رجل ما إن رأى نعيم، حتى تقدم نحوه مرحبا، مادّا ذراعيه.

– "ما هذه الغيبة الطويلة يا نعيم، ثلاث سنوات!"

عانـــق الـــشيخ عمر الحسيني نعيم الذي لم يتفاجأ كثيرا لرؤيته هـــنا، حـــيث كان قد انتابه شعور بأنه هو الشخص الوحيد من داخل العـــروة الوثقـــى القادر على مثل هذه المجازفة من التصرف خارج نطـــاق الجماعـــة، وما قد يؤدي إليه من إبعاد يصل إلى الفصل من دائرة القادة.

– "أنـــت دائمـــا فـــي الـــبال يا شيخ عمر، حتى وإن تباعدت الأجساد."

– "أنـــا آسف على المقاطعة، ولكن بما أن بالك الآن قد ارتاح، بعـــدما أدركت بأنني أعمل مع الشيخ عمر، لماذا لا تخبرنا إلى ماذا توصلت." قال جعفر بشغف، مخاطبا نعيم.

– "صـــبرك يا جعفر، دع الرجل يرتاح بعد رحلته الطويلة. لا تكن عجولا."

– "جعفـــر محق في استعجاله، فالأمر لا يحتمل أي تأجيل." بدأ نعـــيم حديثه، بعدما أشار عليه الشيخ عمر بالجلوس..." الأمر خطير جـــدا، وينبغـــي لنا التصرف بشكل أو بآخر لتنبيه كل ذي شأن قبل فوات الأوان."

– "التنبيه من ماذا؟" سأل جعفر.

– "من الحدث الأكبر الذي ورد في خطبة أبناء حَدَاد، كما كتب نجـــم الـــدين غول. ذلك الحدث الذي سيقع بعد أقل من أسبوع، في الخامس والعشرين من ديسمبر!"

– "ماذا؟!"

– "هـــو كما أقول لكما، في الخامس والعشرين من ديسمبر في مديـــنة حَدَاد سيقع حادث كبير سوف يهز العالم، قد يؤدي إلى دمار الشرق الأوسط بأكمله، وقد يدفع العالم بأسره إلى الفوضى."

– "عمَّ تتحدث يا نعيم؟ وأين تقع مدينة حَدَاد هذه؟"

– "مديـــنة حـــداد هـــي بعلبك يا جعفر... المدينة التي شيدها الفينيقـــيون لتمجـــيد بعل، أحد الأسماء التي كان يطلقها العامة على حَدَاد... هي ذاتها المدينة التي أطلق عليها الرومان اسم هيليوبوليس، عندما احتلوها... هيليوبوليس، مدينة الشمس بالرومانية."

– "مـــا تقوله يا نعيم أمر خطير، هل أنت واثق من معلوماتك؟" سأل الشيخ عمر، مبديا قلقا مما سمع.

– "دعني أشرح لكما من البداية، وستدركان كيف توصلت إلى ما توصلت إليه..."

تحـــدث نعـــيم عن تفاصيل ما جرى له، منذ أن غادر دبي، بما فـــيها ما علمه عن الاحتفال الكبير الذي سيحضره عدد كبير من قادة العـــالم، ومـــن ضمنهم الرئيس الأمريكي في الخامس والعشرين من ديـــسمبر في بعلبك؛ ثم أخبرهم عن مغارة جعيتا، وذهابه إلى زكريا شاهين، وعن كل ما دار من حديث في ذلك اللقاء.

– "أخـــشى يا نعيم أن يكون ما تقوله مجرد استنتاج، تخمينات ذكية، ومن الصعب أن نتصرف بناء على..."

– "انظـــر إلى الحقائق يا جعفر، وسترى بأن قطع الأحجية تقع فـــي موضعها الصحيح... نحن نعلم أن الاجتماع الذي دار لجماعة أبناء حَدَاد كان في العام ألف وتسع مئة وتسعة، أي قبل قرن بالتمام.

نحـــن الآن فـــي الـــوقت الذي وعدت به الجماعة بأن يتحقق الحدث الأكبـــر. نحن نعلم أن أعظم يوم عند جميع الشعوب التي كانت تتخذ من الشمس إلهاً هو الخامس والعشرون من ديسمبر؛ لأنه بمنزلة يوم مولد الشمس. وما هو أهم حدث سيجري في ذلك التاريخ؟!... احتفال بعلـــبك الذي سيحضره عدد من رؤساء العالم، وعلى رأسهم الرئيس الأمريكي. تخيل إذا وقع انفجار كبير في موقع الحفل... انفجار يؤدي إلى مقتل كل هؤلاء من قادة العالم."

– "ولكـــن مـــثل هـــذا العمـــل مخاطرة كبيرة سيجعل من تلك الجماعـــة، أبناء حَدَاد، هدفا لكل جيوش العالم. لا أعتقد بأن جماعة اســـتطاعت أن تـــستمر، على حد زعمك، عبر آلاف السنين، ستقوم بعمل أحمق مثل هذا يدر عليها وبال العالم بأكمله."

– "إلا إذا جعلـــت ذلـــك العمل يبدو، وكأنه من صنع طرف آخـــر... طرف من داخل لبنان، أو بلد من بلدان الشرق الأوسط، وبحجـــة مكافحـــة الإرهـــاب تأتـــي جيوش العالم، كما حدث في السابق!"

– "لا أدري يا نعيم، هذا الذي تقوله أمر يصعب تصديقه." قال جعفر بصوت مرتجف، ثم وجه نظره إلى الشيخ عمر الحسيني الذي ظل صامتا متأملا الحديث..." ما رأيك فيما سمعت؟"

– "هناك أمر آخر يجب أن يوضع في الاعتبار." قاطع نعيم..." أوامر البيع الآجل التي وضعت على أسهم العقار اللبنانية في بورصة الناسداك الأمريكية، هي عشرون ضعف المعتاد... ما الذي يجعل أي شـــخص يضع مثل هذه الأوامر، إلا إذا كان يتوقع هبوطا حادا يصل إلـــى درجـــة الانهـــيار فـــي تلك الأسهم. أنا تأكدت بنفسي من هذه الأوامـــر، كلها قصيرة الأجل، بل أغلب تلك الأوامر ينتهي أجلها في شـــهر ينايـــر القادم، أي مباشرة بعد وقوع الحدث... هناك أشخاص يراهنون على جني أموال طائلة خلال الأيام القادمة!"

– "نعـيم، إذا افترضـنا أن ما تقوله صحيح، فمن أين جاءت جماعة أبناء حَدَاد بكل هذا النفوذ، والقوة؛ لكي تقوم بمثل هذا العمل الكبير؟" كسر الشيخ عمر صمته بهذا السؤال.

– "انظرا إلى هذه الرسمة، جيدا."

رسـم نعيم على ورقة بيضاء رمز حَدَاد، الدائرة المفرغة التي تتوسطها نقطة أشبه بدائرة صغيرة ممتلئة.

– "بماذا توحي هذه الرسمة بخلاف ما قد ذكرته لكما؟"

صـمت جعفـر والشيخ عمر منتظرين الإجابة تأتيهما من نعيم الـذي رسم بعد ذلك رمز حَدَاد آخر بجانب الرسمة الأولى، ثم رسم حولهما دائرة على شكل وجه.

– "تقـصد العين." بادر جعفر بالإجابة، عندما تبين له إلى ماذا كان نعيم يشير.

– "نعم، فالأمر لا يتطلب خيالا كبيرا؛ لكي نرى أن هذه الرسمة تـشبه إلـى حد كبير صورة العين... وليس من قبيل المصادفة أن ترمـز العين الواحدة لدى قدماء المصريين إلى عين رع إله الشمس وهـو الرمـز نفـسه الـذي اتخـذه الماسـونيون والمتنورون في شعاراتهم..."

– "تقصد العين المبصرة التي تتوسط الهرم؟"

– "بكل تأكيد، ذلك الشعار الذي ظلت دلالته تحير الباحثين، هو ذاتـه الـشعار الـذي دونه جدي خليل في مذكراته، عندما كان في إسـتانبول! ألا تريان بأن هناك ترابطاً كبيراً بين كل هذه الإشارات، مما يدل على وجود ترابط بين كل هذه الجماعات، أو بالأحرى انقياد أغلـب تلـك الجماعات تحت لواء جماعة واحدة لم يسمع بها عامة الناس، بالرغم من قدمها... جماعة أبناء حَدَاد!"

سـاد الـصمت قليلا، وكل من الشيخ عمر وجعفر يفكران فيما سـمعاه للتو من نعيم. لم يتوقع أحد منهما أن يبلغ حجم المؤامرة إلى

هــذا الحــد، ولكن أدلة نعيم وحججه كانت متماسكة إلى درجة كان يصعب نقدها، أو الإتيان بتفسير منطقي بديل.

– "ما رأيك فيما سمعت يا شيخ عمر؟" بادر جعفر بالسؤال.

– "لا يــزال هناك أمر واحد يحيرني، ويجب التأكد منه... إلى أي مدى استطاع أبناء حَدَاد التغلغل في العروة الوثقى؟!"

تفاجــأ نعــيم بهذا السؤال الذي جاء ليؤكد ما سبق وسمعه من جعفر، عندما التقى به في الشارقة.

– "هل تعتقد أن الأمر قد وصل إلى هذا الحد؟!"

– "إلــى هــذا الحــد وأكثــر. أقول لك إن هناك خائناً، وربما مجمــوعة من الخونة في أعلى هرم العروة الوثقى. وإلا كيف تفسر مقــتل جمــيع أعــضاء جماعة الحسيني المعروفين فقط لدى القادة؟ وكــيف تفسر إنهاءهم المفاجئ لعملية البحث التي كلفوك بها، بعدما اكتشفت أمر ذلك الطرد الذي أرسله موشي جولد إلى شخص ما في بوسطن؟!" قاطع جعفر، وقد ملأه الحماس.

– "ولكن لماذا تم تكليفي بالمهمة إذا لم يكن هناك رغبة في أن أصل إلى الحقيقة؟"

– "لا تنس بأن تكليفك بالمهمة تم بناء على موافقة غالبية القادة، ولــيس جميعهم، وأنا لم أقل بأن كل قادة العروة الوثقى خونة، ولكن هناك واحد على الأقل؛ وأنا أعلم من هو..."

– "جعفر، كفى! سبق، وأن حذرتك من اتهام شخص بعينه دون دلــيل!" قاطع الشيخ عمر بحزم، قبل أن ينطق جعفر باسم الشخص الذي كان يشك فيه.

– "ولكــن المسألة واضحة وضوح الشمس في وسط النهار... مــن الــشخص الذي أوقف نعيم، بعد إقناعه لباقي القادة بأن عملية الــبحث قــد وصــلت إلى طريق مسدود، بعد أن تم إكتشاف الخيط المــؤدي إلــى بوسطن؟ من كان متواجدا هنا في بوسطن، منذ ثلاث

سنوات، عندما أرسل موشي جولد طرده؟ ومن الذي تسبب في طرد عدد كبير من كفاءات العروة الوثقى، بمن فيهم أنا ونعيم؟ أقول لك لا يوجد شخص غيره، إنه هو..."

- "قلت لك كفى يا جعفر!"

- "جاسم الفراج!"

لـــم يكن جعفر الذي نطق بالاسم، ولكن نعيم الذي توصل إلى استنتاج من هو الشخص المقصود من الحديث.

- "لا نـــستطيع اتهام أحد أهم قادة العروة الوثقى دون وجود دلـــيل قاطع، عليكما أن تفهما هذا جيدا!... نعم، هناك قرائن تبدو مـــريبة، ولكن هذا لايكفي بالنسبة لي لكي أدين شخصا في مكانة جاسم!"

وقف الشيخ عمر الحسيني فجأة ثم أخذ يتوجه نحو باب الجناح. توقف قبل أن يفتحه، ثم استدار نحو نعيم، مخاطبا إياه:

- "لقـــد أبليت بلاء حسنا. لطالما حدثني أبي، رحمة الله عليه، عـــن مآثـــر جـــدك خلـــيل، لدرجة أني تمنيت لو كنت قد خلقت في زمـــنه... يـــبدو وكأن الله قد حقق لي أمنيتي." ابتسم الشيخ عمر، ثم أكمل حديثه..." بالنسبة لاحتفال بعلبك، فسوف أتولى أمره."

- "ولكن كيف، وقد تمت جميع الترتيبات، ولم يتبق عليه سوى أيام معدودة؟" سأل نعيم.

- "لا تقلق، فقريبا سيأتيك الخبر."

* * *

ظـــل جعفر، بعد أن غادر الشيخ عمر الحسيني الجناح، يراقب نعيم الذي كان قد ذهب إلى النافذة المطلة على الشارع، ثم أخذ بدوره يـــراقب الـــسيارات في أثناء ما كان يفكر في خطوته التالية... كان بوســـعه الآن أن يعـــود إلى كوالالمبور، حيث ينتظره عمله، بعدما

اســتطاع أن يتوصــل إلى ما سعى من أجله، منذ أن غادر ماليزيا، ولكن كان هناك أمر واحد متبق، مما شكل له نقطة محيرة!...

– "كأني فهمت من حديثك سابقا، أن جاسم الفراج كان متواجدا فــي بوسطن، منذ ثلاث سنوات، وأنك تعتقد أنه هو المقصود بالطرد الــذي أرسله موشي جولد؟" فاجأ نعيم جعفر بإستفساره، بعد أن ساد الصمت لبضع دقائق.

– "جاســم كان مقيما هنا في بوسطن، منذ منتصف التسعينيات إلــى أن انــتقل إلــى قطــر مباشرة، بعد حادثة الدكتور عبد القادر بنوَرَاني ومجموعته."

– "فهمــت... أنــت إذاً تعــتقد بأن جاسم، عندما أدرك أني قد علمت بأمر ذلك الطرد الذي أرسله موشي إلى بوسطن، خشي من أن أكشف علاقته بذلك الحدث."

– "بالضبط... هذا التفسير هو الأقرب للمنطق."

– "ولكن على إفتراض أن جاسم هو ذلك الشخص الذي أرسل إليه موشي الطرد، فهذا لا يعني بأنه هو الخائن؛ لا أرى الرابط بين الأمرين."

– "نعيم، الطرد هو الإثبات الوحيد بأن جاسم كان على دراية بأفــراد جماعة الحسيني... كما أخبرتك في الشارقة، لم يكن بين أفراد جماعة الحسيني، وبين باقي قادة العروة الوثقى أي اتصال. بل إن أغلبهم مثل موشي لم يكونوا على دراية بأنهم منتمون بشكل غيــر مباشــر إلى العروة الوثقى، وذلك لظروف أمنية، كما سبق وشــرحت لــك. فإذا كان هناك إتصال بين موشي وجاسم، فمعنى ذلــك أن مخالفــة كبيرة لإحدى أهم قواعد الجماعة قد تمت. مما يعنــي أن جاســم كان يتجسس على الدكتور عبد القادر من خلال موشــي الذي كان على الأرجح متواطئا معه، دون أن يدرك بأن شريكه كان ينوي الغدر به."

– "مهـــلا، مهـــلا... أنت الآن تتهم موشي بأنه هو الآخر كان ضمن المؤامرة."

– "ولـــمَ لا؟ أولـــم يكـــن يهوديا! منذ متى، واليهود كانوا محل ثقة؟!"

– "مـــثل هذه التعاميم والتنميطات هي التي تجعل الإنسان يفقد قدرتـــه على بيان الحقيقة... إذا طبقنا منطقك هذا على الشيخ عمر، فالبعض قد يعتبره خائنا، لأنه على إتصال بك وبي، بالرغم من كوننا لم نعد من أفراد جماعة العروة الوثقى."

أطلـــق جعفر ضحكة مدوية أدهشت نعيم، وظل على هذا الحال عدة ثوان قبل أن ينطق.

– "عـــن أيـــة جماعة تتحدث يا نعيم، ألم تدرك إلى الآن بأن جماعـــة العروة الوثقى هي في طريقها إلى الزوال والفناء، إذا ما اســـتمرت على هذا الحال! هذا ما أدركه الدكتور عبد القادر قبل ثلاثـــة أعوام، وهذا هو ما بدأ يدركه الشيخ عمر الحسيني. العروة الوثقـــى يـــا نعـــيم لـــم تعد كما كانت، لقد أصاب قادتها الجمود، وأصـــبحت المـــصالح الشخصية هي التي تتحكم. هل تعلم ما هو الـــسبب الحقيقـــي وراء فـــصلي مـــن الجماعة؟... لأني تجرأت، وتساءلت عن السبب وراء ترقية صفاء الدين إسماعيل، نجل أمين عام الجماعة."

– "أليس هو أحد أفراد جماعة الحسيني الذين قتلوا؟"

– "بلى هو... كان يراد تهيئته، لكي يخلف الدكتور عبد القادر بعـــد إقصائه من منصبه، الكل كان يدرك ذلك بمن فيهم الدكتور عبد القـــادر ذاتـــه، رحمة الله عليه؛ مع ذلك لم يعترض أحد سوى الشيخ عمـــر، وحفنة قليلة ممن رفضت مثل هذه المعاملة التي كانت بعيدة كـــل الـــبعد عن أخلاقيات الجماعة التي نشأت عليها. مع الأسف كنا نحـــن القلـــة المشاكسة، فتم فصلي وفصل عدد آخر، وصدقني لولا

مكانـــة الشيخ عمر، لتم فصله هو الآخر. مع الأسف الوهن قد تمكن مـــن قلـــوب عدد كبير من قادة العروة الوثقى، وأصبحت المصلحة العامة هي آخر ما يفكرون فيه؛ وعلى رأس هؤلاء جاسم الفراج، فلا تقارنه بالشيخ عمر. شتان ما بين هذا، وذاك!"

أدرك نعـــيم مدى الحسرة التي كان يشعر بها جعفر، وهو الذي نـــشأ تحت كنف الجماعة. كان حديثه مليئا بالغضب والأسى من ظلم قد وقع عليه لاعتراضه على ظلم لم يرتضه لشخص آخر... لظلم لم يرتضه للدكتور عبد القادر بنوَزّاني! كان هذا كفيلا بأن يرفع أسهمه لدى نعيم الذي، وإن اختلف معه في بعض الآراء، إلا أنه قدر له هذا الموقف النبيل مع أستاذه.

– "لا تجعـــل نار الغضب تعميك عن رؤية الحقيقة... كدت أن أقع في المأزق نفسه لولا أنني تنبهت إليه... لذلك، دعنا نتأكد بما لا يدع مجالا للشك إلى من أرسل موشي الطرد."

– "ولكن كيف؟ لقد ذهبت إلى العنوان الذي ذكرته لي، ولم أجد هناك سوى طريق مسدود."

– "ربما علينا أن نسلك طريقا جانبيا."

– "ماذا تقصد؟"

أخـــرج نعـــيم مـــن حقيبته إيصال الطرد الذي كان قد تركه له طلعت نجاتي في الفندق بدبي، ثم أخذ يتأمله.

– "الطـــرد أرســـل عن طريق "الدي إتش إل"... هل تعلم ماذا يحدث عندما يرسل طرد إلى عنوان لا يوجد فيه الشخص الذي كتب اسمه على الإيصال؟"

– "يتم إرجاع الطرد إلى المُرسِل."

– "ولكننا نعلم أن هذا لم يحدث؛ فدانيال زوجة موشي لم تستلم أي طرد تم إرجاعه."

– "هل تقصد أن "الدي إتش إل" احتفظت بالطرد؟"

– "لا، بـــل وصل إلى الشخص المعني... انظر إلى الإيصال." ناول نعيم لجعفر ورقة الإيصال، ثم استطرد..." هل لفت انتباهك أي شيء فيه؟"

تأمل جعفر خانات البيانات. لاحظ أنها لم تكن جميعها معبأة.

– "لا يوجد غير اسم المرسل إليه: طلعت نجاتي، والعنوان."

– "فـــي بعض الأحيان قد يكون الشيء غير الموجود في ذات الأهمية إن لم يكن أهم مما هو موجود."

– "بـــدأت تتحدث بالألغاز؛ وأصدقك القول، لقد سئمت الألغاز! لماذا لا تخبرني بشكل مباشر، عم تشير إليه؟"

– "لا بأس... لاحظ أنه لا يوجد رقم هاتف المُرسَل له. شركات النقل السريع للطرود، لا يمكن أن تقبل إرسال أي طرد، دون وجود رقم هاتف المُرسِل والمُرسَل إليه."

تأمل جعفر مرة أخرى الإيصال، ثم قال باستعجاب:

– "كلامـــك صحيح، يوجد فقط رقم هاتف موشي جولد بمدينة تورونـــتو، ولكـــن لا يوجد رقم المُرسَل إليه هنا في بوسطن! كيف هذا؟!"

اتجـــه نعـــيم على الفور إلى الباب بخطوات سريعة. نظر من العـــين الـــسحرية إلى الخارج للتأكد من خلو الردهة من ذلك الرجل الذي كان يتتبعه، ثم نادى بصوت خافت:

– "هيا بنا."

– "إلـــى أيـــن؟" سأل جعفر، غير مدرك ما كان يدور في خلد رفيقه.

– "زيارة بسيطة، نحصل من بعدها على عنوان الشخص الذي استلم الطرد!"

39

استنـــشق اللـــورد ماير الدخان المنبعث من سيجاره الكوبي في لحظـــة اســـتمتاع، وكأنه لا يريد أن يفوت ذرة من اللذة قد تنتج عن بقايـــا تبغه المحترق. ظل على حالته هذه، وهو ينظر من نافذة مكتبه المطلـــة على الحديقة الخلفية لقصره الفاخر، حتى بعدما أذن لجورج روكفلر بالدخول.

– "مساء الخير."

– "مساء الخير جورج، متى وصلت إلى لندن؟"

– "منذ قليل... تأخرت الطائرة بسبب سوء الأجواء."

– "لا بأس، هل أنتم جميعا مستعدون في أمريكا؟"

– "بالتأكيد، فكل شيء يسير كما رسم له؛ والرئيس سيغادر في المـــوعد المحدد إلى الشرق الأوسط؛ لكي يقوم بجولته قبل أن يختم الزيارة بحضور احتفال بعلبك."

– "وماذا عن عناصر الحرس الرئاسي الخاص التي ذهبت إلى لبنان للتأكد من الإجراءات الأمنية؟"

– "اختيرت بعناية، كلهم من الموالين لنا، ويعلمون جيدا ما الذي يجـــب فعله. لا تقلق، الأمر كله تحت السيطرة، على الأقل من جهتنا نحن."

التفت اللورد ماير نحو جورج، وعلى وجهه أثر من الدهشة.

– "ماذا تقصد **بعلى الأقل من جهتكم أنتم؟**"

تردد جورج قليلا، ثم قال:

– "أنت تعلم جيدا أنه منذ قيام معاهدة بولدربرج في سنة 1954 ، وجماعة إلوماناتي أمريكا، وكل الفرق التي تتبعها لم تخذلكم، على

عكـــس إلوماناتـــي وماسونيي الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. أرجو المعذرة لورد ماير، ولكني لا أشاركك الثقة في كمال أغلو."

نفخ صاحب القصر في سيجاره، واكتفى بالنظر إلى جورج.

– "الـــرجل لديـــه اشكالية كبيرة في إختيار العناصر التي تعمل معـــه. وأكبـــر مثال على ذلك فؤاد شوكت، وقبله بثلاث سنوات عبد القادر بنوَزّاني... لا أدري إلى متى ستظل تتغاضى عن أخطائه!"

– "كفـــى! بدأت تتجاوز حدودك!" صرخ اللورد ماير، غاضبا على غير عادته، ولكن سرعان ما تماسك بعد أخذه لشفطة عميقة من ســيجاره، ثم استدار نحو النافذة..." جورج، هل تعلم ما هو أكثر ما يعجبني في الرياضة الشعبية الأولى في أمريكا، البيسبول؟... يعجبني فيها أن اللاعب لا يتم طرده إلا بعد ثلاث محاولات فاشلة من ضرب الكرة بالمضرب... لا تزال لدى كمال أغلو محاولة أخيرة، فهذا حقه عليـــنا كـــزعيم إحدى عوائل أبناء حَدَاد. ثم أن قرار إبقاء، أو إبعاد كمـــال هو ليس بيدي كأمين عام جماعة بولدربرج، ولكنه بيد المعلم الأكبر، كبير زعماء أبناء حَدَاد."

– "أعتذر إن كنت سببت لك بتحفظاتي أي إزعاج، ولكنك تعلم جيدا أن السبب عائد إلى حرصي على نجاح خطتنا، خاصة بعد نكسة العـــراق، بـــسبب سوء تصرف المحافظين الجدد، الذين أنشقوا عنا، وكادوا أن يفضحوا أمرنا من جرّاء غبائهم!"

ابتسم اللورد ماير، ثم أدار وجهه نحو جورج روكفلر.

– "من حسن حظكم أنهم انشقوا عنكم، فلا يوجد في الدنيا ما هو أسوأ من صديق جاهل، وإن كان نافذ القرار!"

40

بقــدر الحزن الذي شعر به جمال جداوي في أثناء أيام العزاء بجــدة، بقدر ما كان شعوره بالراحة لمعرفته أخيرا بأن دلال تركته، رغمــا عــنها، وليس بمحض إرادتها! لم تهرب منه، لم تهجره، كما اعتقد لوهلة عندما رأى تلك المرأة الشديدة الشبه بدلال، بل اختطفت من قبل سفاح الهايد بارك الذي لايزال يُرَوِّع نساء لندن، هكذا أخبره حمــاه ســمير رحــال، وقد بدا التأثر واضحا على قسمات وجهه... "جــاءت إلــى شرطة سكوتلاند يارد رسالة مجهولة، يعتقد بأنها من الــسفاح ذاتــه، أخبرتهم بموقع جثة دلال التي تم التعرف عليها عن طريق صور أشعة الأسنان التي كانت لدى طبيب أسنانها بلندن."

شــعر جمال برغبة شديدة في العودة إلى حياته الجديدة، بعيدا عــن كل ما كان يذكره بما قد فقده. أراد أن يعود إلى بوسطن، وإلى أصدقائه، وربما إلى لينا...

يــوم واحد كان كل ما تبقى، حتى موعد الرحلة التي ستقله إلى العــالم الجديد، أما في هذه الليلة، فكان موعده في أحد مقاهي شارع التحلية مع بعض أصدقائه وأصدقاء دلال، أصدقاء العالم القديم، الذين رغبوا في التخفيف عنه، وتوديعه قبل السفر.

– "ولمــاذا كل هذا الاستعجال في السفر؟ إبق معنا أسبوعين أو أسبوعا واحداً على الأقل." قال سعيد غير راض عن استعجال جمال في السفر.

– "لا أستطيع، يجب أن أعود إلى المستشفى."

– "هــذه حالة طارئة أنت تمر بها، كيف لا يسمحون لك سوى بأسبوع واحد من الإجازة؟!"

- "بل أقل من أسبوع!" أضافت خلود بغيظ.

- "هكـذا أفـضل له، لماذا يجلس هنا؟ وسط النكد والأحزان، ليتنـي أستطيع أنا السفر إلى أمريكا." قالت نسرين، إحدى صديقات دلال.

- "ومـن قـال بأني سأسمح لك بالذهاب؟" قاطع مهند، قارصا نسرين في خصرها.

- "حبيبـي! ومن قال بأني سأسافر وحدي، كنت حتما سآخذك معـي!" ردت نسرين، وهي تميل برأسها على كتف صديقها، مناولة إياه الشيشة على سبيل المراضاة.

هـزت مـيار، إحـدى صديقات دلال، رأسها، وهي تنظر إلى دعابـة نـسرين مـع مهند، التي شعرت بأنها جاءت في وقت غير مناسب، فقالت بنبرة تهكم:

- "يا لكما من أطفال." ثم التفتت نحو جمال..." سعيد على حق، لمـاذا لا تحـاول أن تمدد إجازتك بضعة أيام؟ على الأقل تكون قد ارتحت من الرحلة الطويلة."

- "مـيار!... ألـيس هذا الدكتور عادل يونس طبيب الأسنان؟" قاطعـت نسرين، وهي تشير إلى رجل وسيم في العقد الخامس جلس علـى الطاولة المقابلة مع امرأة شقراء ذات ملامح غربية..." وهذه الممرضة التي تعمل معه! ماذا يفعلان هنا؟!"

- "نـسرين! أنت دائما هكذا تعشقين النميمة... لمعلوماتك هو متزوج منها، وقد طلق زوجته الأولى منذ أكثر من سنة."

أطلقـت نـسرين ضـحكة عالية، أثارت انتباه الدكتور عادل وزوجته، ولكن سرعان ما كتمتها...

- "نعـم صـحيح، أنا التي أحب النميمة!... أدركت الآن لماذا كانـت دلال تقول عنك بأنك ماء من تحت تبن... تتظاهرين بالجدية أمام الناس، في حين...آخ منك، إن كيدهن عظيم!"

– "وماذا تقصدين، إن شاء الله، بهذه العبارة؟!"

– "لا شيء، فلا داعي للفضائح!"

شعرت ميار بالغيظ، لدرجة أنها كادت تنفجر في وجه نسرين، لولا أن تداركت نفسها في آخر لحظة!

– "لا حبيبتي، فأنا كتاب مفتوح، وإن كنت تلمحين إلى إعجابي بالدكتور عادل، فهذا كان قبل عدة أعوام، عندما كان عقلي صغير مثل عقلك الآن! وإن كنت لا أزال أذهب إليه حتى الآن، فذلك لأنه طبيب أسنان شاطر؛ وللمعلومية حتى دلال كانت لا تأتمن أي أحد غيره على أسنانها."

ضحك الجميع، مستمتعين بمشاكسات نسرين وميار، إلا جمال الذي لفتت انتباهه الجملة الأخيرة من الحديث، فقال مصححا، مع شيء من الريبة:

– "ولكن دلال كانت تذهب إلى طبيب أسنان في لندن."

– "حلوة يا جمال، تعجبني!" قاطعت نسرين ثم التفتت إلى ميار، مصممة على الاستمرار في المشاكسة..." شفتي! دلال لم تكن تذهب إليه. اعترفي بأنك تذهبين إليه بسبب الهيام وليس لكونه طبيبا شاطرا!"

– "للمعلومية، دلال لم تكن تذهب إلى طبيب أسنان في لندن، هذه كانت فقط حجة تستخدمها؛ لكي يسمح لها عمو سمير بالسفر عدة مرات، في أثناء العام، إلى لندن."

– "ولكن والد دلال أكد لي بأن لديها..." لم يكمل جمال الجملة، وأخذ يتأمل ما سمعه من ميار.

– "عفوا جمال، ولكني حسبت أن دلال قد أخبرتك."

– "وما، ياترى، هذا الذي كان يجعل دلال تذهب إلى لندن عدة مرات في أثناء السنة؟" سألت خلود بخبث تنبهت له ميار.

– "لندن كانت المدينة المفضلة لدى دلال، ثم إن أعز صديقاتها كانت تدرس هناك."

– "من تقصدين؟ إبنة السفير التونسي؟" تساءلت نسرين.

– "نعـــم، دلـــيلة بورحيب. لم يكن هناك سبب آخر لذهابها إلى لـــندن." قالـــت ميار، موجهة حديثها نحو جمال الذي بدأت الهواجس تطرق رأسه، كقطع بَرَد متساقط...

"إن لـــم تكـــن دلال تذهب إلى طبيب أسنان في لندن، فمن أين حـــصلت السكوتلاند يارد على صور أشعة أسنانها التي تم مطابقتها مـــع فـــك الجثة التي عثر عليها في الهايد بارك؟... لا، غالبا ميار مخطـــئة، فدلال حتما كانت تذهب إلى طبيب أسنان في لندن، وحتى إسمه وينستن برايس، كما أخبرني سمير رحال، وكما جاء في تقرير السكوتلاند يارد الذي إطلعت على صورته!"

– "دولـــي! كم كانت فتاة لطيفة... أذكرها جيدا. عرفتنا عليها دلال فـــي الحفـــل الذي أقامته بشقة أبيها في لندن منذ أكثر من ثلاثة أعـــوام." قاطـــع مهند..." أعتقد أن هذا كان قبل خطبتها من جمال. أذكـــر أنـــي تعجـــبت من شدة الشبه بينها وبين دلال!" قال ضاحكا، مسترجعا تلك الذكرى.

– "أذكر تلك الحفلة جيدا، كما أذكر ذلك الشاب الأمريكي الذي حضر مع دليلة." أضافت نسرين ثم سألت..." ماذا يا ترى حل بها؟"

– "لا أدري... انقطعـــت أخبارها عني فجأة، منذ غياب دلال." أجابت ميار.

– "مهند، لماذا قلت دولي؟" سأل جمال بشغف بدا واضحا.

– "هكذا كانت تناديها دلال."

– "ومـــاذا عن ذلك الشاب الذي كان معها، هل تذكرين إسمه؟" وجه سؤاله هذه المرة إلى نسرين.

– "أعـــتقد كان اسمه..." ظلت تحاول أن تتذكر الاسم، إلى أن أسعفها جمال.

– "فرانك؟"

- "نعـــم فرانك! ولكن كيف عرفت؟" سألت نسرين باستعجاب، وهـــي تنظر نحو جمال الذي وقف فجأة، ثم دون أن يبدي أي سبب، أخذ يتوجه نحو باب المقهى...

- "جمـــال! جمال!" نادى سعيد في محاولة للحاق بصديقه الذي كان على وشك ركوب سيارته...

- "جمال مهلا... ماذا دهاك؟ لماذا قمت هكذا فجأة؟!"

- "أنا ذاهب إلى المطار! يجب أن أغادر اليوم إلى بوسطن!"

- "مـــا هـــذا الجـــنون! لماذ؟! ثم إنه لا توجد رحلة اليوم إلى أمريكا. أخبرني بصراحة، هل آلمك الحديث عن دلال؛ ألهذا مشيت، أم أن هناك سببا آخر؟"

- "سعيد، لن تفهم... الأمر يصعب شرحه!"

- "جربني، فلعلي أخيب ظنك، وأفهم."

صمت جمال قليلا، وهو في حيرة من أمره، لا يعلم كيف يخبر سعيد بشكوكه، دون أن يبدو مهووسا!

- "الجثة التي تم العثور عليها في لندن..."

- "ما بها؟"

- "هي ليست لدلال! لا تنظر إلي هكذا! قلت لك إنك لن تفهم."

- "جمال، لماذا لا تهدأ، وتخرج من السيارة. دعنا نناقش الأمر بشيء من التعقل."

- "الأمـــر لا يحـــتمل المناقـــشات! أنا متأكد مما أقول! هناك مؤامرة قد حيكت لأخذ دلال مني، ولا بد من إستعادة ما هو لي!"

41

ركـــب نعيم سيارة جعفر، وترك سيارته المستأجرة في مرآب الفـــندق، مـــن بـــاب الحيطة، فلعل الرجل الذي كان يراقبه قد قرر انتظاره بجوار سيارته، بعدما فقد أثره. أدرك بأن عليه الآن أن يفكر عـــدة خطـــوات إلى الأمام، مع المحافظة على الحذر، فالأمر أصبح أكثـــر تعقـــيدا من ذي قبل، خاصة مع وجود احتمال كبير بأن أبناء حَـــدَاد قـــد فطـــنوا إلى ما توصل إليه من معرفته لخططهم، ولكونه مـــراقبا مـــن قبلهم... لهذا أخذ نعيم يحسب حسابه بتأنٍ مع كل قرار يتخذه.

– "ألـــن تخبرنـــي إلـــى أين نحن ذاهبون؟" سأل جعفر بعد أن اجتازت السيارة بوابة الفندق.

– "إلـــى 420 شارع الشرق." رد نعيم، وهو ينظر إلى خارطة مدينة بوسطن على جواله.

– "وماذا يوجد في هذا العنوان؟"

– "المكـــتب الرئيس لخدمات "الدي إتش إل"... سنحصل منهم علـــى رقم الهاتف الذي استخدموه للاتصال على الشخص الذي استلم الطرد."

– "كيف، ولايوجد رقم هاتف أصلا على الايصال؟! عفوا نعيم، ولكن يبدو أنك مرهق، وقد فقدت تركيزك بعض الشيء."

ابتسم نعيم، ثم أخرج من جيبه إيصال الطرد.

– "هذا الإيصال هو نسخة المُرسِل، ولكن لا تنس أن هناك أكثر مـــن نسخة: النسخة التي تذهب مع الطرد، والنسخة التي تحتفظ بها شـــركة الـــشحن... تأمل معي هذا السيناريو: موشي جولد أراد أن

يرسل طردا مهما إلى شخص ببوسطن. يحتوي هذا الطرد على أوراق فيها نتائج أبحاثه التي توصل إليها فيما يخص رسالة نجم الدين غول؛ وبما أن هذا الأمر كان هو الشغل الشاغل لجماعة الحسيني في ذلك الوقت الذي علم فيه موشي على الأرجح بأن أمره قد انكشف، فقد قرر أن يبعث بتلك النتائج إلى ذلك الشخص ولكن بطريقة تضمن ألاّ يتم اكتشاف أمره هو الآخر، فيتم القضاء عليه. ماذا يفعل موشي في هذه الحالة؟" صمت نعيم قليلا معطيا فرصة لجعفر للتفكير فيما قال، ثم استطرد..." الحل يكمن في أن يضع عنوانا خاطئا على الإيصال، ولا يضع رقم هاتف المرسَل إليه، ثم يقوم بانتزاع نسخته وإعطاء باقي النسخ إلى مندوب "الدي إتش إل" الذي حتما انتبه لعدم وجود رقم الهاتف، كما هو مطلوب. المندوب ينبه موشي إلى هذا السهو، فيقوم موشي بكتابة الرقم فقط على النسخة الخاصة بالطرد، فلا تنطبع على باقي النسخ؛ لأنه سبق وقد قام بانتزاعها!... عملية تمويه بسيطة، ولكن فعالة، من أجل الحيطة؛ حتى ما إذا وقعت النسخة التي تركها في خزنته، والتي أراد لها أن تصل إلى طلعت نجاتي (ولذلك وضع اسمه على الإيصال)، في أيدي الأعداء."

– "يا لك من داهية! أدركت الآن لماذا كان الشيخ عمر الحسيني يصر عليك!"...

توقفت السيارة أمام مكتب "الدي إتش إل" الذي كان على وشك أن يغلق. أتجه نعيم إلى الداخل، وخلفه جعفر، ثم أخذ يسأل عن مدير الفرع...

– "فرع بوسطن هذا هو من أفضل فروع "الدي إتش إل" في شمال شرق الولايات المتحدة. نحن لم نضيع طردا واحدا في العشر سنوات الأخيرة على الأقل." قال مدير الفرع، وهو يراجع رقم المتابعة في حاسبه الآلي.

– "ولكنـــي مـــتأكد مـــن أن طلعت نجاتي لم يستلم الطرد الذي أرســـلته لـــه منذ ثلاثة أعوام. تخيل كل هذه الأعوام، وأنا أحسبه قد اســـتلم الملفات المهمة التي أرسلتها له من تورونتو، ثم أكتشف فجأة أن هذا لم يحدث!"

– "هاهوذا يا سيد جولد، لقد تم استلام الطرد بهذا الفرع، بعدما قمنا بالإتصال به. يبدو أن العنوان الذي أوردته لم يكن صحيحا." قال مدير الفرع، مخاطبا نعيم.

– "هـــل أنـــت مـــتأكد من أن الموظف قام بالاتصال بالشخص الصحيح."

– "بكـــل تأكـــيد، كما هو واضح في خزينة المعلومات الخاصة بـــتلك العملية، فقد قام الموظف بالاتصال بالرقم الذي وفرته أنت لنا على إيصال الطرد." أصر مدير الفرع، مبديا ثقته بعملية التسليم التي تمت منذ ثلاث سنوات من خلال الفرع الذي يديره، منذ ذلك الوقت.

– "هل بالإمكان، فقط من أجل التأكد، أن تعيد علي الرقم الذي تم الاتصال به، وهذا ليس تشكيكا فيكم، ولكن ربما أكون قد أخطأت في كتابة الرقم."

– "بكل سرور."

شـــكر نعـــيم مدير الفرع، بعدما تظاهر له بأنه قد تعرف على الرقم.

– "كل شيء يبدو على ما يرام. أغلب الظن أن طلعت قد استلم الطـــرد، ولكنه نسي الأمر... من حسن الحظ أن أجهزة الحاسب لا تنسى!" قال نعيم ضاحكا في أثناء خروجه.

– "نحـــن سعداء بخدمتك سيد جولد." ابتسم المدير، وهو يودع العميل الذي تم حل مشكلته بنجاح!

* * *

– "مـــاذا ســـنفعل الآن؟" ســـأل جعفـــر، متأملا نعيم الذي كان مشغولا في كتابة رسالة نصية عبر هاتفه الجوال.

– "ســـنذهب إلى ذلك المقهى المجاور وننتظر في أثناء تناولنا الكاباتشينو." جاء رد نعيم بنبرة واثقة تتسم بالهدوء.

– "ننتظـــر ماذا؟" سأل جعفر، وقد بدأ ينتابه الغيظ لشعوره بأنه قد أصبح بمنزلة الراكب الخلفي في عربة تسير إلى مكان مجهول!

– "ننتظـــر العنوان المسجل لصاحب رقم الهاتف الذي حصلنا علـــيه للتو. بعد قليل ستأتيني رسالة على الجوال من صديق لي في مدينة بانجلور الهندية، يترأس إحدى شركات الاتصالات هناك. هذه الرسالة ستحتوي على العنوان الذي نريده."

نظر جعفر إلى نعيم بتعجب، غير مدرك سر هذه اللفة الطويلة للحصول على العنوان.

– "شـــركات الهاتـــف الأمـــريكية، منذ سنوات قامت، من أجل تخفـــيض التكاليف، بإرجاء الكثير من أعمالها التشغيلية إلى شركات هـــندية مثل تلك التي يترأسها سنديب مهتا، صديقي الذي أرسلت له رســـالة برقم الهاتف الذي أريد أن أحصل على عنوان صاحبه... لا تـــستغرب، فـــصدقني هذا أسرع بكثير من أن نحاول الحصول على العـــنوان عبر الطرق العادية من خلال الاتصال بشركة الهاتف هنا." قـــال نعيم، وهو يدخل من باب المقهى، متلمسا علامات الاستغراب التي أخذت تظهر على ملامح رفيقه.

لـــم تمـــض دقائق على جلوسهما، حتى جاء صوت من جوال نعيم، منبها إياه بقدوم رسالة نصية.

– "مـــاذا قلت لك..." ما كاد نعيم يتحدث حتى ذابت الابتسامة التي كانت مرسومة على وجهه، وهو يقرأ ما قد جاء في الرسالة.

– "ما الخطب؟ ألم يستطع صديقك الحصول على عنوان صاحب الهاتف؟" سأل جعفر، وقد شعر بالقلق من جراء تعبير وجه نعيم.

- "لا، بل حصل على العنوان، وعلى اسم صاحب العنوان!"

نـــاول نعيم جواله لجعفر الذي ما إن قرأ المكتوب على شاشته، حتى وقف، وكأنه رأى شبحا للتو!

- "يا إلهي! مستحيل!... كيف؟!"

- "جعفر، لا بد من إخبار الشيخ عمر الآن!"

أخـــرج جعفـــر على الفور جواله من جيبه، ثم ضغط على زر الاتصال برقم الشيخ عمر المسجل لديه.

- "تبا! جواله مغلق!... ولكني أعلم أين هو متواجد الآن."

- "إذاً الحق أنت به... أما أنا، فسأذهب إلى هذا العنوان!"

تحـــرك نعـــيم إلى أقرب سيارة أجرة، بعدما ودع جعفر الذي انطلق بسيارته، متجها إلى حيث يتواجد الشيخ عمر الحسيني.

بالرغم من إدراكه لخطورة المواجهة، إلا أن نعيم كان قد اتخذ القرار، منذ زمن على أن يواجه المتسبب في قتل أستاذه الدكتور عبد القادر بنوزّاني، وإن كلفه هذا حياته!

42

نظـــر مـــن نافذة غرفة النوم في الطابق الثاني، المطلة على المنـــزل المقابل. لم يكترث بأن يلمحه أحد، فقد كان يعلم أن زوج عـــشيقته علـــى بعد مئات الأميال في مدينة واشنطن. ابتسم، وهو يتذكـــر ذلـــك اليوم منذ ثلاث سنوات، عندما التقى بصديق فرانك روكفلـــر العربي في ذات المنزل الذي كان يختلس النظر إليه من وراء ستار النافذة. أخذ كمال أغلو يتذكر الصفقة التي دارت بينه، وبـــين فرانك، وبين صديقه العربي. لم يكن قد رأى دولي في ذلك الـــوقت، ولكن شيء ما بداخله جعله يرغب في التعرف على تلك المرأة وصديقتها اللتين جعلتا فرانك وصديقه يقدمان على مغامرة غير محسوبة العواقب، مغامرة كان ثمنها، إن وافق على المشاركة فـــيها، كـــشف أمـــر خيانة عبد القادر بنوزّاني له وكشف علاقته بجماعة الحسيني...

نفـــخ في سيجارته، وهو يتأمل المدى الذي غيَّر فيه ذلك اليوم مـــن مجـــرى حـــياته، فعلى إثره استطاع أن يتخلص من تهديد كاد يكـــشف أمر أبناء حَدَاد، وتحالف بولدربرج، ومن جهة أخرى، أكثر خـــصوصية، كان عل إثر ذلك اليوم أن تعرف لاحقا على دولي التي رغـــبها مـــنذ أن وقعـــت عيناه عليها... كان تحديا عصيبا، بل شبه مستحيل. فكيف يحصل على امرأة ليست له على وشك أن يساعد هو في تسهيل عملية هروبها مع الرجل الذي كانت تعشقه، والذي هو في الـــوقت ذاته ابن أحد أهم حلفاء أبناء حَدَاد. شكل ذلك الأمر معضلة بالنسبة لكمال، ولكن بصفته رجل المهمات المستحيلة، أصر على أن يجـــد حـــلا، وبالفعل استطاع أن يضع يده على بداية الطريق عندما

علـم، بعـد مراقبة قام بها رجله المخلص رحيم، بأمر خيانة فرانك لدولـي، بعـد سنة واحدة فقط من زواجه منها. كانت تلك المعلومة المدعـومة بالدليل هي كل ما احتاجه؛ لكي يحصل على المرأة التي أرادت أن تـرد الـصاع صـاعين للرجل الذي تركت كل شيء من أجله!...

– "كمال، ناولني المنشفة لو سمحت." جاء صوت دولي، مناديا من داخل الحمام، بعد فراغها من الاستحمام.

ما كاد كمال يعطي ظهره للنافذة، حتى عاد، والتفت مرة أخرى للتأكد مما لمحه للتو من طرف عينه اليسرى.

– "مستحيل!" صرخ، ثم توجه على الفور إلى جواله.

– "كمال! ماذا حدث هل عاد فرانك؟!" خرجت دولي، مسرعة من الحمام على إثر الصراخ.

– "لا.. كـل شـيء علـى ما يرام، لا تقلقي. يجب أن أجري اتـصالا سـريعا... سـأنتظرك تحت في المجلس." رد، في محاولة للتظاهر بالتماسك، ثم انطلق إلى الطابق الأرضي من المنزل، بحيث لا تستطيع سماعه دولي، وهو يحدث رحيم...

– "أيـن أنـت؟! وماذا يفعل نعيم هنا؟!" بدا الغضب واضحا علـى صوت كمال الذي حاول جاهدا ألاّ يجعله يعلو فتسمع دولي حديثه.

– "قلـت لـك فقـدت أثـره فـي الفـندق. هل جاء لمنزل فرانك؟"

– "لا! لم يأتِ لمنزل فرانك، بل للمنزل المقابل! ماذا كنت تفعل طـوال هـذا الوقت، منذ بدأت مراقبته في دبي؟! كيف إستطاع أن يصل إلى هنا دون أن تدري؟! هذا إهمال!"

– "أنا في الطريق الآن."

– "أريـــدك أن تنهي كل شيء! أتفهمني، كل شيء! الفشل هذه المرة سيعني نهايتك أنت!"

رمى كمال بجواله على الأرض منهيا المكالمة.

* * *

كمال في منزلك الآن.

نـــص بـــسيط لرسالة أرسلها رجب غول، فورما دخل كمال أغلو إلى منزل فرانك روكفلر. كانت هذه الرسالة مكملة لتلك التي أرســـلها مـــنذ عدة ليال، مخبرا فيها الزوج المخدوع عن مغامرة زوجته...

الموت البطيء، الضربة تلو الأخرى، هذا ما كان يريده رجب لكمال، وما كانت هذه سوى البداية! فهو الآن يعلم عن غريمه ما قد لا يعلمه عنه أقرب المقربين له. ثلاث سنوات من التربص، والترقب ها قد أتت بثمارها!

– "وهـــذه فقط الضربة الأولى، والباقيات لاحقات!" قال رجب جملـــته، وقد لمح كمال من خلف ستارة نافذة غرفة النوم، وهو ينظر إلى الرجل الذي خرج للتو من سيارة الأجرة التي توقفت أمام المنزل المقابل.

* * *

شـــعر نعـــيم بأن لحظة الحسم قد اقتربت، وهو يتجه إلى باب المنـــزل رقم 13 بشارع الشمس. ما إن وصل حتى، من دون تردد، رفع سبابته اليمنى، وضغط على الجرس...

بعـــد أقل من دقيقة، فُتح الباب ليظهر من خلفه رجل في العقد الـــرابع يحمـــل ملامـــح عربية، وقد بدا عليه شيء من الدهشة لهذه الزيارة المسائية من رجل لا يعرفه.

– "نعم؟"

نظر نعيم إلى وجه الرجل جيدا، وأخذ يتأمل عينيه. كان يدرك أن الإنسان مهما حاول أن يخفي حقيقته تبقى عيناه كفيلتين بفضحه، تبقى كتابا مفتوحا، لمن يحسن القراءة، تبقى المدخل الحقيقي لروحه، لمن لديه الرغبة الحقيقية على ثبر الأغوار؛ وكانت عينا ذلك الرجل الذي فتح الباب تخبران نعيم الكثير!

– "مساء الخير، كيف حالك يا صفاء الدين؟"

نظر صفاء الدين إسماعيل إلى ذلك الزائر الغريب، الذي لم يسبق له أن رآه من قبل، بشيء من الريبة. لوهلة ظن أنه قد يكون من طرف كمال أغلو، جاء لكي يبلغه رسالة هامة، ولكن سرعان ما تبخر هذا الخاطر.

– "سلامات يا رجل، سمعنا أنك قتلت مع باقي أفراد جماعة الحسيني، ولكن من الواضح أنها مجرد إشاعات، فها أنت ذا حي ترزق على خلاف الدكتور عبد القادر، وباقي زملائه الذين ائتمنوك على حياتهم!"

اعتقد نعيم بأنه سيرى، عند مواجهته لصفاء الدين، نظرات حسرة وندم، أو ربما نظرات حيرة وخوف، ولكن مالم يتوقعه هي تلك النظرة المتحدية التي ظهرت فجأة على الرجل الواقف أمامه.

– "ومن تكون أنت يا ترى؟ ألن تعرفني بنفسك؟ فأنا لا يروق لي التحدث مع أناس مجهولين."

– "اسمي نعيم الوزان..."

– "آه... نعيم الوزان! سمعت عنك... نعم، نعم، كثيرا ما حدثني عنك عبد القادر. أنت إذاً أحب تلاميذه إليه، ومن الواضح أيضا أنجبهم." رد صفاء الدين غير عابئ بوجود نعيم أمامه، وعثوره عليه... "تفضل، فمن غير اللائق أن تظل واقفا هكذا بالخارج، أنا صحيح أحمل الجنسية الأمريكية، ولكني لم أنس أصول كرم الضيافة

العـــربية. تفضل، فأنا واثق بأن لديك أسئلة وإستفسارات كثيرة، وأنا لن أبخل عليك بالإجابة."

* * *

تلقـــى فرانك رسالة أخرى من ذلك الشخص المجهول بعد تلك الرسالة التي تلقاها في مرآب مستشفى بوسطن. شيء ما بداخله كان يوســـوس لـــه بما جاء في الرسالة الأولى، حتى من قبل أن يتلقاها، ولكن كبرياءه كان يمنعه من التصديق. فكيف يمكن لدولي أن تخونه هـــو، ومع شخص مثل كمال أغلو! ولكنه قرر أخيرا أن يقطع الشك باليقين. كان يجب التأكد!

تظاهـــر بالـــسفر؛ لكي يعطي دولي وكمال فرصة للتراخي من أخـــذ الحـــيطة، ثم ظل يراقب زوجته. لم يكن فرانك بحاجة إلى تلك الرســـالة الثانية لكي يعلم بأن دولي استغلت غيابه، ودعت كمال إلى منـــزله. فقد تيقن من شكه، ولم تعد خيانتهما بذلك الأمر الخفي، بل أصـــبحت واضـــحة أمامه كوضوح الشمس في يوم صحو لا تشوبه السحب...

* * *

– "نعـــيم الوزان!" ضحك صفاء الدين، وهو ينطق الإسم فور دخـــوله إلـــى قاعة الجلوس، وخلفه زائره غير المنتظر..." أصدقك القول بأني كنت سأكون أكثر اندهاشا لرؤيتك الليلة، لولا أني سمعت الكثيـــر عن ذكائك وفطنتك. أهنئك على هذا الإنجاز، ولو أني أعتقد بأنـــه كان من الأجدى لك أن تستغل وقتك الثمين في عمل آخر غير البحث عني."

– "صـــدقني، أنت لم تكن المقصود، ولكنك أتيت "فوق البيعة" كما يقولون."

– "وها أنت ذا قد وجدتني... أخبرني، ما الذي تريده؟"

– "أريدك أن تخبرني لماذا فعلت ما فعلت؟ ومن غيرك متواطئ من داخل العروة الوثقى؟"

مرة أخرى ضحك صفاء الدين، ولكن هذه المرة بصوت أعلى.

– "عزيـــزي نعيم، من أنت حتى تعتقد بأنه باستطاعتك المجيء إلى منزلي، وسؤالي مثل هذه الأسئلة؟ هل تعلم أنه بمجيئك إلى هنا، قد حكمت على نفسك بالدمار؟"

– "مثل هذا التهديد لا يهز شعرة في جسدي؛ وللمعلومية، أمرك قـــد انكشف، وأنا لست الوحيد الذي على دراية بك. بعد قليل سوف يعلم جميع قادة العروة الوثقى."

– "العروة الوثقى! عن أي عروة وثقى تتحدث؟ عن تلك التي لا تـــزال تعـــيش في زمن قد تجاوزه العالم، وتعتقد بأنها تستطيع الإنتـــصار على ذلك الشبح الذي تسميه حكومة الظل؟ أم عن تلك التـــي طـــردتك أنت، وغيرك من ذوي الكفاءات، لا لشيء سوى لأنكـــم تفكـــرون خـــارج صندوقها الضيق؟ لا تستغرب، فلازالت تصلني الأخبار."

– "من أبيك الدكتور إسماعيل أليس كذلك؟"

– "أبي لا علاقة له بقراراتي. ذنبه الوحيد، إن كان له ذنب، أنه يعلـــم بوجـــودي، وبمـــا قمت به، ولم يخبر أحدا؛ خوفا علي وعلى منـــصبه. صـــدقني لو أني أردت، لكان باستطاعتي أن أقضي على العـــروة الوثقى بأكملها، ولكني اكتفيت فقط بجماعة الحسيني، الفرقة الـــصغيرة التـــي كـــان يرغب عدد من القادة في حلها لعدم إيمانهم بجـــدواها. مـــا قمت به، عزيزي نعيم، هو التضحية بعدد بسيط من الأشـــخاص ممن لا قيمة لهم عند غالبية القادة، من أجل إنقاذ العروة الوثقـــى من خطر محدق كان سيلم بها إن استمرت جماعة الحسيني في السعي فيما كانت تسعى إليه."

– "قصدك كشف سر حكومة الظل... أبناء حَدَاد!"

نظـــر صـــفاء الدين إلى نعيم هذه المرة بدهشة تفوق تلك التي سبقتها عند رؤيته له بعد فتحه لباب منزله.

– "ذكـــاؤك حتما سوف يقضي عليك! كيف استطعت التوصل إليهم؟"

– "توصـــلت إلـــى الحقيقة عبر تتبع ما جاء في رسالة نجم الدين غول، كما طلبت مني العروة الوثقى. يبدو أن أباك أراد أن يعلم السر الذي كنت أنت تعلمه، وعلى ما يبدو لم تخبره إياه. كان يـــريد هو الآخر أن يصل إلى الحقيقة بأي ثمن، حتى وإن اضطر للاســـتعانة بـــي، بعدما فصلت من العروة الوثقى، ولكن يبدو أنه عـــندما شـــعر بأن بحثي كاد يوصلني إليك من خلال تتبع الطرد الـــذي أرسله موشي إلى بوسطن، قرر أن يوقفني بحجة أني أسير فـــي طـــريق مسدود... غريب أمر هذه الدنيا، المنعطفات التي قد يأخـــذها الإنسان في أثناء سيره على الدرب والتي قد توصله إلى محطات غير مرتقبة."

– "ولكنك قد وصلت إلى محطة أخشى ألاّ تكون لها خط عودة، محطة ستغيب فيها إلى الأبد!"

– "مـــا يجب أن تهتم به هو خط عودتك أنت، وأبيك الذي ستر علـــى فعلتك المشينة والجبانة. لقد خنت أناسا إئتمنوك على حياتهم؛ ظـــنوك واحـــدا منهم، وسوف تحمي ظهورهم! لكن ما لا أفهمه هو كـــيف يـــصل الامـــر بأن تأتي الطعنة من ابن أحد أهم قادة العروة الوثقـــى؟ لـــو أن الخيانة جاءت من قبل موشي جولد لربما فهمتها، ولكن أن تأتي من قبلك أنت!"

– "ولـــن تفهم أبدا! فأمثالك ممن لا قلوب لهم غير قادرين على فهم هذه الأمور!"

لـــم تأتِ الإجابة هذه المرة من صفاء الدين، ولكنها جاءت من صوت أنثوي، كان يحمل ذكريات قديمة لنعيم لم ينسها قط!

جـــاء الـــصوت الـــناعم، والذي يحمل في نبراته روح التحدي الممزوج بالشجن، والغضب في آن واحد، من خارج القاعة، وقبل أن تـــدخل صـــاحبة الـــصوت إلـــى حيث كان يتواجد نعيم، أدرك هو المـــنعطف الجديـــد الذي كان دربه قد أخذه إليه... أدرك أن إحدى غوائب ماضيه قد عادت!

* * *

تـــوقفت السيارة الفورد السوداء أمام المنزل رقم 13 بشارع الـــشمس، وخرج منها رحيم على مرأى من رجب غول الذي ظن أن الحـــياة قـــد عادت به إلى الوراء، إلى اللحظة التي شاهد فيها زوجته وطفله الصغير يتلاشيان تحت عجلات الشاحنة التي خرج منها ذات الرجل الذي كان يخرج أمامه من السيارة السوداء. ذلك الرجل الذي ظلت ملامحه الساكنة محفورة في عقله طوال الثلاث ســـنوات التـــي مضت... "هل ساقه القدر إليّ في اليوم ذاته الذي ســـوف يـــشهد بداية نهاية كمال أغلو، حتى أنفذ فيه عدالة السماء التي ظللت أحلم بها إلى أن كاد اليأس يصيبني؟" أخذ يفكر رجب، "أم أن للقدر غرضاً آخر؟!"

* * *

– "مـــا الذي أتى بك إلى هنا؟!" قال صفاء الدين، بصوت كان خليطا بين الغضب والارتباك، وهو يشاهد زوجته تدخل عليه، وعلى نعـــيم الـــوزان الذي لم تضاه دهشته لرؤية دلال رحال حية ترزق، سوى دهشته لرؤيتها في منزل صفاء الدين إسماعيل!

– "دعـــه يعلم الحقيقة يا صفاء بكاملها، أليس هذا ما يبحث عنه نعـــيم الـــوزان صـــاحب العقل الرزين، الباحث عن الحقيقة الغائبة! صـــاحب القلب المتحجر!" قالت دلال، وهي تنظر بعينين قد ملأهما الغضب إلى الرجل الذي كانت تعشقه في يوم من الأيام.

– "كفى!" صرخ صفاء الدين لدلال التي ظلت تنظر إلى نعيم.

– "أول مـــرة أراك مندهشا إلى هذا الحد. هل أربكتك رؤيتي. ظننتني قد مت، مثلما ظن الجميع؟"

– "بالنـــسبة لـــي أنـــت مت منذ زمن بعيد." رد نعيم، محاولا استعادة توازنه من بعد هول المفاجأة.

ضحكت دلال بصوت مرتفع.

– "هـــذا هـــو نعـــيم الوزان الذي عرفته، قاموس قلبه خالٍ من المفردات."

– "وهـــل الخـــيانة والهروب من مفردات لغة القلوب؟ صحيح، الطيور على أشكالها تقع، والخائنون للخائنات."

– "اخـــرس! إيـــاك وأن تخطئ في حق زوجتي!" كان صراخ صـــفاء الـــدين هذه المرة موجها إلى نعيم... "أنت لا تعلم أي شيء! تتـــصور أن الدنـــيا مليئة بالمُثل، وهي أبعد ما تكون عن ذلك. دلال ضحت بكل شيء من أجلي، بكل شيء!"

– "صـــفاء حبيبـــــي، مثل نعيم لا يفهم هذه المفردات." قالت دلال، ثم وجهت باقي حديثها لنعيم.." مثلك لن يفهم أبدا بأنني هربت مـــن أب وأم رفضاني قبل أن أرفضهما، ومن زوج اكتشفت أن حبه لنفـــسه يفـــوق حبه لأي شخص آخر، بل إن حبه لي كان حب صياد استطاع الحصول على فريسة أراد تحنيطها من أجل التباهي بها أمام الأصدقاء. نعم أنا هربت من مجتمع رفضته، كما رفضني!"

– "يا لها من كلمات مؤثرة. لا أدري لماذا تذكرني بالمسلسلات الرماضانية! هل تعتقدين أنك الوحيدة التي عانت، إن كان ما وصفتيه يندرج تحت بند المعاناة. فمثلك ممن يعيشون في عوالمهم المخملية لا يدركون معنى المعاناة، مثل ملكة فرنسا التي عندما سألت عن سبب غضب الفرنسيين فقيل لها إنهم غاضبون لأنهم لا يجدون الخبز لكي يأكلوه، ردت متساءلة: لماذا لا يأكلون "الجاتوه"!... أنا لا أفهم سوى

لغــة الحــق والباطل، وما قمتما به أنت وصفاء الدين ليس له سوى وصف واحد، مهما حاولتما التبرير له!"

مــا إن أنهــى نعيم حديثه، حتى تنبه، من نظرات الدهشة التي بدت على دلال، إلى وجود شخص آخر قد تسحب من خلفه، دون أن يشعر، هو ذاته الرجل الذي كان يلاحقه، ولكن هذه المرة قد حمل في يده اليسرى مسدسا مصوبا نحو رأسه!

* * *

أخــرج رحــيم من جيبه أصفادا بلاستيكية، ورماها إلى صفاء الدين.

– "كمــال أغلــو أرســلني؛ لكــي أحل المشكلة البسيطة التي تواجهها... قيد يدي ضيفك خلف ظهره."

– "صفاء، ما هذا الذي يحدث؟" تساءلت دلال، وقد هالها منظر رجل غريب يحمل سلاحا في منزلها، موجها نحو رأس نعيم.

– "اذهبي إلى حجرتك." قال صفاء الدين، آمرا دلال التي ظلت فــي مكانها، ثم أخذ يتوجه نحو نعيم؛ لكي يقيد يديه، وقد رسم على وجهــه ابتــسامة انتصار صفراء..." نعيم، نعيم، نعيم. كان يجب أن تــبحث فيما لا يعنيك. تماما مثل ما فعل عبد القادر، وها هو مصير الأستاذ يلحق بتلميذه. ألم يكن من الأجدى لك لو أنك حصرت جهدك في أعمالك التجارية، بدلا من الخوض في أمور فوق رأسك، لا طاقة لك أنت بها وبتبعاتها."

– "لا تفرح كثيرا، فقد ينقلب الحال ما بين غمضة عين."

أطلــق صــفاء الــدين ضــحكة مدوية، وهو يغمض عينيه ثم يفتحهما:

– "هاهــي ذي غمــضة العين قد مضت، وما زلت أراك على وشك أن تصبح مجرد ذكرى مزعجة! نعيم كل شيء قد انتهى، أنت

خسرت ومن قبلك جماعة الحسيني قد خسرت. أبناء حَدَاد، وكل من حـــالفهم هـــم المنتـــصرون؛ وعما قريب ستنضم العروة الوثقى إلى تحالف بولدر..."

لم يكمل صفاء الدين جملته، إذ وقع صريعا على الأرض، إثر طلقة رصاص أصابته في الرأس من مسدس رحيم، وسط ذهول دلال التـــي ظلت متسمرة، غير مصدقة ما قد جرى للتو، وقد لاحظت أن القاتل قد صوب مسدسه هذه المرة نحو رأسها!

كـــاد رحيم يضغط على الزناد، لولا أنه شعر بارتطام قوي في مؤخـــرة رأســـه أودعه على الأرض. لوهلة ظن أنه قد فقد الوعي، ولكـــن ســـرعان ما أخذ يتماسك، ويحاول الوقوف على قدميه، حتى جاءته ضربة جديدة على جبهته أوقعته مرة أخرى على الأرض، هذه المـــرة علـــى ظهره... أصابته حيرة شديدة، فكيف استطاع نعيم أن يتمكن منه هكذا، وهو مقيد اليدين، ولكن سرعان ما أدرك أن الرجل الذي كان يحمل القضيب الحديدي لم يكن بنعيم، ولكن شخص آخر! ظل ينظر إلى وجهه المألوف. لقد رآه من قبل، ولكن أين؟ هذا الوجه كـــان يعرفه جيدا، فهوا لا ينسى أبدا وجها قد رآه، وخاصة إن كان وجه أحد الذين...

– "مـــستحيل! أنـــا قتلتك!" نطق رحيم بصوت مضطرب يكاد يخرج من حنجرته.

– "وها هو ذا رجب غول قد عاد إلى الحياة!" رد رجب، وهو يرفع القضيب؛ لكي يهوي به على رأس رحيم.

– "لا تفعـــل!" صـــرخ نعيم..." دعه، وإلا أصبحت مثله... لا تلطخ يديك بدمائه، فهو لا يسوى!"

لم يهو رجب بالقضيب، بل ظلت يده معلقة في السماء، مستعدة في أي لحظة؛ لكي تنهي ما قد عزم عليه قبل أن يتحدث نعيم.

– "مثل هذا الكلب، لا يستحق أية رحمة!"

– "صدقني، قتلك له سيريحه، ولن يريحك أنت."

نظـــر رجب إلى نعيم الذي لم يكن قد رآه من قبل، وإن كان قد تعرف على الإسم عندما سمع صفاء الدين ينطقه قبيل مقتله. تأمل ما قاله، وكأنه لمس وترا حساسا... هل سيريح القتل ذلك الشيطان؟ أخذ يتـــساءل. لم يكن بحاجة للإجابة على السؤال، فسرعان ما وجد يده بكـــل ما أوتي من قوة تهوي بالقضيب على الأريكة المجاورة، وكأنه بهـــذا الفعـــل كان ينفس عن غضب ظل يحرق أحشاءه ببطء... أخذ زفـــرة عميقة، ثم توجه إلى نعيم؛ لكي يفك قيده. ما إن اقترب منه، حتى رأى عينيه شاخصتين، وهو يصرخ:

– "لا تفعلـــي!" ولكن هذه المرة لم يستطع نعيم الوزان أن ينجح فـــي مـــنع ما لم يرغب في حدوثه. لقد أطلقت دلال الرصاص على رحيم بعد أن استحوذت على مسدسه الملقى على الأرض. ثم صوبته نحو رأسها، وهي تخاطب نعيم:

– "انتهى كل شيء!"...

ســـقطت دلال رحـــال على الأرض جثة هامدة، بعد أن أنهت حياتها بالرصاصة المتبقية!

43

كعادتها كل صباح، أنهت لينا جولتها على المرضى، ثم إتجهت إلـــى فؤاد شوكت؛ لتطمئن عليه. كانت حالته تزداد سوءاً، ومما فاقم مـــن وضـــعه الـــصحي أن طبيب العناية المركزة اكتشف من خلال الأشعة المقطعية التي أجريت له في ذلك اليوم أن ورم الرئة قد انتشر إلى العظام والكبد.

– "بيرســـون لـــم يعد هو المسؤول عن حالة فؤاد." قالت منال للينا، ثم أضافت..." اليوم تم استبداله بطبيب آخر بناء على طلبي."

– "خيـــر مـــا فعلـــت... ولكـــن، أنت تعلمين أن الوضع الآن أصبح..."

– "نعـــم... أخبرني طبيب العناية المركزة. هذا أمر الله، وكل شيء بأجره. لعل هناك حكمة فيما جرى له." قالت منال، محاولة أن تمنع الدموع من التساقط، وإن باءت محاولتها بالفشل.

– "يجب أن أذهب. هل تأمرينني بأي شيء؟"

– "شـــكرا، لقـــد فعلت من أجل فؤاد الكثير. لا أدري كيف أرد لك..."

– "أنـــا لـــم أفعل سوى واجبي، بل أشعر، وكأني قد قصرت." قاطعـــت لينا، غير راغبة في أن تكمل منال جملتها، ثم اتجهت إلى خارج العناية المركزة. وقفت قليلا في الممر، تفكر في الاتجاه الذي يجـــب عليها أن تسلكه. كانت تدرك جيدا أن مكانة الدكتور بيرسون الطبـــية ســـتجعله يفلت من أي عقاب. سيقال إن طبيب الأنسجة هو الـــذي بـــدل العينات بالخطأ، أو أي شيء من هذا القبيل؛ فمنذ متى وكبار الأطباء يُسألون عما يفعلون، وبالأخص، عندما يكون في مكانة

اجتماعـــية كتلك التي يتمتع بها تيري بيرسون. لكن هذا لم يمنع لينا مـــن أن تتخذ قرارا بالذهاب إلى مكتبه؛ لكي تواجهه بعلمها بما فعل؛ لكي تخبره بأنه أحقر إنسان صادفته في حياتها! بأنه عار على مهنة الطب، وإن كان الجميع ينظرون إليه نظرة إجلال!...

طـــرقت ليـــنا بـــاب مكتب تيري بيرسون. كانت تعلم أنه في الداخل، فقد أخبرتها سكرتيرته. طرقت مرة ثانية وثالثة، ولكن دون أن يأتـــي أي رد. ذهبت مرة أخرى إلى مكتب السكرتيرة التي أبدت هـــي الأخرى دهشتها، ثم قالت، وهي تدق على جهاز النداء الخاص به عبر هاتفها.

- "لعله خرج من مكتبه، دون أن أنتبه..."

مـــا إن أنهت جملتها، حتى جاء صوت خافت من اتجاه مكتب الدكتور بيرسون.

- "ما هذا؟" سألت لينا، وكانت قد بدأت تدرك الإجابة... "أليس هذا صوت جهاز النداء؟!"

- "نعم... كأنه قادم من..."

لـــم تكمل السكرتيرة جملتها، حيث شعرت هي ولينا أن شيئا ما لـــيس على ما يرام، فاتجهتا على الفور إلى مكتب الدكتور بيرسون، الذي كان بالفعل ينبعث منه صوت جهاز النداء...

فتحت لينا الباب دون أن تطرق عليه هذه المرة، وما إن فعلت، حتـــى أطلقت السكرتيرة التي كانت بجوارها صرخة أسمعت أرجاء المستشفى!

كـــان تيري بيرسون معلقا أمامهما في الثريا بحبل في رقبته... جثة هامدة!

44

خـــرج من الطائرة إلى صالة الوصول بمطار بوسطن الدولي، وقـد أدرك مـــا علـــيه أن يفعل. كل شيء أصبح في غاية الوضوح بالنـــسبة له. حديقة الهايدبارك... ذلك الكلب الذي توقف أمامهما... حتـــى صاحبه الذي ناداه. كل شيء بدأ يتضح، ويأخذ موقعه في هذه الحـــيلة الكبرى، في عملية الخداع التي تمت منذ ثلاث سنوات! لكن بقـــي السؤال الذي كان يحتاج إلى الإجابة عليه، من هو الذي هربت مـــن أجله دلال رحال؟ في أي شيء يتميز عليه؟ أهو أكثر ثراء؟ أم أكثر وسامة؟ أم أنها أرادت فقط الحياة في أمريكا مثل صديقتها دليلة بورحيب، دولي، التي هربت هي الأخرى مع فرانك روكفلر صاحب الكلب؟!

– "الـــسيد جمال جداوي؟" سأل رجل طويل القامة يرتدي بدلة داكنة وبجواره رجلان في مثل قامته.

– "نعم، أنا **الدكتور** جمال جداوي."

– "تفضل معنا لو سمحت."

استغرب جمال من هؤلاء الرجال الذين كانوا في استقباله خارج الطائرة... من هم؟ وكيف علموا بوصوله؟

– "عفوا، ولكن ما الخطب؟"

– "نحـــن أمـــن المطار. رجاء، تفضل معنا، دون أية شوشرة، وسوف نخبرك بكل شيء... لا تجعل الأمر صعبا عليك، وعلينا!"

– "أمـــن المطـــار! وهـــل فعلـــت أنـــا أي شيء يستدعي أمن المطار؟!"

– "يبدو أنك لا تريد أن تأتي معنا بهدوء!"

شـــعر جمـــال باضطراب شديد، وبالأخص عندما بدأ الرجال، ثلاثتهم، يقتربون منه إلى درجة الالتصاق.

– "لا أريد المشاكل، سأذهب معكم حيث تشاؤون!"

* * *

انتظـــر جمال قرابة الساعة في غرفة صغيرة دون نوافذ، حتى جاءه رجل آخر، لا يقل طولا عن سابقيه، عرّف نفسه بالعميل لاري موياهان من مكتب الأمن الداخلي، ثم قام باستجوابه لمدة زادت عن الساعة...

– "وهل سبق لك زيارة سورية؟"

– "نعم."

– "لماذا؟"

– "من أجل السياحة."

– "فقط من أجل السياحة؟"

– "نعم!"

– "ماذا عن العراق؟"

– "ماذا تقصد؟"

– "لا تجب على سؤالي بسؤال!"

– "أنا فقط كنت أستفسر عن معنى السؤال."

– "هل زرت العراق؟"

– "لا."

– "وماذا عن البوسنة والهرسك؟"

– "لا."

– "أفغانستان؟"

– "لا! لا! أريد أن أعرف لمَ كل هذه الأسئلة؟ هل أنا متهم بشيء؟"

- "أخبرتك من قبل، أنا فقط الذي أسأل!"

- "أنـــا أعلم حقوقي جيدا، فليس من حقك أن تحتجزني هنا من دون تهمة!"

- "عن أية حقوق تتحدث؟ فمثلك لا حقوق له. تأتي إلى بلادنا، وتستغل كرم الشعب الأمريكي، وترحابه والحرية الممنوحة لكل وافد إلينا من أجل التخطيط لعمليات إرهابية!"

- "ماذا!؟"

- "اخبرني! من هم باقي أفراد الخلية النائمة؟"

- "أيـــة خلية!! لا يوجد خلية!" صرخ جمال مذعورا، وقد بدأ يدرك خطورة موقفه.

- "إذاً، أنت تعمل بمفردك! هل هذا ما تريد قوله؟"

- "لا! أنـــا لست إرهابيا! أنا لا علاقة لي بهذه الأمور! أنا، أنا أحـــب أمـــريكا ولا يمكن أن أقوم بمثل هذا العمل... هناك... هناك خطأ ما، لا بد و... وأنك... تقصد... ش.. ش.. شخصا آخر!"

أخـــذ جمال يبكي، وينحب غير مصدق المأزق الذي وجد نفسه فيه.

- "أرجـــوك، صدقني... أنا، أنا... لا... لا علم لي ب... بأي مخطط إر... إرهابي!"

- "إذاً، لمـــاذا تهجمت قبل سفرك إلى السعودية على منزل أحد مرشحي الكونجرس؟"

- "ماذا؟"

أقـــبل العميل لاري موينهان على جمال جداوي ببطء، ثم حنى جسده حتى أصبح فمه بمقابل أذنه اليسرى، فهمس:

- "أنت شخص غير مرغوب فيه هنا في أمريكا... فهمت؟ غير مرغوب فيه. أمامك حلان. إما أن تعود إلى بلادك من حيث أتيت في

أول طائرة مغادرة... وإما أن يتم احتجازك ومحاكمتك بتهمة الإعداد لمخطـــط إرهابـــي كبير... الخيار لك. أمامك خمس دقائق من أجل التفكير!"

* * *

اقتربت المضيفة من جمال جداوي، وبإبتسامة خجولة طلبت منه أن يـــربط حزام المقعد استعدادا لإقلاع الطائرة، ثم نظرت إلى جاره الذي كان منهمكا في قراءة كتاب لفت عنوانه انتباهها.

- "**الدولة الفاطمية وفن تتفيه العقول**... يبدو عليه كتابا مثيرا."

- "هـــو بالفعـــل كـــذلك." أجابها نعيم الوزان وهو يطوي آخر صفحة في الكتاب الذي بدأ قراءته، عندما غادر ماليزيا، ثم استطرد، وهـــو يناولها إياه..." تفضلي، لقد فرغت منه. أظنك ستجدينه مثيرا للاهتمام، كما وجدته أنا."

1 يناير 2010

بعلبك

انتهى الإحتفال الكبير قبيل الفجر، دون أية أحداث مثيرة، بعد أن تم تأجيله عن الموعد السابق له من أجل التحقق فيما جاء على الموقع الذي ظهر فجأة على الشبكة العنكبوتية، ثم انتشر انتشار النار في الهشيم، قبل أن يتم إغلاقه. تحدث الموقع عن رسالة يقال إنها كتبت منذ قرن من قبل رجل يدعى نجم الدين غول قام باكتشاف (من قبيل المصادفة!) مؤامرة كانت تخطط لها جماعة سرية، عرف بعد ذلك(على حد زعم الموقع) أنها تدعى أبناء حَدَاد، وكيف أن هذه الجماعة(قبل مئة عام!) كانت تخطط لنسف الاحتفال الذي كان مقررا أن يحضره عدد كبير من أبرز قادة العالم، ثم القاء اللوم على المسلمين، مما كان سينتج عنه فوضى عارمة تستدعي تدخل قوات دولية من أجل السيطرة على الأوضاع؛ ولم يكن هذا هو فقط ما جاءعلى الموقع، بل مما أثار دهشة العديد من المتصفحين، هو ذلك التسجيل الصوتي غير الواضح الذي زعم أنه حديث دار بين كمال أغلو واللورد ماير، رجل الأعمال البريطاني الشهير!... أدت البلبلة التي نتجت عما جاء في الموقع إلى تأجيل الحفل، بعد أن اعتذر عن عدم حضوره لأسباب أمنية العديد من رؤساء الدول، ومن ضمنهم الرئيس الأمريكي. لكن الجهة المنظمة للحفل قامت بنفي ما جاء في الموقع، بعد التحقق بنفسها في الأمر، مستعينة بأفضل الشركات الأمنية الخاصة، وعلى رأسها شركة بلاكواتر الأمريكية... يبدو أن العرب والمسلمين لا يزالون مغرمين بنظريات المؤامرة!

طــوى الرجل الصحيفة التي كان يقرأ منها الخبر، ثم اتجه إلى مسلة "أبولو" في معبد بعلبك، حيث كان ينتظره رجل آخر.

- "هل حضر الحفل؟"

- "نعم... حضره اللورد ماير، كما أمرتم."

- "جيد، أخبره بأن المعلم الأكبر قد قرر الاكتفاء بعزله، بعدما تبــين لــه عــدم علــم اللــورد بمخطط كمال أغلو وفرانك روكفلر بخــصوص المرأتين اللتين تم تهريبهما إلى أمريكا، بعد الإتفاق مع صفاء الدين إسماعيل. أخبر اللورد ماير أيضا أنه من حسن حظه أنه لــم يكن على دراية باستغلال كمال لرجالنا في السكوتلاند يارد من أجــل حــبك لعبته البلهاء... ما قام بفعله ذلك الأبله هو وفرانك منذ ثــلاث ســنوات، أدى إلى اكتشاف أمر مخطط الحدث الأكبر بمدينة حَدَاد! لقد كلفنا الكثير!"

اكتفى الرجل الثاني بهز رأسه بالموافقة دون أن ينطق.

- "أخبر أيضا اللورد ماير بأن كرمنا له حدود، وأنه إذا نطق بحــرف واحد، ولوعلى سبيل الخطأ، عما يعلم، فسيكون الحساب عــسيرا؛ ولــن نــبدأ به هو، بل سنبدأ بأفراد أسرته، الواحد تلو الآخر!"

هــز الرجل الثاني رأسه مرة أخرى بالموافقة، ولكن هذه المرة أخذ يتصبب العرق من جبينه، وقد قرر النطق:

- "وماذا عني أنا؟"

- "سنرشحك لكي تحل بدلا من اللورد ماير كأمين عام تحالف بولدربــرج... لا يزال هناك الكثير مما يجب فعله؛ وإن كنا خسرنا المعركة، فالحرب لم تنتهِ بعد!"

* * *

المدينة المنورة

فـــي بستان الشيخ عمر الحسيني بمنطقة قباء، تلقى نعيم الوزان الخبر الذي أسعده كثيرا، وهو إنشاء فرقة بحثية تابعة للعروة الوثقى تحـــت مسمى جماعة عبد القادر بنوزّاني، تخليدا لذكرى الرجل الذي كرس حياته من أجل البحث عن الحقيقة. كان هذا ثالث قرار اتخذته العروة الوثقى في اجتماعهم الطارئ الذي عقد قبل أيام على إثر آخر المـــستجدات، والتـــي نتج عنها القرار الأول بطرد كل من الدكتور إســـماعيل، وجاسم الفراج، وعدد آخر من كبار أعضاء الجماعة، ثم القـــرار الثاني بتعيين الشيخ عمر الحسيني أمينا عاما لقيادة الجماعة، وإعادة عضوية كل من جعفر الأشعري ونعيم الوزان...

– "آفـــة الرجال، عندما يتغلب الولاء للصديق أو القريب على الـــولاء للمـــبدأ أو المعـــتقد." قال الشيخ عمر، مخاطبا نعيم وجعفر ورجـــب فـــي أول اجتماع لهم بعد مغادرة أمريكا..." هذا ما أودى بجاســـم وإسماعيل، وهو ما سيودي بنا جميعا إن تناسينا في يوم أن الحق يعلو فوق الجميع."

– "مـــن كـــان ليتخيل أن صفاء الدين إسماعيل يبيع رفاقه بهذا الشكل؟ ومن أجل ماذا!... على العموم لقد لقي الجزاء الذي يستحقه." قال جعفر، مسترجعا الأحداث.

– "الخير والشر... ذلك الصراع الأزلي. من منا لم يفقد شيئا؟ هناك من فقد حياته، وهناك من فقد أسرته، وهناك من فقد نفسه." قال رجـــب الذي كان قد اتخذ قرارا بالعودة إلى إستانبول من أجل لملمة جراح الماضي، بعد رحلة طويلة في البحث عن الثأر.

نظر الجميع إلى نعيم الذي ظل صامتا متأملا كل ما سمعه من رفاقـــه. لم يكن لديه ما يقوله في تلك اللحظة، فقد شعر بأن الأحداث كانت أعظم من أي قول يقال...

اســـتأذن الجمـــيع، ثم خرج من البستان، وقد قرر التوجه إلى المكان الذي افتقده أكثر من غيره طوال السنوات الثلاث الماضية...

ذهب إلى الروضة الشريفة بالمسجد النبوي. صلى هناك صلاة الظهـــر ثم أتبعها بصلاة الشكر. لقد استطاع أخيرا أن يوفي بذكرى أســـتاذه عـــبد القادر بنوَرّاني. كما شعر بأنه أخيرا يستحق أن يكون حفـــيد خلـــيل الـــوزان، وأن لحظة العودة من المنفى الاختياري قد حانـــت... توقـــف فجـــأة بعد خروجه من بوابة المسجد، وقد شعر بالكلمـــات التي فارقته في بستان الشيخ عمر الحسيني. أخرج هاتفه الجـــوال، ثـــم أخذ يكتب رسالة قرر أن يبعثها إلى جميع معارفه من داخل العروة الوثقى وخارجها. كان نص الرسالة:

قد يعود الغائب وقد لا يعود، ولكن تبقى حقيقة ثابتة

أن الأمة العظيمة لا تهزم من الخارج،

قبل أن يقضي عليها أبناؤها من الداخل!

عودة الغائب

رواية

د. منذر القباني

• روائي سعودي

- أبناء حَدَاد!... إذاً أنت تتحدث عن خطاب نجم الدين غول؛ هل تقصد القول بأن الدكتور عبد القادر استطاع التوصل إلى شيء؟ استطاع فك طلاسم رسالة نجم الدين غول، وأنه قتل بسبب ما توصل إليه؟!

أنهى جاسم تساؤلاته دون انتظار إجابة، ثم قام فجأة من موضعه وأخذ يدور حول القاعة في عاصفة من التفكير، محاولاً أن يستوعب الأمر برمته.

- جاسم، يجب أن تعلم...
- لِمَ لَم تخبرنا هذا من قبل؟

سأل جاسمٌ قاطعاً حديث الدكتور إسماعيل.

- أخبركم ماذا؟ بأنني لم أستجب لطلب أحد كبار القادة و لم أدرج في جدول الأعمال أمراً ظن أنه يستحق البحث و النقاش، مما اضطره لبحث أمر الخطاب مع فرقته من دون الاستعانة بموارد العروة الوثقى؛ بأنني لم أوفر له الدعم الكافي! بأنني السبب في افتضاح أمره! جاسم هل فهمت ما قلته لك... خطاب نجم الدين غول هو مفتاح كل شيء. ومحتواه هو الذي أدى إلى مقتل الدكتور عبد القادر، و باقي فرقته!
- يا إلهي!... إذاً استطاع الدكتور عبد القادر التوصل إلى ما كانت العروة الوثقى تسعى إليه منذ نشأتها: معرفة حقيقة حكومة الظل؛ و لكنه مات قبل أن يوصل إلينا التفاصيل!...

• صدر للكاتب أيضاً:

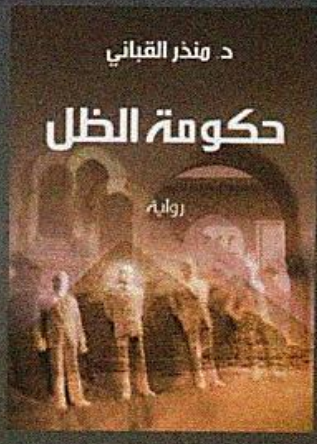

ISBN 978-9953-87-346-6
9 789953 873466
تصميم الغلاف سامح خلف
علي مولا
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

جميع كتبنا متوفرة على شبكة الإنترنت
نيل وفرات.كوم
www.neelwafurat.com